ق قصص



محمود السعدني

خوخة السعدان

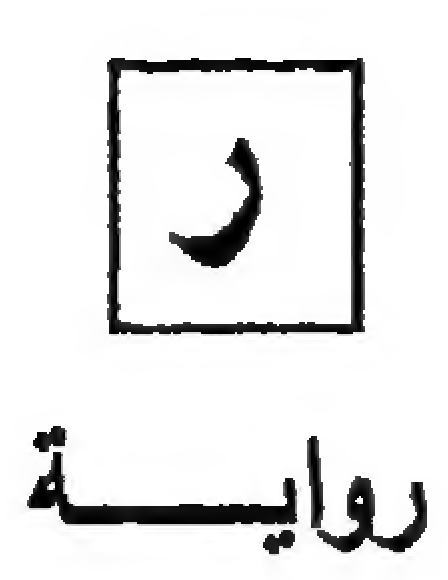

خوخة السعدان

الطبعـــــة الأولـــى ١٩٩٢

دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصــــفاة ٣١٣٣ - الكـــويت
ص . ب : ١٣ المقطم - القاهرة

☎ ٣٤٩٧٧٧٩
٣٤٩١٧٢٧

الاشراف الفنى : حلمى التونى



رواية

خوخة السعدان

محمود السعدني



كوميديا السعدني.. ومأساة البشر

بقلم : صلاح حافظ

الأدب عند محمود السعدنى ليس تصويرا للحياة ، وإنما هو الحياة نفسها .

وشخصيات قصصه ليسوا رموزا لتجسيد واقع يريد ابرازه أو أدوات يحركها للتعبير عن فكرة لديه ، إنما هى حقائق حية ، عاشرها بنفسه ، وجاء يحكى لنا عنها.

وهو قد عاشر هذه الشخصيات لأنه يحب أن يعاشر الناس.

وهو يحكي لنا عنها ، لأنه يحب أن يحكي.

وسر السعدني هو أنه لايوجد مكان ، أو بيئة ، أو مدينة ، أو شعب ، لايشعر معه أنه في بيته ، فهو يأكل الكافيار في قصور السادة بنفس اللذة التي يأكل بها كوز الذرة على الرصيف ، وهو في السجن كان يداعب السجان ، ويقاسمه طبق العدس.

ويسمع أمجاه بلذة حقيقية ، وفي بورسعيد كان يقضي الليل

والنهار مع الصيادين ، وفي لندن كان يسمع بشغف متاعب أصحاب الملايين ، وفي حواري الجيزة كان يشغله الجزار الذي قبض عليه رجال التموين ، وصاحب المقهى الذي سقطت لافتته لأنه ثبتها بجبس مغشوش.

وحياة السعدني أعرض من حياة أي كاتب مصري اعرفه.

وهو فيها قد عرف من الناس أكثر مما عرف أي كاتب ، وعاش أدواراً لم يعشها غيره .. عاش فقيرا ، وعاش وجيها ، وعاش بطلا ، وعاش خوافا ، وهاجم ودافع ، وكر وفر.. وقال الحق حيث كان يجب أن يكتمه ، وكذب بدون سبب ، لمجرد العبث والتسلية ، وخاف أمام أخطار هزيلة، وتحدى أخطاراً رهيبة.

ولايمكن تفسير حياة محمود السعدني إلا على ضوء الشخصيات التي عايشها ، والتي لاحصر لها ، ولا حدود لها لتنوعها ، فهو لم يكتف بأنه عايشها ، وإنما عاش كلا منها

على سبيل التذوق .. وتوحد مع كل منها فى لحظة من اللحظات.

وهو لهذا لايحكى عنها من طرف أنفه ، ولايبدو مشرفا عليها من أعلى ، ولايحاول أن يجرى على لسانها فلسفته الخاصة ، إنما يطلقها تتصرف ، وتتحرك ، وتتفلسف ، وهو محب لها .. ومؤمن بها.

يسخر منها ، نعم ، لكن هذا ليس استخفافا بها .. إنما تعبير عن مودته وحبه ، وإعلان بأنها قد صارت بعض حياته ، وإنه قرر أن يعاملها كما يعامل نفسه .. ومحمود السعدنى لايحب أن يسخر من أحد كما يحب أن يسخر من نفسه .

والقيمة الكبرى للقصص التى فى هذا الكتاب هى أنها جميعا حقيقية ، وإنها جزء من حياة الكاتب .. لا من خياله.

أحداثها ، شخصياتها ، سلوك الناس فيها ، مآسيها ومهازلها ، كلها من خلق الحياة ، لا من خلق الخيال ، وجاذبيتها ليست من ثمار الصنعة الفنية ، أو الافتعال ، وإنما من ثمار الصدق فى الرواية .. ومن ثمار المقدرة الفذة التى يتمتع بها السعدنى فى تجسيد المشاهد والمفارقات ، وقدرته على أن يكتب كما يتكلم .. بطلاقة ، وسخرية ، واستمتاع.

وميزة هذه المجموعة المنتقاةمن قصص السعدنى ، والتى سبق أن نشر بعضها ، أنها تصور مجتمعا بلا رتوش ، ولا أغطية ولازينات، وأنها صادقة مائة فى المائة، وأن صاحبها قد

عاش كل قصة منها بكل جوارحه ، وبعين ثاقبة ، وذاكرة حديدية .. وعندما كتبها كان لايروى عن أبطالها فقط .. وإنما كان يكتب عن نفسه أيضاً ، وكان يفصح فى كل قصة منها عن بعض ذاته كإنسان .. وفنان .. وأديب..

لا أدرى ماذا سيقول النقاد .. ولا أعرف ما سيكون موقع محمود السعدنى فى تاريخ الأدب العربى.

لكننى واثق من أن المتعة التى تتيحها هذه المجموعة من قصصه لايسهل العثور على مثلها فيما نقرأ اليوم.

وواثق من أنها ليست مجرد متعة عابرة ، إنما هى تغوص فى النفس ، وتغذى الوجدان بعصارة حياة خصبة عريضة ، لاذعة ، ناقدة ، لايتاح لأحد أن يعيش مثلها .

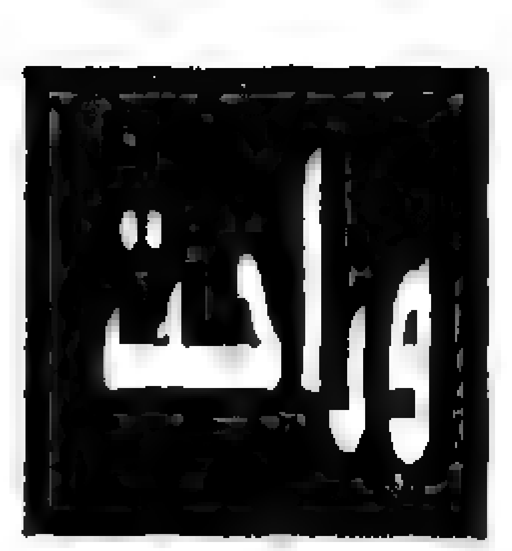
ومع ذلك ..

فهى فى النهاية متعة تخلف مرارة.

تبهج القلب ، ثم تعود فتعصره ، تسعدنا لحظات بكوميديا الحياة، ثم ينسدل الستار فتشعر بأن هذه الكوميديا – فى حقيقة الأمر – طلاء من السكر يغلف المأساة.

✿ ✿

خوخة السعدان



شوشو من ميدان السيدة زينب تخترق الأزقة والحوارى ، وتسأل بعد كل خطوة عن خوخة السعدان، وهى على طول الطريق ترمقها ألف عين نصف نائمة نصف يقظانة ، يتمطى أصحابها فى كسل لذيذ وفى شمس الشتاء علي المقاهى الكثيرة المتراصة بجوار بعضها على الطريق وأحست شوشو بالضنا وأحست بالتعب وتمنت لو استطاعت أن تعود من حيث جاءت بعيداً عن هذه الخرائب التى تفوح منها رائحة كريهة، وكأنها رائحة خنزير مذبوح!!

ولكن ماذا يقول عنها بابا وماما وكل أخوتها وقد تحدتهم جميعا ، وأصرت أن تسير وحدها حتى نهاية الشوط .. نعم ماذا يقول كل هؤلاء لو انها نكصت علي عقبيها وعادت إلى قصر أبيها من جديد ، ولكن لو أن هؤلاء الناس المتبطلين الخاملين لم يسددوا إليها نظراتهم وكأنها رصاصات مدفع رشاش تخترق كل مكان فى جسدها اللدن الجميل.

ترى ما السبب الذى يجعلهم ينظرون إليها وكأنهم جوعى أمام وليمة فاخرة رفع الغطاء عنها فجأة وبلا تدبير ! ..

ألم يسبق لهم أن رأوا نساء ؟ أليست لهم زوجات وبنات وصديقات.. وربما خليلات أيضاً ..

ولكن أليس هؤلاء هم الفقراء الذين وطدت العزم على خدمتهم والدفاع عنهم والسهر على مصالحهم .. وهذه الرحلة الطويلة الشاقة التى تقطعها الآن فى سبيل رفع مستواهم وانتشالهم من الحضيض الذى يعيشون فيه .

وتوقف عقل شوشو قليلا عن التفكير وفركت بأصابعها النحيلة المدببة الورقة المطوية المعطرة التى كانت تنام مستريحة فى راحة يدها ، واستوقفت رجلا كان يعبر الطريق ، وألقت نظرة على الورقة ثم سألت المعلم المعمم.. وتنهدت ببطء قبل أن تسأله عن خوخة السعدان ، وقطب الرجل جبهته ، وضيق ما بين عينيه ورفع سبابته وضربها فى أنفه ، ثم ألقى نظرة طويلة فاحصة على الست الملبن التى تقف أمامه كالهة من آلهة الجمال ثم قال فى هدوء:

– خوخة السعدان ..

وردت شوشو فى ضيق شديد :

– أيوه ..

وعاد الرجل ينكش بسبابته فى شعر رأسه ثم فى فتحة منخاره ، ثم ثنى إحدى ركبته وكأنه على وشك الجرى فى سباق عنيف ، وقال فى نفس هدوئه المعهود :

– أللهم صلى على كامل النور ، بقى خوخة السعدان على طول

كده، وبعدين تكسرى على ايدك اليمين كده ، وتمشى على طول لما تلاقى قهوة قدامها تلاجة ، تيجى كسرة شمال ، وبعد شويه يصادفك جامع ، وهناك بالصلا على النبى تسألى عن خوخة السعدان .. ألف واحد يدلك..

ولم تفهم شوشو حرفاً مما قال ، وعادت تواصل رحلتها المضنية الى حيث أشار الرجل المعمم الكريه..

ووقع نظرها على عشش مهدمة ، وبرك طين تسبح فيها الكلاب واستاءت شوشو لكل هذا الفقر المحيط بها ، وتمنت لو تعثر على حل سليم للقضاء على كل ما فى هذا الحى من فقر ، وتمنت لو أنها تملك ملايين كثيرة ، إذن لتبرعت بآلاف عديدة ، لتشترى لهؤلاء الناس صابوناً وجازاً وخبزاً وسيارة لتنقل أطفالهم الى المدارس ، وأجهزة راديو ، واسطوانات لموزارت وبيتهوفن ورمسكى كورساكوف ، آه لو استمع هؤلاء الفقراء الى موسيقى كورساكوف إذن لأرتقت أحوالهم ، وتغيرت معالم حياتهم ولأصبحوا خلقاً جديداً !!

وتاهت شوشو قليلاً عن الفقر الذى خلفها ، والفقر الذى أمامها والطين الذى يلطخ كل شىء فى الشارع الضيق الملتوى وكأنه بداية طريق يؤدى إلى المقابر ..

وسرح عقل شوشو فى الكلب الذى خدعها والذى وعدها بالزواج ، كانت تظنه رجلاً ، وكانت هيئته تدل على أنه رجل فعلاً ، هيئته الطويلة العريضة ، كلامه المعسول ، شاربه الأصفر الجميل ، عضلاته المفتولة ، قلبه الذى لايخشى مواجهة الأسود ، ولكن كل هذا تبخر فى لحظة .. وبدا لها فى ثوبه الحقيقى عاطل مفلس جبان ، وهيئته الجميلة هى كل مهنته فى الحياة !!

وانحدرت عبرة على خد شوشو ، ولكنها سرعان ما تداركت نفسها، فراحت من جديد تنظر الى الناس ، وإلى الحيطان . وإلى الأطفال والكلاب ، واقتحم سمعها كلام غريب يطلقه الناس بلا استحياء .. ويقصدون به التحية والسلام.

كلام لم تسمع مثله من قبل وأوصاف تكاد تجعلها تضرب رأسها فى الحائط ، هؤلاء الفقراء ليسوا مؤدبين ، لو أنهم دخلوا مدارس أجنبية إذن لتعلموا الذوق ولفهموا معنى الأتكيت ، وياسلام ياشوشو لقد هبط الحل السليم الذى كانت ترجوه.

وليكن حل المشكلة من هنا .. من المدارس الأجنبية ، فإنها لو لاقت وسيلة لاقناع هؤلاء الناس بضرورة الالتحاق بالمدارس الأجنبية ، إذن لضمنت تخريج جيل جديد من هؤلاء الفقراء يعرف كيف يتحدث وكيف يأكل ، وكيف يحب وكيف يتصرف برشاقة .. وعندئذ سوف تصفو لهم الحياة.

واستيقظت شوشو من أحلامها على حائط عريض يسد الطريق ، واحتارت من أين تنفذ .. لابد أنها ضلت الطريق ، وسألت شوشو حتى علمت أنها لم تضل وكان عليها أن تحني هامتها الرشيقة لتمر من ثقب فى الجدار يوصلها الى خوخة السعدان ، وانحنت شوشو ومرت من الجدار، وتمزق جوربها الحرير الطبيعى واتسخ معطفها الفرو ، ولكن ماذا يهم ،، مادام كل هذا فى سبيل الفقراء.

وامتلأ قلب شوشو بالخوف عندما هلت على خوخة السعدان ليس هذا المكان بشارع ، ولابحارة ، ولابزقاق ، الوصف الصادق له إنه خرم فى الحى، وهل من المعقول أن أحداً من الأحياء يعيش فى المكان ؟ ..

وسألت شوشو ودلها أولاد الحلال على المكان الذى تريده ، ومضت من جديد عبر الخوخة تفكر فى الحالة النفسية الرهيبة التى ظلت تعانيها عاماً كاملا بعد أن فر من يدها العاطل الجبان ، كم مرة فكرت فى الانتحار ، وكم مرة فكرت فى دخول الدير ، وكم مرة بكت وبللت وسادتها بالدموع ، لقد فر الجبان ومعه شىء عزيز كان من الواجب أن تحرص عليه ، ولكنها لم تبك من أجل هذا ، كان السبب فى بكائها هذا النذل نفسه ، فكم أحبه قلبها الصغير . ولكنها أخيراً عرفت الطريق الى السلوى والى النسيان ، ليس هناك من ميدان تستطيع أن تسلو فيه أحزانك إلا ميدان خدمة الفقراء ، وهى ترجو أن توفق وترجو أن تنجح فى الوصول الى حل سريع ، إنها واثقة من الفوز، لقد تحدت أسرتها وتحدت رئيسة جمعية سيدات المجتمع ، وستثبت لهم جميعا أنهم كانوا على خطأ .. وهى وحدها التى كانت على صواب ، إنها لاتنسى أبداً حديث بابا عندما همست له برغبتها فى خدمة الفقراء.

– هؤلاء الفقراء كلاب ، لايحمدون الله أبداً ، واذا شبعوا تمردوا .. ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من شقاء.

ولكن شوشو لم تصدق بابا أبداً ، فمن الممكن جداً أن ينصلح حال هؤلاء الفقراء .. فقط لو وجدوا واحدة تفهم الحياة ، وليس مثل شوشو من يفهم الحياة!.

واستراحت شوشو من عقلها الباطن ، فقد وصلت أخيراً إلى المكان الذى تقصده فى خوخة السعدان ..

وسألت عن محمد كباره ، وقادها طفل عار تماما الى مكانه ، رجل مهدم رغم أنه فى الخامسة والثلاثين ، يلف رأسه بخرقة بالية لا لون لها ، وجلباب تزينه الثقوب ، يجلس على الأرض وإلى جواره كوز من

الصفيح يتصاعد من داخله بخار ويتأرجح فى أعماقه شئ أسود اللون لابد أنه شاى أو ربما هو هذا الشئ الذى تسمع به .. والذى يسميه الناس .. الحشيش !

ووقفت أمامه برهة تنظر إليه ثم إلى الورقة المطوية ، وبدا من منظر كبارة أنه لم يفاجا بمنظرها .. فقد كان وجهه جامدا وكأنه نائم فى مكانه هذا منذ عام ، وسألته شوشو برفق:

– أنت الأستاذ محمد كبارة ؟!

وضحك كبارة ضحكة ميتة .. ولكنها ساخرة :

– هأو .. قال أستاذ .. ليه شايفانى لابس عمة ، أيوه أنا كبارة ، إيه فيه حاجة انسرقت منك أنت رخره ، حكومة أنت..

وارتاعت شوشو جدا ، واقشعر بدنها لهذه البداية السيئة ، ولكنها تمالكت نفسها .. فهى تجربة على أية حال ، ومن يتصدى للخدمة العامة يجب أن يكون مسلحاً بالصبر والإيمان .. حكمة قرأتها شوشو فى كتاب !!

وفكرت شوشو فى طريقة أخرى ترضى كبارة وتبدأ بها الحديث ، ولكن كبارة نفسه كان لايزال يملأ الدنيا صراخاً وسباباً ، والألفاظ يكاد شعر شوشو أن يقف من هولها !!

وحاولت شوشو جاهدة أن تهدئه ، ولكنها لم تكد تبدأ حتى برزت إمرأة عجوز من جحر خلفها وفى يدها فردة شبشب ، ولسانها يطرقع فى الهواء كالسوط .. تسب الدين والدنيا وكبارة وكل الناس !! .. وانهالت المرأة العجوز على كبارة بالشبشب ، وظل كبارة يصيح ويشتم ويسب هو الآخر دون أن يتحرك من مكانه، وفوجئت شوشو بشلة

كبيرة من الرجال والنساء والأطفال يلتفون حولها .. أكثرهم يتفرج .. وقلة قليلة تحاول فض المشكلة، وفهمت شوشو خلال هذا كله أن الذى جرى أمامها لحظة لم يكن إلا حلقة واحدة من سلسلة طويلة بدأت منذ الصباح الباكر بين كبارة والمرأة العجوز، والسبب أن المرأة افتقدت صفيحة قديمة كانت لديها ، فلما لم تجدها اتهمت كبارة بسرقتها .. وأهل الخوخة جميعا يؤكدون أنها صادقة.

وعندما علمت شوشو بالحكاية كلها ، حاولت أن تتدخل لعقد صلح بين الرجل الذى جاءت تبحث حالته .. والمرأة التى ليس لها من صفات المرأة إلا الاسم فقط .. حتى ملابسها نفسها كانت رجالى .. وكانت ممزقة !!

وقالت شوشو وهى تحاول – صادقة – فض المشكلة :

– ياجماعة بسيطة .. لازم كلنا نحب بعض ..

ولكن صوتا مازحا جاءها من الخلف من آخر الحلقة المضروبة حولها :

– كلنا نحب القمر .. والقمر هأو .. ياخرابى ياجدعان ، أموت أنا !

وضحك الجميع .. حتى المرأة العجوز صاحبة الصفيحة تقصعت وتمايلت .. وقالت بصوت مرتفع:

– آل نحب بعض ، ياختى بلا نيلة !!

وانفض السامر .. كل الى وجهته .. وبقى بعض الناس ملتفين حول شوشو .. وكأنها مخلوق عجيب يتفرجون عليه لأول مرة ..

ودارت شوشو بنظراتها تتفحص الذين من حولها ، الشئ العجيب الذى حيرها أن الجميع كانوا يشبهون كبارة ، وكأنهم أخوته من أب وأم،

وعنما نظرت شوشو إلى كبارة . خطر لها أن تجرى وتفر ، فقد كانت عروقه بارزة ، والزبد يغطى شفتيه ، وعيناه جاحظتين ، وهو يلطم خدوده بين الحين والحين ، وينفخ من شدة البؤس والضجر..

وسألت شوشو واحداً من الذين يلتفون حولها عما به .. وجاءها الجواب بسرعة من أكثر من واحد :

– أصل الأسياد ماسكينو ..

ولم تفهم شوشو شيئا .. فقالت فى براءة طيبة :

– أسياد ايه ؟

وجاءها الجواب .. وفى الصوت رنة استنكار :

– أسيادنا اللى تحت الأرض ..

وسرت رعدة فى جسد شوشو ، ولم تدر ماذا تقول .. وأخرجها من ورطتها واحد من بين الملتفين حولها .. كان يبدو أنه أكبرهم سنا ، وأيسرهم حالا كذلك، فقد كان ممسكا برغيف يقضمه ، سألها الرجل فى ود عميق :

– الست – عاوزه حاجة منه ؟

وأجابت شوشو على الفور .. وبلهجة إملائية كأنها تلقى قطعة محفوظات :

– أنا مندوبة جمعية سيدات المجتمع ، وجايه أبحث حالته عشان نساعده ..

وقال الرجل الأشيب العجوز فى نفس الود العميق :

– أهلا وسهلا .. يا ألف مرحب ..

ثم التفت إلى كبارة . ولكزه بأطراف أصابع قدمه :

– ياواد يا كبارة .. قوم اتكلم مع الست .. عاوزه تساعدك .

ولكن كبارة لم يرد ولم يتحرك.. فزعق الرجل العجوز في وجهه:

– قوم ياشيخ جتك نيلة .. حد يطول ..

وأخيراً رد كبارة في صوت أجش :

– ايه .. عاوزين مني إيه ؟

وهمست شوشو في صوت لين حنون وكأنها تردد أغنية :

– بس .. كنت عاوزه أسالك كام سؤال ..

ورد كباره على الفوز هذه المرة .. دون أن يرفع بصره إليها :

– أي خدمة ؟ ..

وسكت برهة ثم أردف على الفور :

– أنا موش حرامي .. أنا أشرف واحد هنا .. آل صفيحة آل ..

وقالت شوشو :

– أنت .. حضرتك اسمك ايه ؟

– محمد .. زفت .. كبارة

– وعندك كام سنة ياسي كبارة ؟

– أي حاجة .. أنا يعني كان عقلي دفتر ..

ورأت شوشو أن تتفادى الثورة .. فقالت على الفور :

– طيب معلهش.. انت مؤهلاتك ايه ؟ ..

ورفع كبارة بصره لأول مرة .. وابتسم ابتسامة بدت – رغم فقره وقذارته – في حالة ليست جميلة ، ولكنها أيضاً ليست بشعة مثل منظره .. وأجاب علي استحياء :

– أنا لسه ما تأهلتش ..

ثم عا إلى طبيعته الأولى .. واكمل حديثه بعصبية حادة :

– أنا لاقى أكل .. أما أتأهل..

ولم تفهم شوشو شيئا .. ولكنها رات أيضاً أن تتفادى كل ما من شأنه أن يعكر هدوء الموقف .. فسألته:

– طيب .. وبتشتغل ايه ؟

وقال كبارة :

– اشتغل ايه ؟ .. حلوه دى ، أعبى شمس فى أزايز .. آل بتشتغل ايه.. شغلينى انتى .. شغلينى ريس أو أى حاجة .. حلوة دى ..

– أمال عايش إزاى ياسى كبارة ؟

– عايش على الله وع الست ..

وبانت الدهشة على وجه شوشو فسألته مستنكرة :

– ست مين ؟

وكأنما استفزه هذا السؤال ، فتجهم وجهه .. وبدا شريراً كوجه غول.. وأجاب متحدياً :

– انتى كمان موش مصدقة .. أسأليهم .. بقولك الست .. أنا مخاوى ست جنيه من تحت الأرض .. أجدع ست جنيه من تحت الأرض .. أجدع ست ، وطيبة ومسلمة زى حضرتك بالضبط..

وسكت كبارة قليلا ، وحدق ببصره فى وجه شوشو قبل أن يضيف قائلا :

– إيه موش مصدقانى ؟!

وانتزعت شوشو منديلها الحريرى المعطر من حقيبتها ، وراحت تمسح به العرق الذى أخذ ينهمر من جبهتها على عينيها ، وأجابته وهى خائفة وجسدها كله يرتعد من منظره :

– مصدقاك ..

واستطرد كبارة حديثه قائلا :

– أجدع ست والله .. بتطلعلى هنا مرة كل شهر .. تجيبلى كل حاجة ونستحمه سوا . ربنا يخليها.

كانت شوشو قد وصلت إلى حالة قاسية من الاعياء .. كانت تود لو ألقت بنفسها علي الأرض وبكت إلى ما لانهاية .. أحست أنها ألقت بنفسها فى حفرة مظلمة بشعة ، وهؤلاء الفقراء الذين أمنت بهم وتمنت أن تخلصهم من شقائهم مجموعة من الوحوش الضارية .. جهلة . وحمقى . وأشرار . مثل أكلة لحوم البشر ، ورأت أن تنهى الحديث مع كبارة .. فقالت له مطمئنة إياه على مستقبله :

– طبيب يا كبارة .. احنا راح نساعدك إن شاء الله ..

ورد كبارة على الفور :

– امتى ؟!

– بعد يومين ثلاثة إن شاء الله ..

قالتها واستدارت لتنصرف .. وافسح لها الناس الواقفون ونظراتهم الحادة مصوبة نحوها ، وقبل أن تخطو خطوة قال كبارة فى جد ووقار هذه المرة :

– وحياتك تبقوا تساعدوا الست هية كمان .. دى ست طيبة قوى .. لما تشوفيها راح تنبسطى قوى .. هيه بتطلع هنا مرة كل شهر .. أيوه.. فاضل أسبوع على ميعادها..

وهزت شوشو رأسها موافقة .. واستدارت فأعطت الجميع ظهرها وسارت تقطع خوخة السعدان بخطوات مترنحة .. ونفذت شوشو من الخرم الذى فى الحائط فأتى على بقية الجورب .. ولطخ الجزء النظيف الباقى من البالطو الثمين .. وراحت تحث الخطى فى الشارع الضيق الملتوى نحو ميدان السيدة .. حيث تنتظرها العربة الفارهة هناك..

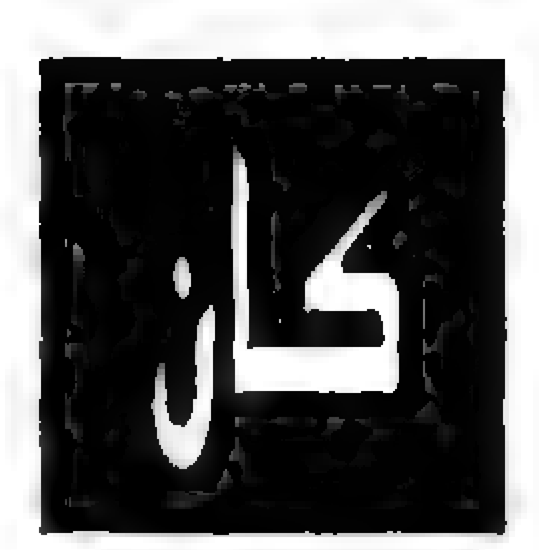
وعندما أطلت على الميدان الكبير ، استراحت نفسها واطمأنت .. وعندما دلفت داخل العربة .. ألقت بنفسها على الفور متعبة منهوكة القوى .. وأمام عينيها الجميلتين صور كثيرة غير واضحة .. صورة النذل الحقير .. ورئيسة جمعية سيدات المجتمع ، وكبارة وبابا .. ورنت فى أذنيها كلمات بابا الخالدة ، هؤلاء الفقراء كلاب .. لايحمدون الله أبداً، واذا شبعوا تنمردوا .. ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من شقاء ».

وقبل أن تدير شوشو مفتاح العربة ، مدت يدها فى خفة وسحبت من تحتها كتاباً أزرق أنيقاً .. وألقت نظرة على الصفحة المفتوحة .. كانت هناك جملة تحتها خط باللون الأحمر : «الذين يتصدون للخدمة العامة يجب أن يكونوا مسلحين بالصبر والإيمان » ..

ومدت شوشو أناملها المصبوغة فطوت الكتاب وألقته فى المقعد الخلفى ، وانطلقت بالعربة تسابق الريح ..

ومع الريح طارت الورقة التى كانت تحمل العنوان : «خوخة السعدان.. محمد كبارة » ..

✿ ✿



كان علينا أن نمر أمام كامب الأفريكان مرتين كل يوم، مرة فى الصباح عند ذهابنا إلى المدرسة ، ومرة فى المساء عند العودة ..

وكان كامب الأفريكان يعكس حالة البؤس والخراب التى سببتها الحرب، كان يحتل خرابة فى منتصف شارع المدارس، وكانت بواباته الكبيرة مكسورة والكامب فى منتهى القذارة ، وجنوده دائما ثملون يترنحون فى الشارع الذى يقع فيه الكامب يصفرون لحنا غريبا وينشدون كلماته فى حسرة شديدة « أنا أحارب من أجل الملكة بشلن فى اليوم» ..

وكنا نجفل منهم اذا اقتربوا منا ، فنفر كأرانب مذعورة ، وكانوا هم فى حالة هياج مستمر، وأسلحتهم البيضاء الصغيرة تلمع فى أصابعهم، وكانوا يهيمون على وجوههم فى الليل حول المنطقة المحيطة بالكامب يبحثون عمن يشترى منهم مهمات قديمة مسروقة من داخل الكامب لقاء زجاجة من الخمر الرخيص.

وذات عصرية ونحن نلعب الكورة أمام الساحة الواقعة فى مواجهة الكامب ، خرج جندى «أفريكى» - كما كنا نطلق عليهم - واتجه نحو الساحة ووقف يتفرج فى هدوء على اللعب ويقذف إلينا بالكرة كلما

مرقت من الجول، ويصفق فى حماس كلما سجل أحدنا هدفاً ، ويصرخ فى نشوة صادقة، براڤو.. رائع..

ومرت أيام قليلة والجندى الأفريكى يأتى كل عصرية وينفق الساعات الطويلة يتفرج فيها علينا ، وتوطدت الصداقة بيننا أكثر فتطوع بأن يكون حكما بين الفريقين ، ثم أصبحت عادة لديه أن يحمل إلينا الهدايا ليوزعها على الفريق الفائز عقب انتهاء المباراة.

وجاء مرة واللعب متعطل لأن حارس مرمى فريق الأسد المرعب تخلف عن الحضور، فخلع الأفريكى زيه العسكرى ونزل إلى الملعب بالفانلة واللباس وحذائه الميرى ، وانتهت المباراة بعد أن سجلنا خمسة أهداف نظيفة وليلتها وزع على كل لاعب من الفريقين قطعة شكولاته ولما ساومناه على أن يسترد منا الشيكولاته مقابل علبة سجاير واحدة للفريقين ، صاح فى استنكار : ياللعار!

وذات مرة سألنا فى ود عميق ، أين تذهبون بعد اللعب ؟ فأجبناه فى زهو : الى المقهى.

فقال فى هدوء : هل أذهب معكم ؟ وبعد أن تبادلنا النظرات أجبناه، نعم تستطيع ولكن واجهتنا مشكلة عويصة ، كيف نصحب معنا الأفريكى إلى حوارى الجيزة، ثم إلى قهوة المعلم أمين وهو بلباسه العسكرى؟

وتطوع أحدنا بحل المشكلة فأبدى استعداده لاحضار طقم بلدى كامل ليرتديه الأفريكى أثناء سهرته معنا فى قهوة المعلم أمين، وغاب هذا الصديق لحظات ثم عاد ومعه جلباب كشميرى وكوفيه صوف

وحذاء ، بكعب كباية ، وأصبح الأفريكى المعلم الأخرس ، فقد أتفقنا معه على أن يلزم الصمت طوال الجلسة ، لأننا لانستطيع أن نقدر مدى الشر الذى سيلحق به إذا فتح فمه فى قهوة المعلم أمين.

وقضى الأفريكى ليلته فى المقهى سعيدا بما يرى ، وفى النهاية دفع الحساب كله ، ونفح الجرسون عشرة قروش كاملة .. بقشيش، وبذلك أصبح المعلم الأخرس حديث المقهى .. كله.

وأصبحت عادة الأفريكى أن يتردد على المقهى معنا كل مساء ، ويجلس صامتا لايتكلم حتى منتصف الليل ، فيدفع الحساب والبقشيش وينصرف إلى حال سبيله ، وأصبح صديقاً لأكثر رواد المقهى دون كلام ، صابر الطباخ وحشيف المكوجى ، وبرهومة العجلاتى ، وأصبحت هوايته الوحيدة ، هى الفرجة على الكوتشينة خصوصا عندما تكون المباراة بين صابر وحشيف.

وذات مساء لم يستطع غزالى ، وهو اسم صديقنا الذى تطوع بحل المشكلة واحضار الملابس ، لم يستطع احضار الطقم البلدى من منزله، وقررنا أن نترك الأفريكى يعود الى الكامب بعد المباراة ونذهب نحن وحدنا.

وفى هذه الليلة سألنا المعلم أمين عن المعلم الأخرس ، ولما تخلف عن الحضور؟ وهل أصابه مكروه؟

وأجبنا عن أسئلته فى تحفظ ، فقد كان المعلم أمين هو السبب الذى من أجله نخشى أن نصحب معنا الأفريكى فى زيه والسبب أن المعلم أمين فوجئ ذات مساء وهو جالس أمام باب القهوة جلسة انسجام ، الشيشة بين أصابعه واللاسة الحرير تلتف حول عنقه ، والحذاء يبرق

فى قدميه ، ودستة خواتم ذهب تلمع فى أصابعه والدنيا صيف، ونسمة طرية تهب من ناحية الشارع وتثير معها الغبار ، والمعلم يجلس منفوخاً كالديك الرومى، ينتظر فى اطمئنان ورقة اللحم من الفرن ، وسلطانية الطرشى البلدى ، عشاؤه الذى اعتاده منذ أصبح معلما وله قهوة.

فى هذا الجو الجميل المثير ، هبط على المعلم أمين خمسة عساكر أفريكان ، وجوههم فى لون الحبر ، ونظراتهم تلمع فى الظلام كأنها فصوص الماس ، ويرطنون بكلمات لم يفهم منها المعلم أمين حرفا ، ولكنه فهم أنهم يريدون الجلوس ، وأنهم فى حاجة إلى شاى ساخن ، وإلى شيشة تشبه التى فى فم المعلم أمين.

وابتهج المعلم أمين وطابت نفسه للمصادفة الحلوة التى ساقت إليه هذه الصيدة، فهؤلاء الأفريكان من بلاد بعيدة وعساكر فى الحرب ، ولابد معهم فلوس ، وستكون هذه الليلة ، ليلة أنس وانسجام للمعلم أمين.

وصفق المعلم أمين فى حماس وطلب شايا وشيشة للأفريكان وجلس يحاول التفاهم معهم ، وكان كلما عجز عن فهم ما يقولونه رفع أصبعيه ، السبابة والوسطى وقال فى انشراح ، عربى أفريكى سوا سوا.

ثم يهز رأسه ويتمتم فى سرور: مظبوط ، والتقط الأفريكان الخمسة كلمة «سوا سوا » من فم المعلم أمين ، فرددوها فى حديثهم معه ، وبذلك انشكع المعلم أمين ، وكيف لا ، واللغة الانجليزية ليست صعبة كما يزعم طلاب المدارس !

والحقيقة التى لم يدركها المعلّم أمين ، أن الأفريكان الخمسة كانوا غلابة ، ولم يكن معهم نقود بالمرة، حتى أردأ وأحقر أصناف النقود ، وانهم عندما هبطوا عليه سألوه منذ اللحظة الأولى.

– هل تستطيع أن نشرب الشاى ، أننا لانملك نقوداً ؟

وعندما هز المعلم أمين رأسه موافقا طار الأفريكان من الفرحة ، وقبلوا دعوته على الفور ، وكان حديثهم كله خلال الوقت الطويل الذى قضوه معه ، يدور ويلف حول معنى واحد ، هو شكر المعلم أمين على كرمه وحفاوته بهم.

وعندما قال لهم المعلم أمين كلمته المأثورة عربى أفريكى سوا سوا فهموا أن الدعوة مفتوحة فطلبوا الشاى أكثر من مرة ، أما الشيشة فكان المعلم أمين يطلبها لهم بنفسه كلما خمدت النار ، وعندما انتهت الجلسة كان الحساب خمسين قرشا لو كان الزبون عربيا ، أما الأفريكى فهو ثلاثة جنيهات .. هكذا طلب المعلم أمين من الأفريكان الخمسة، بالرغم من أن «عربى وأفريكى سوا سوا».

وعندما طلب المعلم أمين الحساب لم يفهم الأفريكان أول الأمر ولكنهم فهموا عن طريق الاشارة أنه يطلب نقوداً .. فذكروه بما قالوه له فى أول لحظات لقائهم معه ، ولكنه لم يفهم شيئا وظل يطالبهم عن طريق الاشارة بالنقود ، رافعاً ثلاثة أصابع من أصابعه فى الهواء هاتفا فى صوت يشبه الصراخ بكلمة جنيه، ولكن بطريقة غريبة ومضحكة، حتى يبدو نطقه أقرب الى اللغة الانجليزية!.

وفى بساطة شديدة سحب الأفريكان بطانات جيوبهم الخمسة كلها ليقتنع المعلم أمين أنهم لايملكون شيئا ، ثم خيل إليهم أن المعلم أمين قد اقتنع تماماً ، فمدوا إليه أيديهم يصافحونه .. كما يفعل الأصدقاء!.

وعندئذ تأكد المعلم أمين أنه فقد نقوده ، ولكن كيف يسكت على ذلك. وهو الفتوة السابق الذى يتباهى دائما أمام زبائنه أن أحداً منهم لايجرؤ على أن يأكل المعلم أمين فى مليم.

ونظر المعلم أمين إلى أحد الجنود الأفريكان ، وقال وقد قطب جبينه وضيق مابين حاجبيه، وارتدى قناعاً من الشر على وجهه:

– يو .. موش كويس .. اخص ..

وهز الأفريكى رأسه .. ولم يفهم شيئا فأعاد المعلم أمين فلسفته من جديد.

– يو .. نصاب .. اخص أفريكى نصاب.

وعندئذ استدار الأفريكان .. ومضوا فى طريقهم..

ولكن هذه النهاية لم تكن من النهايات التى تروق المعلم أمين ، خصوصا أن الزيطة التى حدثت جذبت انتباه الناس فاجتمعوا حول المعلم أمين والأفريكان ليروا حقيقة الأمر، ثم فهموا حقيقة ماحدث من النقاش الذى دار بين المعلم أمين ونفسه خلال الربع ساعة الأخير.

ولما كانت الفتونة هى رأس مال المعلم أمين فى الحياة، فقد خاف على اسمه أن يهبط فى بورصة الفتونة ، واذا كان الأفريكى يستطيع أن يأكل المعلم أمين ، فما الذى يفعله حشيف المكوجى وصابر الطباخ فى مستقبل الأيام.

فضيحة .. يجب أن يضع لها المعلم أمين نهاية لائقة.

ورفع المعلم أمين مقعداً ضخما وهوى به على رأس أحد الأفريكان ، فهوى على الأرض ، وهكذا دارت المعركة التى لم تستمر طويلا ، والتى كانت هذه الضربة من المعلم أمين ، هى الأولى والأخيرة من جانبه.

وخمسون يوماً والمعلم أمين يتقلب على فراشه فى قصر العينى ، والأفريكان هربوا بعد المعركة، وشقوا لأنفسهم طريقاً فى الزحام بفضل المطاوى التى معهم ، ولم يجرؤ أحد أن يتصدى لهم .. فليس أخطر من جندى مقلس فى زمن الحرب .. هكذا ألقى محمد خليل كاتب المحامى الذى قضى نصف قرن فى مهنته ، ثم تفرغ أخيرا لمقهى المعلم أمين !

ومن يومها والمعلم أمين لايكره أحدا فى الدنيا أكثر من مطلقته .. ثم الأفريكان.

وفى مرات كثيرة كان يسحب مقعدا ويأتى ليجلس إلى جانبنا ،ثم فجأة يسألنا وهو يزفر بشدة:

– الا بلاد الأفريكان دول زينا ؟

ونسأله نحن بدورنا :

– زينا إزاى ياعم أمين ؟

– يعنى عندهم قهاوى وترمايات وبنى أدمين كده زينا؟

– طبعاً ! ..

ولكن اجابتنا لاتروقه ، فيلوى عنقه ويجز على أسنانه ويقول فى ثقة العالم الخبير:

– أبداً ، دا كلام فارغ ، دى بلادهم غابات كلها ، أنا أصلى عارف صنف الأفريكان دول.

ثم ينهض ، ويتركنا وينصرف .. وفى مرات أخرى كان يقول وكأنه يعزى نفسه :

تعرف صنف الأفريكان ده ، مابيحاريش ، أصله صنف جبان ، دول يفحتوا خنادق بس ، اللى بيحارب هم الانجليز.

وكان اعجاب المعلم أمين بالأنجليز لا حد له ..

– أحسن صنف وحياة دى النعمة ، صنف دوغرى ، يشرب الطلب ويدفع ، مافيش كلام .. عشان كده ربنا مبيض وجوههم.

وعندما قلنا له ذات مساء وهو يجاذبنا الحديث.

– ماهو انت أفريكى ياعم أمين.

ثار ثورة عارمة ، وكاد يطردنا من القهوة ، وعبثا حاولنا إفهامه أن بلادنا فى أفريقيا ، وأنه تبعا لذلك يصبح أفريكيا .. كالأفريكان..

– آل أفركى آل ، ليه ، شايف خلقتى سودة ، احنا أجدع ناس من غير مؤاخذة، دا الأفريكى يعنى عبد ، يشرب ولايدفعش ربنا حكم عليه بالفقر بعيد عنكو..

وكان دائما يتمنى أن يصارع أفريكيا ويصرعه:

– ياما نفسى أتلايم على واحد أفريكى وأكل زمارة رقبته.

ثم يستدرك على الفور :

– بس يكون لوحده ، حاكم الكثرة تغلب الشجاعة من غير مؤاخذة.

ولهذا السبب كنا نصحب معنا الأفريكى بالطقم البلدى ، فقد خفنا أن « يتلايم » عليه المعلم أمين فيأكل زمارة رقبته.

ولكن .. انكشفت كل الحيل التى لجأنا إليها لاخفاء شخصية الأفريكى فقد هبط على المقهى آخر الليل وهو فى زيه العسكرى وعندما اقتحم المقهى كان المعلم أمين يجلس جلسته المعتادة على الرصيف المقابل ، فنهض مذعورا والمقعد فى يده ، وجاء يستطلع الأمر، فقد ظن أن فرصته الذهبية قد حانت ، وأن الزمان صفا له فساق إليه «أفريكى» وحيدا لينتقم منه.

ونهضنا لاستقبال الأفريكى ووقف المعلم أمين يفكر لحظات عندما اكتشف شخصيته ، ثم انسحب الى مكانه وقد قرر أن يفكر فى عمق قبل أن يحسم الأمر معه!.

وقبل أن ينتصف اليل بقليل جاء المعلم أمين وجلس بجوار الأفريكى، وطلب منا أن نترجم بينهما ، وجلس يحكى للأفريكى قصته مع الأفريكان الخمسة ، وكيف شربوا الشاى ودخنوا الشيشة ثم رفضوا الدفع، ولما طالبهم بالثمن ضربوه حتى حطموا ضلوعه ، وجمجمته ، وألقوه طريح الفراش خمسين يوماً رهيبة .. ثم تساءل فى النهاية :

- يصح دا ياأفريكى؟

ورد الأفريكى ..

- هذا لايصح ..

وفى نهاية السهرة دفع الأفريكى ثمن ما شرب ودفع بقشيشه المعتاد.. وانصرف.

وأصبح الأفريكى زبونا فى المقهى يأتى معنا ، وأحيانا يأتى وحده ، وكان المعلم أمين ينفرد به وقتا طويلا ، ثم يستدعى أحدنا ويقول له :

- وصيه على كام بطانية من بتوع الأفريكان.

وكان الأفريكى يبدى أسفه كلما طلب المعلم أمين شيئا ، ولكنه كان يمده بين الحين والحين بكميات هائلة من السجاير.

وذات مساء أقبلنا على المقهى فوجدنا الأفريكى يشارك المعلم أمين طعام العشاء وأن يشارك أحد المعلم أمين عشاءه .. فهذا شئ غريب .. وأن يكون الأفريكى هو شريك المعلم أمين ، فهو الشئ الأغرب !.

وبعد أن انتهيا من العشاء جلسنا جميعاً نشرب أقداح الشاى على حساب المعلم أمين ، وقال وهو يرتشف الشاى فى لذة فائقة:

– صحيح ياجدعان صوابعك مش زى بعضيها .. أهو دا أفريكى ابن ناس أنا قلبى بيقوللى إنه مسلم .. أسألوه كده.

وسألنا الأفريكى عما اذا كان مسلما فأجاب بالنفى ، فلما أخبرنا المعلم أمين قال فى أسى حقيقى:

– ياخسارة.. ع العموم هوه ابن ناس ، الأفريكان اللى عملوا معايا الفصل ده لازم خدامين ، حاكم برضه عندهم كده وكده.

وجاء الأفريكى ذات مساء ليودع مقهى المعلم أمين ، فقد جاءه الأمر بالسفر إلى الجبهة.

وجلسنا فى المقهى طول الليل يحكى كل منا قصصا حدثت له فى الماضى البعيد ، والأفريكى ساهم لايتكلم ، كأنما كان يشعر بحزن حقيقى يعتصر قلبه للفراق ، وعندما نهض صافح الذين كانوا حوله، وأعطى كلا منهم صورته موقعا عليها بامضائه واعتذر المعلم أمين عن عدم وجود صورة معه وطلب من الأفريكى عنوانه يبعث إليه بالصورة ، ولكن الأفريكى اعتذر لأنه لايعرف بالضبط المكان الذى سوف يذهب إليه ، ووعد المعلم أمين بأن يكتب له خطابا فى أول فرصة ، يخبره فيه بمكانه على وجه التحديد.

ومضت أيام طويلة قبل أن يتسلم المعلم أمين رسالة من الأفريكى .. ولم يكن بالرسالة سوى جنيهات ثلاثة ، وخطاب قصير باللغة الانجليزية ، يقول فيه الأفريكى : «أنا فى ايطاليا الفرقة الأولى الأفريقية، الجنيهات الثلاثة من الأفريكان الخمسة ، وهم يشكرونك».

« ماير فوندا »

وكانت هذه هى المرة الأولى التى نعرف أن الأفريكى الصديق اسمه ماير، فلم يهتم أحد منا بسؤاله عن اسمه ، كان (الأفريكى) هو الاسم الذى نعرفه!.

وكان واضحا أيضا انه يكذب ، وان الجنيهات الثلاثة دفعها من جيبه للمعلم أمين ، لكى يرضى ويهدأ ، ولكن لماذا لم يدفعها له وهو هنا فى القاهرة لكى يوهم المعلم أمين انها حقا من الأفريكان الخمسة.

وفى الأيام التى تلت وصول الخطاب انهمك المعلم أمين فى التصوير، واعداد الصورة التى وعد بها الأفريكى ، وأصر أن تكون الصورة ملونة ، وأن يكون فى كامل زينته، ثم استعان بنا لنكتب له الخطاب ، وأصر على أن تكون الترجمة حرفية ، وظل يملى علينا نص الخطاب أكثر من ساعة .. وسلامى إليك كثير السلام ، وللأفريكان الخمسة كثير السلام .. وبلغهم اننى مسامحهم ، ونحن فى شوق شديد لرؤيتكم والتمتع بكم .. ثم سكت قليلا وسألنا فى اهتمام:

– هوه احنا صحيح أفريكان ..؟

ولما أجبنا بالإيجاب ، قال :

– طيب اكتبوا .. لأننا جميعا أفريكان زى بعض بلغكم الله السلامة والسلام ختام.

وعندما انتهى سألنا فى خبث :

– ايه رأيكو فى الجواب ؟

– حاجة عال .

– طيب بس حنبعتوا ازاى لايطاليا يطلع بكام لحد هناك ؟ .

وتطوع كل منا فذكر رقما .. ثم قال بعد أن انتهينا من حديث الأسعار:

– مش الواحد يبعتوا فى البوسطة بتاعتنا برضه؟

– طبعا ،،

– نبقى داهية لو بعتوه الصعيد.

وعندئذ تناول الخطاب ، ونظر العنوان المكتوب بحروف لاتينية على الظرف وتفرس فيها طويلا ، ثم قال وكأنه اكتشف حقيقة الكون:

– ياسلام ياجدعان ، شوف البنى آدم ، قدر يستقرأ الكلام اللى مالوش رأس ولارجلين.

ومضت أعوام الحرب كلها ، وصورة ماير تحتل ركنا ممتازا فى مقهى المعلم أمين داخل برواز ثمين ، عثر عليه المعلم أمين فى سوق الثلاثاء والخطاب الذى كتبناه للمعلم أمين يحتل جيبه ، وبمناسبة وبلا مناسبة ، كان المعلم أمين يخرج الخطاب ويفتحه ثم يحكى قصة الرجل الأفريكى الذى كان زبونا فى المقهى ثم سافر إلى ايطاليا ، ثم يسأل من حوله فى النهاية .

– الواحد يبعت الجواب فى البوسطة بتاعتنا دى.

ثم يطوى الخطا فى رفق ، وينظر الى العنوان فى استغراب ويدسه فى جيبه ويتحسسه وكأنه شئ ثمين.

وكان المعلم أمين اذا جلس جلسته المعهودة والتف حوله بعض الزبائن الذين لم يشهدوا قصة الأفريكى معه ، أخذ يستعيد فصولها معهم.

– تعرفوا ، وحياة العيش والملح كنا نقعد نتكلم انجليزى بالخمس ساعات.

وكان الجالسون معه يصدقون مادام المعلم أمين لاينسى أن يطلب الشاى كلما شعروا بالبرد ، ويضع النار فوق الشيشة كلما أحسوا بالصداع.

وكان إذا عثر فى الجريدة على صورة فى ميدان القتال وفى الصورة جنود أفريكان ، دقق النظر فيها ، وأشار بأصبعه إلى جندى باهت الصورة ويؤكد فى ثقة:

– العسكرى دا فوندا .

فاذا قلنا له أن العسكرى فوندا يحارب فى ايطاليا ، والصورة المنشورة أمامه التقطت فى افريقيا ، قال فى هدوء:

– دول بس بيقولوا كده ، عشان الأعداء مايعرفوش مكانهم.

وذات مساء أقبلنا على القهوة ، وقلنا له فى عبث صبيانى :

– فوندا مات ياعم أمين .

ولم نكن ندرك أننا بهذا الخبر قد سددنا رصاصة إلى قلب المعلم أمين . فقد بدا مهموما كأنه فقد ولده ، وانزوى طول الليل صامتا كئيبا لايتحدث مع أحد ، حتى عشاءه الذى اعتاده منذ عشر سنين لم يذقه.

وفى الليل والدنيا ساكنة والمعلم أمين وحده على الرصيف ، ونحن نتأهب لمغارة المقهى ، انفجر المعلم أمين باكيا .

وعندما اتجهنا نحـــوه كف عن البكاء وتظاهـــر بأن الغبـــار أذى عينـــيه.. ليس الا.

وفى الصباح أحضر المعلم أمين نقاشا وطمس على اليافطة التى كانت مرفوعة أعلى القهوة ، وكتب عليها بخط جميل ، قهوة فوندا.

وخفنا أن نذكر الحقيقة للمعلم أمين ، وأصررنا على كذبنا .. أن فوندا مات ، وذهبنا إليه فى المساء لنعزيه ، فوجدناه قد رص الكراسى أمام باب المقهى ، وجلس الزبائن صامتين ومقرئ عجوز يرتل شيئا من القرآن ، ثم انتهى العزاء ونسي الناس قصة فوندا ، ولكنها أصبحت عادة لدى المعلم أمين ، أن يحتفل بذكرى الأفريكى فى نفس الموعد كل عام.

وحتى الآن ، وبعد مرور عشر سنوات ستجد مقهى صغيرا فى شارع عباس بالجيزة اسمه قهوة فوندا وحولها شريط أسود . ورجل عجوز يجلس خلف مكتب قديم متهالك ، وفى جيبه عدة أوراق بالية ، أهمها خطاب باللغة الانجليزية تلقاه منذ عشرين عاما من رجل كان يحارب فى ايطاليا .. ولا أحد يعرف مصيره.

ولكنه كلما وقع بصره على الخطاب هز رأسه أسفا وقال فى أسى عميق:

– يرحمه الله .

✿ ✿

أجدع الناس



عبد العاطى أسبوعا ، من قهوة أمين ثم ظهر.. البالطو على كتفه والكوفيه حول عنقه وعرقه يغسل يديه ، فقد كان الجو حارا لا يطاق ، ولقد كان اختفاء عبد العاطى مثار تخمينات من رواد قهوة أمين بعضهم قرر أنه طفش والبعض أكد أنه مات ، أكله ترام وهو عائد من المخبز فى الصباح ، والبعض قال إنه مريض وربما سافر إلى مكان بعيد .

وعندما ظهر عبد العاطى فى قهوة أمين ذلك المساء ورأى الناس يديه مصبوغتين بالحناء عرفوا أن عبد العاطى تزوج من بنت الحلال.

والتف الصحاب حول عبد العاطى يسألونه فى فضول عن دنياه الجديدة انهم جميعا عزاب لم يدخلوا دنيا بعد ، وعبد العاطى وحده هو الذى قرر واقتحم دنيا الجواز ، وعبد العاطى كان مثلا فى دنيا العزوبة ، وراية فى الزواج له وزن وله مقام.

ونظر عبد العاطى فى هدوء الى الجالسين حوله : محمد حنيف وصابر الطباخ ، وعبده المكوجى ، وسيد السكرى ، ثم رفع يديه الغليظتين المصبوغتين بالحناء وصفق طويلا، وجاء الجرسون وطلب مشاريب للجميع ، ثم اعتدل فى جلسته وأصلح من هيئته وقال فى اهتمام بالغ:

– الجواز حلو .

واتسعت عيون الجالسين ، ومالوا جميعا الى الأمام وشهق عبده المكوجى من الدهشة وسأل فى استنكار.

– حلو !؟

ومرت فترة صمت قبل أن يجيب عبد العاطى فى هدوء شديد.

– أيوه حلو .. بس للجدعان .

وكان عم ابراهيم العجوز يجلس بعيدا عن الصحاب الملتفين حول عبد العاطى، لكنه فيما يبدو كان يتتبع النقاش ، فما أن استمع الى جواب عبد العاطى الأخير حتى زحف بكرسيه الى الأمام ، وقال وهو يزحف :

– اسم الله عليك .. ده كلام مضبوط.

وافسح عبده مكانا لعم ابراهيم .. وجلس وسط الحلقة المضروبة حول عبد العاطى ، ينظر فى شغف ووله إلى الشيشة التى تتداولها أيدى الجالسين.

وقال عبد العاطى بعد أن رشف من كوب الشاى رشفة طويلة لها صوت مسموع :

– الراجل الجدع من غير مؤاخذه .. مفيش خوف عليه .

وهتف عبده المكوجى فى سرور :

– الله أكبـــر .. دا الكلام الجد ، الراجل الجدع يغلب ميت واحدة ست ..

ثم عاد الصمت من جديد .. وعادت الأنظار تتعلق بعبد العاطى وهو جالس فى وقار والبالطو على كتفه والكوفية حول عنقه ، والعرق يغسل يديه .. والشيشة مدفونة بين شفتيه ، ولكنه نظر الى الجميع بعد قليل نظرة فيها اعتداد شديد ثم قال :

– تعرفوا أنا عملت ايه أول يوم .

وقال الجميع :

– هيه .

– رحت البيت الساعة واحدة بالليل .

وكان عم ابراهيم قد نجح فى خطف الشيشة من يد صابر فهتف وهو ينفث من حلقه سحابة من الدخان :

– براوه عليك ، أهو كده الجدعنة .

وواصل عبد العاطى حديثه وكأنه لم يسمع تعليق عم ابراهيم :

– أنا كنت بأقول ايه ؟ .

ورد عبده المكوجى بسرعة :

– رحت البيت الساعة واحدة بالليل.

– أيوه مظبوط .. أنا رحت الساعة واحدة بالليل .. وكنت سكران طينة.

وضحك الجميع ضحكة هيستيرية استغرقت وقتا طويلا ، وعندما كفوا عن الضحك ، ظل عم ابراهيم يضحك وحده ، ثم قال بعد أن زايلته نوبة الضحك :

- عقارم عليك .. أنا يعجبنى أمور الجدعنة دى.

وانتهز عبد العاطى الفرصة واختطف الشيشة من يد ابراهيم وجذب أنفاسا سريعة ثم ناولها لصابر وقال :

- دخلت لقيتها مبوزة.. زعلانه ليه مابتردش .. حصل ايه مابتتكلمش ، الغرض .. قلت لها قومى اخلعيلى الجزمة ..

وهتف عم ابراهيم وهو يمسح فمه بباطن يده

- أيوه .. اسم الله عليك .. أهى دى حركة جدعنة مظبوطة .. اطلب لنا شيشة اطلب ..

وصفق عبد العاطى طويلا وجاء الجرسون ، وطلب شيشة لابراهيم.. ثم أستأنف حديثه قائلا:

- الغرض .. عملت نفسها مش سامعة ، ورحت لهفتها جوز اقلام خليتها وحياة سيدى النبى طرشت دم..

وهتف عبده فى جنون وهو يصفق بشدة :

- تسلم ايدك يا عبد العاطى ، أهوه الشغل صحيح ، مش شغل الأفندية ، اللى يروح البيت يغسل الحلل لمراته .

وتساءل عم ابراهيم وهو يشفط أنفاس الشيشة فى اخلاص :

- غضبت ؟

ورد عبد العاطى فى ثقة شديدة :

– ما عنديش حد يغضب أنا ..

وقال ابراهيم :

– اسم الله عليك .. راجل طول عمرك يا عبد العاطى.

وصفق عبد العاطى مرة أخرى .. طلب شيشة للصحاب ، ثم وضع ساقا على ساق واحكم وضع الكوفية حول العنق تماما ، وقال وهو يهز ساقه فى دلال:

تانى يوم رحت الساعة ثلاثة بالليل قابلتنى بتضحك مديت رجلى فى وشها راحت خلعالى الجزمة بسرعة البرق.

وتمايل الجالسون فى نشوة ، وقال عم ابراهيم وفى رنة صوته الفرحة بالانتصار :

– ماهى شلفت العين الحمرة ، ولو كان راجل طرى شويه ، كانت ركبته ، أسألنى أنا ، حاكم أنا اتجوزت أربعة واستويت..

وبعد أن سادت فترة صمت قصيرة ، تساءل عبده المكوجى فى همس :

– إنما الجواز عاوز مصاريف كثيره ياسى عبد العاطى .

ورد عبد العاطى فى استخفاف..

– ولا كثير ولا قليل .. اللى معايا بنصرفه .

ورد عبده مشفقا :

– البيوت برضه تتكلف ياعبد العاطى والست ساعات بتبقى ايدها مخروقة .

وقال عبد العاطى فى استنكار :

- والست مالها ومال الحاجات دى.

وتساءل عبده المكوجى :

- أمال مين اللى يصرف ؟

- أنا اللى ماسك المصروف ، واللى معايا بادفعه ، أمال ها أقطع روحى .. هوه أنا بنكير.

وصفق عبد العاطى ضجرا ، وجاء الجرسون وصرخ فى وجهه فى سأم شديد:

- هات دور شاى هنا يابنى.

ثم التفت الى عبده وقال :

- ست ايه وبتاع ايه ، طب ايه رأيك أنا امبارح رميتلها شلن رجعت لقيتها طابخة وواكله والحمد لله . وأول امبارح مكنش معايا وسبتلها نص فرنك ، وجابت طعمية وعيش وكلت هوه أنا ها أموت روحى.

وكان الشاى قد حضر ، وأطبق عم ابراهيم على الكوب ، وراح يرشف منه فى لذة فائقة ، وعندما أتى عليه سأل عبد العاطى فى اخلاص :

- والحمد لله يعنى مبسوط ؟

ورد عبد العاطى وشفتاه تطرقع بالسعادة وهو يقبل يده ظهرا وبطنا :

- ألف حمد وشكر ، أروح البيت آلاقى البنت نضيفه. وفرشة نضيفه.. والحقيقة البنت نضيفة ، وخدامة تحت رجليه ، وألف حمد وشكر ياعم ابراهيم.

وهتف الذين كانوا يجلسون جميعا .

– ألف حمد وشكر ، وألف مبروك ياسى عبد العاطى.

وفتر حماس الجالسين بعد أن خمدت النار فى الشيشة ، وفرغت أكواب الشاى وألقى عبد العاطى نظرة على الساعة ، فاكتشف أن الوقت قد زحف نحو العاشرة وأن عليه أن يغادر المقهى سريعا الى المخبز الذى يعمل فيه .

وصفق عبد العاطى للجرسون وسأله عن الحساب ، ثم ارتفع صوته محتجا عنما هتف الولد :

– الحساب ريال .

وقال عبد العاطى :

– ريال ايه ياضلالى انت مش حتبطل سرقة بقى؟

واحتج الجرسون أيضا لاتهامه بالسرقة واثبت أمام الجميع بعملية حسابية بسيطة أن المشاريب التى طلبها عبد العاطى بلغت ريالا بالكمال والتمام ، ومد عبد العاطى يده فى جيبه ، وأخرج الريال صاغرا، ودفع به للجرسون ، ثم ألقى تحية المساء على الجدعان.. وانصرف.

وعبد العاطى يعمل فى مخبز بعيد، ويقف طول الليل أمام النار ، ويتقاضى أربعين قرشا ، ينفق ريالا على القهوة ، وأحيانا ثلاثين قرشا، والباقى ينفق منه على الأفيون الذى يستحلبه طوال الليل وهو يقف معذبا أمام النار.

وانقضى الليل وجاء الصبح .. وخرج عبد العاطى من المخبز يترنح كأنه حطام وجر رجليه جرا الى المنزل وعندما جلس يرتشف كوب الشاى نظر الى زوجته نظرة حاقدة وقال فى جفاء شديد :

- طول الليل نايمة زى الملك ، وأنا عدمان العافية ، والآخر أفضل واقف ساعة ع الباب أخبط ، يعنى انت السقيرة عزيزة لازم تنامى لحد الضهر.

وتكورت زوجته حول نفسها ولم ترد .. اكتفت فقط بالبكاء ، وارتفع صياحه مرة أخرى :

- خليكى ورا العياط لما تخربى البيت .. ما أنا عارف وشك الفقر دا.

كانت البنت صغيرة لم تتعد السادسة عشرة ، ضئيلة ، يستطيع عبد العاطى لو أراد أن يلتهمها كلها فى فمه ، كان وجهها شاحبا ، وجلدها أصفر وجلبابها الأحمر القطيفة يظهر ساقيها الضامرتين .. وقدميها المتسختين كأنما كانت تغوص فى بحر من الطين.

وألقى عبد العاطى نظرة على قدميها الملطختين وبصق عليها بشدة وقال وهو يسعل :

- بقى دى رجلين عروسة ، دى ولا رجلين معزة ، علىّ الطلاق أن ما غسلتيهم دلوقت ، ما أنت قاعدة فى البيت.

وقفزت البنت واقفة كأنها أبو الفصاد وخرجت الى الحمام ، وراحت تحف بالكوز من الزير وتلقى على قدميها وهى تبكى بكاء مضغوطا مسلوخا كأنها قطة تموت.

واستراحت نفس عبد العاطى وهدأت ونهض فخلع ملابسه وقفز على السرير، وتأهب لنوم طويل ، ولكنه تذكر قبل أن يشرع فى النوم أن زوجته ليس لديها نقود لتعد له طعام الغذاء.

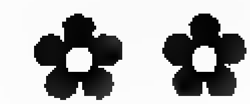
قفز من السرير ، وضرب يده فى جيبه كانت هناك ورقة صحيحة بربع جنيه وحتة بقرشين .. وقلب عبد العاطى الورقة الصحيحة بين

يديه ثم دسها فى جيبه وانتزع القرشين والقى بها على المخدة بجوار رأسه ، ثم تمدد على السرير وراح فى نوم عميق.

وعندما عادت زوجته الى الحجرة ، كان شخير عبد العاطى يملأ الجو وكان يبدو بفمه المفتوح ووجهه المنتفخ وجثته الغليظة كأنه ثور وقع نائما بعد مجهود عنيف.

ومدت الزوجة أصابعها الى القرشين فالتقطتها ، كأنها نشال يحذر أن تقع عليه أعين الناس ، ثم ألقت على زوجها الغطاء ، وتعمدت أن تغطى رأسه الأصلع الكبير.

ووقفت عند النافذة .. وألقت على زوجها نظرة خبيثة ماكرة ، قبل أن تستدير لتلقى نظرة على نافذة صغيرة عبر الحارة يقف فيها تلميذ صغير ، ثم مدت بوزها من خلال حديد الشباك وقبلت الهواء ثم فتحت فمها فى ابتسامة بلهاء قبل أن تغلق النافذة وتقفز على السرير وتتمدد الى جوار عبد العاطى .



الانجليـزى الحـر



اليوم العظيم، وحياة اليوم المفترج ، وحق من جـمـعنا بلا مـيـعـاد ، ليس هناك أجـدع من الانجليزى الحـر ، والانجليز تشـاء حكمة الله شكل واحـد ، ولكن صنفين؟ الوجـه أحـمـر والعـينين زرقـاوان والـشـعـر أصـفـر ، ولكن هناك انجليزى مزيف وانجليزى حر .

وحكمـة الله تتـجلى دائمـا ، أحيـانا فى الفـواكه وأحـيـانا فى البنى أدم والبـرتقـال الحـادق لـه شكل الليـمـون الحلو ولايسـتـطيع أحـد أن يفـرق بينهـما إلا اذا غرز أسنانه فى التـمرة وتذوقـهـا ! ولا أحد فى الـعالم تذوق الانجليز مثل الحـاج حسـن ، انبرت أسنانه من كثـرة ما انغرزت فى لحم الانجليـز ليكـشف أيهـمـا المزيف وأيهـمـا الحـر ، وعندمـا انبـرت أسنانه اكتفى بعينيه ، نظراته أصبـحت كأسنانه .. نظرة واحدة من عيون الحاج تكفى لمعرفة الصنف ، ولكن ما أندر هذا الصنف بين الانجليز ، والكلام

لا يلقيه الحاج على عواهنه فهو الخبير وهو العليم وهو الذى قضى رحلة حياته فى معسكرات الانجليز يعيش كجندى معهم من كوم حمادة في البحيرة الى الشلوفة فى القناة الى حيفا فى فلسطين الى البصرة على شاطىء الخليج وكأنه الطفل الصغير لايترك أباه . وكان يخاف الانجليز فى بادىء الأمر وكان يخشاهم أكثر عندما يرطنون ! حكمة الله أن الانجليز لهم كلام مثل كلامنا ولكنه لايفهمه.

وعام بعد عام أصبح الطفل صبيا ، وأصبح الوطن مفهوما وعندما فهم لم يعد يخاف الانجليز ! وكانت دهشته عظيمة لان الانجليز لهم شكل واحد ، وكأنهم جميعا من امرأة ورجل واحد !

هكذا كان يظن وهو طفل صغير ولكن عندما أصبح شابا اكتشف السر .. الانجليز لهم شكل واحد لأنهم جميعا يشربون الخمر !! هو نفسه عندما اعتاد شرب الخمر أصبح مثلهم ، ووجهه الاسمر أصبح فى حمار البطيخة اليافاوي ، ولكن الخمر والحق يقال لم تنجح فى تلوين العينين .. هناك سر آخر اكتشفه الحاج حسن فى شبابه ، السر هو البرد !! .

وبرد الانجليز قارس وشديد ، هكذا علم الحاج حسن من الانجليز أنفسهم ، ولكن هؤلاء الانجليز سذج لا يعلمون أن البرد هو سر العيون الزرق .

وعندما اكتشف حسن السر كان يتحدث به إلى الناس ، ولكن الناس لم تكن تؤمن على الفور ! ولم يكن حسن يجد صعوبة شديدة فى إقناعهم .

– مش مصدق ان السقعة تعمل كده ، طيب حط ايدك فى البرد ، بعون الله تبقى زرقا !

– ياسلام !!

– أمال .. انت عارف السما زرقا ليه ؟ عشان الجو فوق ساقع .

– عفارم عليك .

وهكذا ببساطة كان يقنع الناس وكان يكسب احترامهم!!

ورجل فهلوى وحدق مثل الحاج حسن لايمكن أن تخدعه المظاهر، الانجليز فعلا لهم شكل واحد ، وله من بينهم أصدقاء ، وهم جميعاً انجليز، وجميعا يرطنون .. وكلهم لهم نفس السحنة ، ونفس الطريقة فى الحلاقة، حتى السجاير صنف واحد!

ولكنه بالملاحظة والمراقبة والاختلاط بدا يكتشف شيئا أخر ، انهم أصناف وعدة أشكال! هناك انجليزى اذا خلا بك بدا عليه أصله ، فلاح ابن فلاح .. يجلس على الأرض ، ويأكل بأصابعه ، ويتمدد وينام ، فاذا غطس فى النوم ارتفع شخيره ! وهناك الانجليزى ابن البلد ، على صدره أكثر من نخلة مدقوقة وعلى ظهر يده أكثر من امرأه ويسب ميت دين فى الدقيقة ، ويزوغ فلا يرعى عملا ولا يحترم مسئولية ، ويمد ايده فيهبش من مخازن الجيش ، فاذا احتك به مخلوق أو احتك بمصالحه فتح مطوة وبدأ يتكلم!

ولكن الانجليزى الحر ما أحلاه ، يموت من الجوع ولا يأكل بأصابعه وتلقى عليه السلام فيلقى عليك ألف تحية ، ويضبطك فى فراش زوجته، فيغلق الباب ويجلس فى الصالة ينتظر ! وتلزقه على قفاه فينحنى فى أدب ويعتذر !

والعلام ليس ببلاش ، العلام بثمن ! والحاج حسن اكتشف هذا السر فى لحظة تجلى ، ولولا الحظ ، لولا أن التجربة التى خاضها كانت مع انجليزى حر ، لفتح كرشه بمطواة ، أو فتح رأسه برصاصة ! والحاج حسن عنما كان شابا فى الثلاثين كان آخر عياقة وشياكة وكان فحلا ، ولو كان فى هوليود لأصبح ممثلا وشهيرا ومعبودا للنساء ! وكان الحاج حسن يعمل وقتئذ فى معسكرات العائلات، وبين العائلات امرأة ضابط طيب ، كانت ناشفة كالحطبة ، ضبها بارز كأسنان الشوكة، ولكنها كانت رغم كل شئ جميلة متحركة وشابة! وكانت ترغب فى الحاج حسن - ولم يكن قد حج بعد - وكانت صريحة فطلبت وصاله، وكان غشيما فرفض ، وألهب رفضه النار المتأججة فى نفسها فطاردته وحاصرته وتمكنت منه فى النهاية ، ولايدرى الحاج حسن كيف حدث هذا، ففى تلك الليلة كان اللقاء فى الدكان، والدكانة داخل المعسكر وعلى مقربة من مستعمرة العائلات ، وكان القمر مستديرا والجو خريفا ، وصيحات عربيدة من جنود سكارى ترن فى الفضاء البعيد!

ولأن الحاج حسن كان فحلا فقد كانت المرأة منسجمة ومنشكعة ، وكان صوتها عاليا يرن بين جدران الدكانة ويتسرب الى الخارج ! ومر عسكرى سكران عند الباب فسمع صياحا فى الداخل ، وهو صياح لم يتعوده فى لحظات الانبساط ، فتوهم أن فى الداخل قاتلا وقتيلا فطار الى الضابط ، وللحظ المهبب كان الضابط المقيم فى المعسكر هو نفسه زوج السيدة الناشفة !

وعندما اكتشف الرجل الحقيقة على ضوء المصباح الذى فى يده ، تراجع مذهولا، وسقط قلب الحاج حسن بين ركبتيه وأغمض عينيه وتلا الشهادتين على روحه!

ولكن مـر وقت طويل ، وشـئ لم ينطلق فى رأسـه ، وشـئ لم يختـرق كـرشه ، والأغـرب من ذلك أن المرأة الناشـفة حاولت مع الحاج حـسن أن تعيد الكرة والرجل زوجـهـا كـان قـد انصـرف منـذ لحظة ، ولكن حـسن كان قد تحول الى شـئ كالمرأة ، لا يفرقه عنها إلا الشارب المفتول!!

وعندمـا خـرجت المرأة خـرج حـسن لتـوصيلـهـا ، وانكت شئ فى الوجود أن الرجل زوجها كان واقفا عند الباب ينتظر!!

وكل شـئ ممكن .. ولكن أن تضـيع حـياة حـسن فى شـربة ميه .. لا وتحسس حـسن مطواته ليدافع عن نفسـه ، فلابد أن الـرجل الانجليزى سـيقـتله ، ولكن الأنكت هـو الذى حـدث .. لقد انحـنى الرجل يعتـذر عن سلوكه ، وراح يشـرح حقيقة الأمـر ، وأنه لـم يكن يقصد ازعاجه – ازعاج حسـن – ولكنها الصـادفة السيئـة والجندى السكران الذى ظن انبسـاط زوجته نوعا من الشـجار !!

وشـــــهر كامل بعد ذلك والضـابط الانجلـيزى يمر على حسن فى دكانه ويحـيـيه ويعتذر ! وحسـ ـــن مكسـ ـوف يقطر خـجلا ويتصـ ـبب عـ ـرقـا ، ويـفكر فـى الهـ ـرب مـن المعـ ـسـ ـكر ، ويـود لو أن الأرض انشـ ـقت وابتلعـته ، ولكن التكرار يعلم الحمار ، وقد تعـلم حسن فى النهـاية أن يكون أبرد مـن هـذا الانجليـزى الذى يبـدو أن الذى يجـرى فى عروقه ليس دماء ولكن مـية ساقعة ! ثم تجرأ حسن أكثر فـانغمس أكثر فى العـلاقـة مع المرأة الناشـفـة ، وتجـرأ أكثـر فلم يعـد يذهـب معـهـا الى الدكان . ولكن كل شـئ أصـ ـبح يتم فى بيتهـ ـا وعلى فراش الزوج. وكل شـئ كـان يتم فـى البـداية والزوج فى المكتب ، وبمـ ـرور الأيام ،

أصبحت الأشياء تتم فى حضـــــوره وتحت رعايته ! والأغرب حقا أن السرور كان يبدو عليه أكثر مما يبدو على امرأته!

رجل سافل هذا الانجليزى وقواد ، هكذا كان حسن يفهم ، ولكنه فى النهاية اكتشف السر ، أن الرجل الذى أمامه انجليزى من صنف ممتاز ، طيب نادر كالألماظ ، انجليزى حر!!

وتعلم حسن أشياء كثيرة ، وظل يتعلم حتى شاخ ، الانجليزى الحر غير مسئول عما يقع من الانجليز من فظائع.. فى الحرب يتولى الانجليز المزيفون عملية القتال ، ويقومون بالقتال ، ويرتكبون السرقة، وينهبون خيرات البلاد ، والانجليزى الحر لاذنب له فى شئ، على انه فى كل الأحيان يشمئز وفى أغلب الأحيان يعلن هذا الاشمئزاز فهو لايحب القتل ، ولايحب الضرب ولا يأكل عرق الناس!!

وما أكثر الانجليز الأحرار الذين صادفهم حسن ، وما أكثر الذين صادفهم .

ولكن الذى أحبه حسن أكثر كان ضابطا شابا ، وحسن كان قد أصبح حاجا وشيخا ، وكان يحلو للضابط الانجليزى أن يأتى كل مساء الى دكان الحاج حسن ويجلس معه ، فهو لم يكن يرغب فى الجلوس مع غيره من الانجليز فى المعسكر، لأنه لم يكن يوجد بينهم انجليزى واحد حر. كلهم كانوا مزيفين، والانجليزى المزيف يامستر حسن – فهكذا كان يناديه– حثالة مثل الهندى والأفريكى ، ليسوا أصلا من بلاد الأنجليز ، فهم من بلاد أخرى عاشوا فقط فى انجلترا ، وأصبحوا انجليزا بالجنسية وليسوا انجليزا فى واقع الأمر! .

وكان الضابط الشاب صديق الحاج حسن يقدم الدليل كل يوم على أنه حر فعلا ، سجائره للحاج حسن ، أشهى المأكولات للحاج حسن ، طلبات الحاج حسن كلها مستجابة ، رغباته أوامر ! ومعاملة ولا معاملة ملوك، اذا اقبل على الحاج حسن صافحه بأدب واذا ذهب ودعه فى أسف، فاذا سار ظل يلوح له طويلا حتى يختفى !

ولم يكن أبدا شابا متلافا ، لم يكن يحب الخمر ، ولم يكن يلعب القمار ، ولم يكن من هذا النوع من الشباب الذى يتهافت على النساء ، رغم انهن كن يتهافتن عليه ! وكان شديد الأسف لأنه يعيش بعيدا عن لندن، وفى صحراء مصر ، وكان يتمنى دائما أن يعود الى بلاده.

– وهل تدرى يامستر حسن ، أمنيتى الوحيدة أن أعود الآن الى لندن وأسكن فى بيت له حديقة لأتمكن من زراعة الورد.

ولهذا السبب كان الحاج حسن سعيدا رغم لوعة الفراق لأن صديقه عائد الى لندن ، وليلتها كان لها العجب ، كان على رأس أخر فرقة خرجت من مصر وجلس معه على ظهر الباخرة التى كانت فى طريقها به فى الصباح الى بعيد ، وعنما بدأت الباخرة تتحرك فى طريق الرحيل، ظل الحاج حسن على ظهرها يغالب دموعه، ويقسم ألف يمين أنه سيحاول أن يذهب الى لندن خصيصا ليراه ، ويقسم الضابط هو الآخر أنه لابد عائد كسائح فى شهور الشتاء!!

وجاء الشتاء فعلا ولكنه لم يكن شتاء سياح ، يقول الناس المتعلمون ان الحرب على الأبواب ، والانجليز هم الذين سيشعلون نار الحرب ، والحاج حسن يسمع ويسكت ، أحيانا يصدق ، وأحيانا أخرى لايصدق.

ولكن الحرب وقعت فعلا ياحاج حسن وجاء الانجليز !! المصيبة انه لن يأتى مع الحرب انجليزى واحد حر ، سيأتى الهنود ، وسيأتى الأفريكان، وسيعود الموريشان ، وهنا تكون الكارثة فهو ساكن أمام الميناء وسيكون بيته صيدا سمينا وسهلا لهؤلاء الأوغاد المسلحين!!

وفكر الحاج حسن طويلا فى مصير عائلته ، واستقر رأيه على ترحيل الأولاد الى مصر على أن يبقى هو نفسه يواجه العاصفة التى تتجمع فى سماء بورسعيد، ثم طرد هذا الخاطر نهائيا من نفسه ، فهو رجل مجرب وخبير ، وليس من المعقول أن يعود الانجليز ، وليس من المعقول أيضاً أن يهجم الموريشان والهنود والأفريكان .. لسبب بسيط هو أن قائدهم انجليزى دائما ، والقادة دائما من الصنف الممتاز.

ومضى شهران وكل شئ على مايرام ولكن فى آخر أكتوبر حدث الذى لم يكن يتوقعه ، لقد هجم الانجليز ، وبدا الضرب فى المليان ، وبعد الضرب بدأ الغزو وانتشر فى فضاء المدينة ملايين المظلات ، حمراء وصفراء ومن كل الألوان.

وصعد الحاج حسن إلى سطوح بيته فى انتظار الصيد الذى تلقى به السماء.

وكان الحاج حسن مستعدا ومسلحا ومطمئنا الى شجاعته وخبرته فى استعمال السلاح !

وجاءه الصيد سريعا ، فقد هبطت مظلة على سطح بيته ، واختبأ الحاج حسن خلف عشة الفراخ ليشاهد أولا وجه هذا العدو قبل أن يقتله، وهى دقائق معدودة يرى فيها وجهه ، وجذب ابنه من قفاه ليبطحه أرضا هو الآخر ، ولكن ، فضول الولد الصغير لم يكن يقل أبدا عن فضول أبيه! فمد بوزه وفتح عينيه ليرى وجه هذا القادم الغريب!

ولم تمض ثوان حتى كان الرجل الغريب الذى هبط من السماء منذ لحظة قد تخلص من حبال المظلة ، ورفع مدفعه الرشاش وبدا يتحرك فى حذر ويخطو كالفهد على السطح متلصصا فى كل اتجاه!

وعندما نظر الوافد الغريب ناحية الحاج حسن كان السلاح قد تحول الى كتلة من الأعصاب منتبهة ومتحفزة ومستعدة للقتال! ولكن هذه الكتلة تراخت وتمطت ، كأنها قالب زبد ساح تحت حرارة شهر يونيو ، والحاج حسن معذور وله الحق فلم يكن الهابط من فوق بمدفعه الرشاش إلا الضابط .. الانجليزى الحر!

ونسى الحاج حسن كل شئ إلا هذا الصديق ، والأيام التى ولت والعيش والملح الذى كان بينهما فى زمن مضى .. خواطر شتى جالت فى نفس الحاج حسن قبل ان تلتقى انظارهما فجأة ! وعندما التقتا ، ألقى الحاج حسن بسلاحه ، ذهب مفتوح الذراعين للقاء الصديق .. وأى صفة يمكن أن يكونها هذا الانجليزى الحر أكثر من أنه صديق!

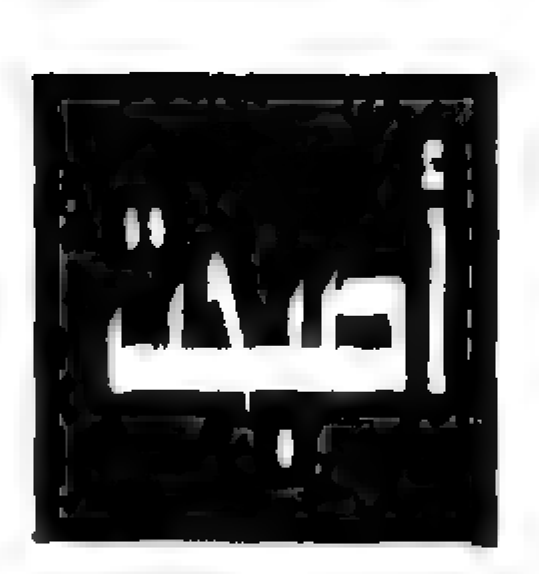
وكان الولد الشقى قد راح يعدو أمام أبيه فى اتجاه العدو ولكنه لم يكد يخطو خطوة حتى سقط على الأرض ، فقد فتح الضابط الانجليزى مدفعه الرشاش فى كرش الصبى فسقط يتخبط فى دمه!

وصاح الحاج حسن مذعورا على الخواجا الذى لابد أن الأمور اختلطت عليه .. ولكن يبدو أن الانجليزى الحر لم يفهم شيئا فقد ضغط على الزناد مرتين ، وعندما تأكد الحاج حسن انه لن يتوقف استدار يبحث عن مدفعه ، ولكن الانجليزى الحر ضغط على الزناد مرة أخرى ، وأصبح الحاج حسن اسما فى قائمة شهداء بورسعيد.

الشئ الذى لابد فكر فيه الحاج حسن وهو يتأهب للموت هو السر الذى جعله يتغير .. هذا الانجليزى الحر!!

✿✿

خاتم سليمان



أصبحت الليلة مزاج وحلاوة ، فقد جاء أبو حسن ، وإذا جاء أبو حسن فكل شئ يطيب .. فهو لا يأتى خالى الوفاض أبدا بل يحضر دائما وبين يديه أشياء ، وفى ثنايا جيوبه أشياء أخرى طيبة تحلو بها السهرة وتنجلى ، وليس أبو حسن نكرة ولا هو بالمجهول فى المدينة ، فهو تاجر كان سبع زمانه أيام الحرب وبعدها . ثم وفدت الأزمة بعد ذلك فطحنته وأودت بتجارته واشتدت الأزمة اكثر عندما اضطربت الأحوال فى القتال ، وعندما نشبت الحرب وأصبحت الاسماعيلية مسرحا للقتال انهار مركز أبو حسن التجارى تماما ، وأصبحت قدمه على شفا الافلاس.

ولكن أبو حسن ، رغم ذلك ، لم يقنط أبدا ولم يشك لأحد بل هو حريص أبدا على أن يظهر بمظهره القديم يوم أن كانت الأحوال عال والدنيا مقبلة : جلبابه دائما من الصوف أو الحرير ومن أغلى الأصناف

والخواتم الذهبية لاتزال فى مكانها حول أصابعه تلمع وتخطف الأبصار.. صحيح أنها نقصت خاتم أو اثنان . ولكن بعضها موجود على أية حال ، وأبو حسن راض عن اقتناع ، والدنـيا فى نظره هكذا ، لا النعمة دائمة ولا العسر يدوم ، وهو نفسه شبع من الحياة وارتوى، وعندما كان شابا طاف بأنحاء شتى من الأرض ، واستمتع بطيبات الله وقضى سهرات حمراء عنيفة فى بيروت وفى فلسطين وفى الشام وكان دائم الترحال ليعاين بضاعة، أو يسلم نقودا حان وقت سدادها وهو لم يزل شابا كله صحة وفتوة ولم يبلغ الخامسة والأربعين بعد.

وكانت له مجالات واسعة زمان ، كان يعشق السفر ، ويهوى التمثيل ، ويعجب بيوسف وهبى ، وكان أحيانا يقلده وهو يصرخ على المسارح وفى يده سكين تقطر من دماء ضحاياه ، ولكن مجالاته أخذت تضيق بعد ذلك حتى لم يبق له إلا سهرات الحشيش ، ففى ضباب الدخان تعود أبو حسن أن يدفن أحزانه ، وأن يجتر ماضيه فى صمت ، وأن يتجرع حاضره فى شجاعة، ويفكر فى مستقبله فى تفاؤل رغم كل شئ ، وفى هذه السهرات يجد أبو حسن مجالا فسيحا ليحكى جولاته وغزواته فى حلب ، ولياليه العامرة فى بيروت ، ومغامراته فى جبل لبنان.

ولكن هذه الحكايات مل تكرارها ، وتعود الصمت بعد ذلك ، ولكن غريزة الرغى كانت تدفعه أحيانا الى الحديث عن السياسة ومشاكل الأرض . وأصبح شغوفا بتتبع أنباء الحرب التى تتشعب بعيدا ، والتجارب التى يقوم بها العلماء لتحسين القنابل والصواريخ. وكان تعليقه الذى يختتم به أحاديثه حول هذه المسألة يحمل رأيه بصراحة فى هذا الجنون الذى أصبح هدف الانسان !

– ربنا بيخلق الحياة وبنى آدم بيخلق الموت .

كان يكره الحرب ، فقد كانت الحرب سبب خرابه . ولولا الحرب لكان أبو حسن فى حال غير حاله ، وكل شئ تغير فى الوجود حتى الحرب . فى الحرب العالمية الأخيرة كانت الأموال تدخل له بلا حساب ، كان يكسب المئات كل يوم ولم يشعر فى يوم ما خلالها بأنه يخاف القنابل أو يجزع من الطائرات .. ولكن هذه الحرب الأخيرة كانت شيئا آخر ، كان هو نفسه هدفا لها .. وكان يقف مستعدا ليخوض غمارها لولا أنهم توقفوا وانسحبوا وخرجوا الى غير رجعة.

وهو رغم المشاكل ، ورغم الخوف ، ورغم الافلاس الذى يعانيه ، لايزال يعشق الحياة ويحبها ، ويأمل أن تعود أيامه الحلوة ، فيضع قدميه فى المركب ليطوف بمسرح شبابه بين حلب وبيروت.

ولكنه أحيانا يشعر بضيق شديد يبلغ حد الكفر ، ولقد مرت به أحيانا أوقات عصيبة تمنى فيها لو تنشب الحرب ، وتمسح القنابل نصف الأرض .. وتقتل نصف الناس ، ويبقى من يبقى بعد ذلك سعيدا، فأحيانا يخيل اليه أن سبب زوال الخير هو كثرة الناس وازدياد المخلوقات . ولكن الأنباء التى يسمعها ويقرؤها تؤكد أن أحدا لن يعيش لو قامت الحرب . وأن الأرض نفسها قد تزول . وتقوم القيامة.

ولقد مضى عليه وقت غير قصير وفكرة غريبة تلح عليه وتغريه : لماذا لايغلق دكانه ويستريح ؟ .. فهو لايعانى الفلس فقط ، ولكنه يعانى أيضا من البلدية ، ومن الضرائب ومن أشياء كثيرة سببها ان الدكان لايزال مفتوحا .. الزبائن تتردد عليه ، والنور يشيع فى أرجائه ، وان كان هو نفسه لايستفيد شيئا من الزبائن ولا من النور، ولكنه صرف

هذه الفكرة واستطاع التغلب عليها ، فالدكان رغم كل شئ مركز وقيمة، وهو على اعتبار ما كان لايزال يتصدر المجالس ، ويختارها بنفسه، وسهرة الليلة على مزاجه، فهى تضمه مع محام شاب حديث العهد بالتخرج، على شئ من الثراء ، وصاحب مزاج وطموح يحب الحياة، ومتعلم يعرف الأخبار والأسرار ومشاكل الكون... وهناك أيضاً موظف فى المحافظة هادئ ورزين ووقور، وفى حاله لايراه أحد بعد ساعات العمل ، فهو دائما فى المنزل يستعد لاستقبال عدد من الأصدقاء المعدودين، ومعهم أيضا مراسل صحيفة يحلو له الحديث فى كل شئ .. وأبو حسن تحلو له هذه الجلسة وشروقه ، فحديثها يتناول كل شئ الإسيرة والناس.

وعندما هبط أبو حسن عليهم هلل الجميع لمقدمه ، ورحبوا به ، وافسحوا له مكانا فى الصدر ، فقد كان يحمل معه برتقالا وكنافة ، ويخفى فى جيبه كمية لابأس بها من الحشيش. وعندما ارتاح أبو حسن فى الجلسة ، أخرج منديله فجفف عرقه ، وخلع طربوشه فمسح حافته من الداخل ونحاه بعيدا ، وانصرف بكليته يشرف على اعداد النار ، وبدأت الأحاديث تتناثر من أفواه الحاضرين ، سرد المحامى الشاب موجزا لأهم أنباء اليوم ، ثم علق عليها وحاول المراسل أن يستنتج من الأخبار أحداث المستقبل، وجلس الموظف يستمع فقط ، ويهز رأسه أحيانا كلما كانت هناك حاجة ليشعر المتكلم بأنه يسمعه. وعاد الصمت فخيم على الحاضرين، ثم قطعه المحامى الشاب بسؤال لأبو حسن، وكأنما راعه سكوته:

– أنت ساكت ليه يا أبو حسن؟

وهز أبو حسن المروحة فى يده ليزيد النار اشتعالا.

وقال فى هدوء:

– أصل النهاردة حصل لى فصل غريب قوى.

وتناول المراسل طرف الخيط وسأل أبو حسن عن الفصل الغريب .. وأجاب أبو حسن على الفور:

– النهارده اشتريت سمك حلو قوى ، وبعدين بينضفوه فى البيت لقينا جوه سمكة صباع بنى آدم وفيه خاتم.

وقال الموظف الوقور فى شئ من الدهشة:

– دا كلام ايه ده ؟ .

ورد أبو حسن فى هدوء شديد :

– زى ما بقولك كده ..

وهتف الجميع !!

– وبعدين ؟

وضحك أبو حسن ضحكة طويلة ، وقال :

– أبدا ، شلت الخاتم وقلت فى نفسى مين يعرف ؟ يمكن خاتم سليمان ..

وضحك الحاضرون ، ثم قطعوا الضحك عندما أخذت الجوزة تدور عليهم وأخذت سحب الدخان تتجمع فوق رءوسهم ، صلبة لاتتحرك وكأنها مشدودة الى السقف بحبل غير منظور.

واقترح أبو حسن أن يفتح أحدهم النافذة لينصرف الدخان ، وهب المراسل على الفور فنفذ الأمر ثم عاد ، وقبل أن يعود الى مكانه سأل أبو حسن فى شئ من الخبث:

- طيب وايه اللى جاب الصباع والخاتم فى بطن السمكة ؟

وأجاب أبو حسن وهو يتفرس فى وجه السائل:

- حد يعرف ، ما يمكن يكون صباع عسكرى انجليزى من العساكر اللى غرقوا فى البحر أيام الحرب..

ووافق الموظف على كلام أبو حسن ، وقال المحامى:

- مايمكن عسكرى فرنساوى ..

وقال المراسل وكأنه يفصل برأى قاطع فى الخلاف:

- مظبوط ، لأن فيه مراكب فرنساوى كتير غرقت عند دمياط وأنا شفت الجثث بعينى..

ورد أبو حسن وكأنه يريد أن يحسم النزاع :

- انجليزى ، فرنساوى كلهم ولاد كلب .

وعاد الصمت من جديد يسيطر على الجلسة ، والجوزة تدور ، وأبو حسن ينفخ فى النار ، وقطع الصمت المحامى الشاب ليسأل أبو حسن سؤالا مفاجئا :

- طيب وافرض ان الخاتم ده خاتم سليمان ، كنت تطلب إيه؟

وقال أبو حسن على الفور:

- فكره برضه ..

ثم صمت طويلا وكأنه يفكر فى الأمر ، ثم رفع رأسه بعد فترة وحدق فى الجالسين يتفرس فيهم ، ثم قال للمحامى الشاب:

- طيب انت كنت تطلب ايه ؟

وابتسم الشاب لمهارة أبو حسن وقال وكأنه كان يتوقع السؤال :

- أطلب منه يعملني أحسن محامي في مصر ، وأغنى محامي كمان، ومصر ترفع قضية في محكمة العدل الدولية واترافع عنها وأكسب القضية ، وابني عمارة على النيل ، ويبقى عندي مكتب فيه ألف محامي.

وهز أبو حسن رأسه وقال :

- حلوة دي ..

ونظر الى المراسل فاكتشف أن المراسل كان ينظر إليه متوقعا توجيه السؤال إليه ، وأسرع فأعفى أبو حسن من توجه السؤال ، وأجاب على الفور.

- أنا أطلب أكون صاحب أكبر جرنال في الاسماعيلية ، مش عاوز أروح مصر ، ويبقى اسمي زي الطبل ، والكلام اللي اكتبه المحافظ يعمل بيه على طول واخليه يعمل م الاسماعيلية دي عروسة ، وجميع العالم يشتغل ، وتبقى الحالة عال ، وكل سنة أخطف رجلي لحد أوربا أشم الهوا ، وأيدي على ايدك يابو حسن كل مشوار لازم تطلع معايا.

كان واضحا جدا بعد هذا ، أن الدور على الموظف .. ولكن لم يبد عليه أنه يهتم كثيرا بالحديث . وأنه لايحفل كثيرا بخاتم سليمان وكنوزه التي يفتحها لمن يطلبها ، ولكن أبو حسن حدق فيه طويلا قبل أن يسأله:

- طيب .. وأنت ؟

وقال الرجل الطيب بعد فترة صمت :

- أطلب الستر.

وعقب أبو حسن :

– مافيش أحسن منه ..

ثم أضاف :

– لكن احنا عاوزين نعرف راح تطلب ايه .. ماهو كل الناس عاوزه الستر ، انما ايه اللى انت عاوز تنفذه فى مزاجك؟

ورد الرجل فى هدوء :

– ولا حاجة ، الستر ، برضه .

وساد الصمت من جديد ، وحدقت كل العيون فى أبو حسن ، فقد جاء دوره ، وأسرع المراسل فسأل أبو حسن :

– وأنت ياعم ؟

ولزم أبو حسن الصمت فترة ثم قال :

– أطلب شيئا واحدا ..

وهتف الجميع :

– ايه ؟

– أطلب منه يخلينى ايزنهاور ..

وضحك الجميع عاليا .. حتى الموظف الوقور شاعت فى سحنته السخرية وهتف المراسل عابثا :

– حلوة دى !!

وقال أبو حسن :

– قوللى ليه ؟

وقال الجميع :

– ليه ؟

وألقى أبو حسن بالمروحة جانبا ، واعتدل فى جلسته وقال:

– أقولكم ليه ، بقى أنا أبقى ايزنهاور ، وعلى طول أذيع بيان أطلب فيه مقابلة بولجانين فى برمودا.

وقاطعه المحامى الشاب :

– واشمعنى برمودا ؟

– جوها حلو ، والناس الكبار بيتقابلوا هناك دايما ، المهم يقابلنى ... مش مهم فين ..

– طيب ، وبعد ما نقابله ..

– اتفق معاه واشوفه عاوز ايه ، عاوز يكسر القنابل الذرية أوافق ، نعيش سوا سوا أوافق ، مفيش استعمار أوافق .. كل دولة حرة تعمل اللى هيه عاوزاه ، وكل واحد فينا يلتفت لبلده بس ..

– طيب .. وبعدين ؟

– وبعدين أطلع بيان أقول فيه ان قناة السويس تتبع مصر.

– طيب وهيه بريطانيا ترضى ؟

وقال أبو حسن باستنكار شديد :

– بريطانيا دى ايه ؟ .. ترضى كان بها ، ما ترضاش احط ايدى فى ايد بولجانين وأضربها بالقنابل والصواريخ ، وامسحها من على وش الأرض .. تخلى البحر ياكلها.

وصمت أبو حسن قليلا قبل أن يقول متسائلا:

– ظبط .. والا مش ظبط ؟

وكانت الجلسة حليت تماما .. فهتفوا جميعا :

– ظبط !!

واستأنف أبو حسن حديثه ، وقد اطمأن تماما الى أن الأذان تترقب سماعه:

– بعد كام يوم أطلع بيان تانى أقول فيه : فرنسا تطلع م الجزائر ..

– طيب ماطلعتش ؟

– أعمل فيها زى بريطانيا ، أمسحها.

– وبيان تانى لاسرائيل .. تدخل جميع العرب أصحاب البلد ، وتنفذ قرارات الأمم المتحدة ، وهيه حرة .. تنفذ ع العين والرأس ، تعصى يتعمل فيها اللى اتعمل مع بريطانيا وفرنسا . خلصنا المشاكل دى ، ننتبه بقى للحاجات الثانية نشتغل بعقل ، الصين دى بتاع الراجل كاى شيك نطردها م الأمم المتحدة، وتخش الصين الثانية اللى كانت عاملة المعرض فى الجزيرة.

وهتف المراسل على الفور :

– دا كان معرض هايل قوى ..

– أمال ، حاجة حلوة تمام .. دانا سافرت مخصوص ..

وأمسك أبو حسن بطرف جلبابه وقال :

– الجلابية دى من هناك ، حرير أصيل يعنى ..

وسكت أبو حسن ، وسكت الآخرون ، ودارت الجوزة ثم توقفت ، وسأل أحدهم :

– وتفضل ايزنهاور على طول ؟

ورد أبو حسن :

– لا .. مانا جايلك .. بعد كده أطلب مقابلة بولجانين تانى ويحضرها معانا كل الزعماء .. عبد الناصر يحضر ، نهرو يحضر تيتو

يحضر ، الراجل بتاع ألمانيا يحضر ، بتاع الصين يحضر سوكارتو يحضر ، سعود يحضر ، القوتلى يحضر .. نورى السعيد لا ، ولابتاع تركيا كمان ، الناس الجدعان بس وبتاع استراليا كمان مايحضرش أبدا.. ونعمل مؤتمر : جيوش مافيش أبدا طيارات بتاعة ركاب بس ، أسلحة ممنوعة ، وكل واحد يرجع لبلده ينفذ تمام..

– طيب وبعدين..

بعد شويه أجى رافد دالاس ، وأعين بداله راجل طيب ابن حلال..

– وبعدين ..

– وبعدين ايه ؟! أطلب م الخاتم يرجعنى أبو حسن تانى .

وران الصمت على الجميع بعض الوقت ، قطعه المراسل متسائلا فى اشفاق :

– طيب وانت استفدت ايه ؟

ورد أبو حسن على الفور :

– استفدت كثير .. أول حاجة مافيش حرب ، الحال يمشى على طول، التجارة تمشى ، والبحر يمشى ، والجو يمشى ، والفلوس ترجع فى ايدين الناس والجنيه يبقى جنيه زى زمان ، وكل شئ يرخص ، الجلابية دى بدل ماتبقى بعشرة جنيه تبقى بجنيه واحد .. والجوز الجزمة من غير مؤاخذة يبقى بثلاثين قرش ، وتعرف تشرب فنجال قهوة بن مظبوط مش نشارة خشب ، السيجارة تبقى سيجارة بحق وحقيقى مش زى سيجارة النهارده ، والحشيش يبقى حاجة فخمة صحيح نشربه نشبع مش يبقى سم زى حشيش اليومين دول ، الشقة اللى بخمستاشر جنيه تبقى بتلاته والخير يبقى زى زمان وأكثر.

وبعد دا كله تسألنى استفدت ايه ، طبعا استفدت روقان البال ، المزاج والفخفخة، طيب دانا علىّ الطلاق بالتلاتة أيام الغارات ما شفت قعدة حلوة، طول الليل البندقية فى كتفى قاعد منتظر ولاد الكلب ، وبعدين ماحصلش نصيب.

والتفت أبو حسن للجوزة وللنار، وسكت والراحة تهدهد نفسه كأنه أدى رسالة.. ولكن المحامى لم يتركه يستمتع بهدوئه فسأله فجأة .

– طيب وافرض يابو حسن الأمريكان عرفوا انك مش ايزنهاور الحقيقى ايه اللى يحصل؟

وضربت لخمة مع أبو حسن ، فلنفرض أن هذا حدث فعلا فماذا تكون النتيجة .. وهز أبو حسن ، رأسه طويلا قبل أن يجيب:

– ولا حاجة ، بعد ما يشوفوا أعمالى راح ينبسطوا ، عشان الناس هناك عاوزين كده ، انت فكرك حد عاوز حرب ، دا الناس هناك برضه أصحاب مزاجات وبيحبوا الدنيا ، مافيش غير شوية يهود ولاد كلب عندهم المال وبيكسبوا م الحرب ، دانا قريت أنهم كسبوا مال قارون فى حرب كوريا ، ودى كانت حتة حرب لا هنا ولا هناك .. انما الناس الغلابة اللى زى حالتنا عاوزين يعيشوا بس ..

عاد المراسل يسأل أبو حسن فى شئ من التحدى :

- طيب وافرض الحاجات دى كلها اتعملت ، نودى الخاتم فين ..

- أرميه فى البحر ..

قبل أن يقاطعه أحد ، استدرك قائلا :

- وعشان خاطرك انت أطلب تموين العمر كله ، حشيش أجدع صنف ، وبعدين أرميه فى البحر..

– واشمعنى فى البحر يعنى .

– أحسن حد من ولاد الكلب يلاقيه يلخبط الدنيا تانى ..

كان الليل .. قد انتصف .. وهدأت المدينة ونامت .. عندما نهض أبو حسن بعد أن أكل البرتقال والكنافة فنفض جلبابه وأعاد طربوشه فوق رأسه ، واستعد للخروج .. ونهض الجميع وانهمك الموظف صاحب البيت فى كنس بقايا الدخان والفحم وأكياس البرتقال وورق الكنافة .. وبعد أن انتهى صافح أبو حسن فى حرارة على الليلة الجميلة ، وعلى الصنف الجيد ، وعلى الحديث الممتع الظريف.

وانتهز المحامى الفرصة ، فعلق على حديث الموظف قائلا:

– فعلا .. ليلة جميلة قوى حد عارف ايه اللى راح يحصل بكره؟

وابتسم أبو حسنى فى هدوء وقال :

– ولا راح يحصل حاجة ، ان كانوا ناس عاقلين صحيح راح يحصل زى ما قلنا، وان كانوا مجانين بقى يحصل زى ما يحصل ، احنا مش راح نخسر حاجة، همه ح يخسروا قبلنا .

وتقدم أبو حسن صاحبيه نحو الخارج، وقبل أن يصل الى الباب الخارجى التفت الى الثلاثة ، وقال مستدركا :

– نسيت حاجة ؟

وهتف الثلاثة ..

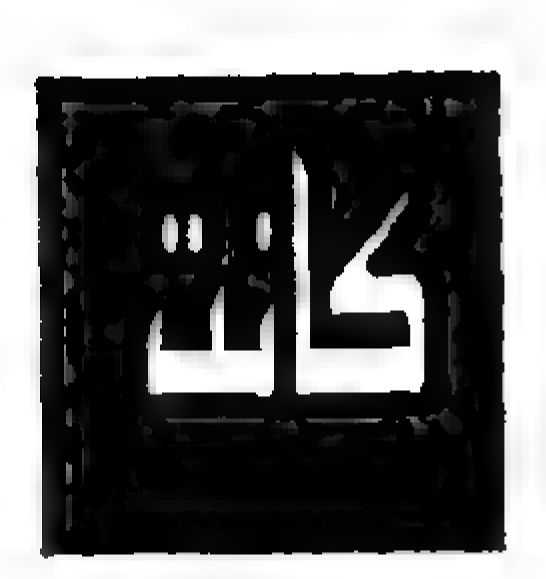
– إيه ؟!

– أطلب من الخاتم يمسح البلدية والضرايب ..

وارتفعت ضحكات الجميع ، وهم يتوغلون فى الشارع ويمشون فى الظلام.

✿ ✿

شيخ الخفراء



الليلة مظلمة وكئيبة، وكانت العاصفة تزأر في الخارج والمطر ينهمر غزيرا .. وكانت نقطة البوليس التى تحتوينا تشهد يوما تاريخيا في حياتها الطويلة. ففى الفناء الخارجى كان يصطف أكثر من مائة خفير مسلح ببنادق عتيقة استخدم بعضها في الحرب العالمية الأولى ولم يكن من بين هؤلاء الخفراء من يبدو عليه الشباب والحماس ، كان أكثرهم يقطع بخطوات حثيثة نهاية العقد الخامس وكان يبدو عليهم جميعا أنهم يؤدون واجبا ثقيلاً.

وكان المأمور يجلس أمامي يغالب النعاس بالدعك في عينيه دائما ، ومفتش البوليس يناقش مندوب الوزارة الذى حضر خصيصا من العاصمة ليشرف على الحملة .. في فوائد الأرانب ورغم أن المفتش استخدم كل براعته في التمثيل وكل مواهبه الأخرى في اقناع مندوب

الوزارة الذى كان يبدو رغم لباسه المدنى أعلى رتبة من المفتش ، بأن لحم الأرانب يطيل العمر إلى مائة عام .. إلا أنه لم يبد عليه الاقتناع أبداً.. وظل متشبثا برأيه وهو أن لحم الأرانب مفيد ولكنه لايطيل العمر أبداً .

وكان المفتش يسوق الحجج والبراهين وهى كلها قاطعة ومانعة وكان يعانى جهدا شديدا وهو يحكى ، جمل العرق يتصبب من جبهته رغم البرودة الشديدة ، فقد كان المفتش حريصاً على انتقاء ألفاظ معينة لحديثه مع الضابط الكبير وكان أشد حرصا على استعراض بلاغته أمامه.

فكان يتعمد الحديث بالفصحى فى أغلب الأحيان .

- تعرف سعادتك .. لحم الأرانب ليس إلا ..

وكان عندما تروق له عبارة مثل «ليس إلا» يظل يكررها أكثر من مرة وهو سعيد بها غاية السعادة.

- ليس إلا .. دواء للأمراض.

وكان الضابط الكبير يرد عليه بألفاظ بسيطة وعادية ، ولم يكن يبدو عليه أى اهتمام بشأن محدثه ، وكانت معارضته تبدو معارضة لشخص المتحدث أكثر منها معارضة لرأيه.

- ياراجل حرام عليك .. دواء ايه!

- زى ما بقول لسعادتك طيب ايه رأيك جدى عاش مائة عام وكان يأكل لحم الأرانب حتى وافاه الأجل المحتوم .. نعم الأجل المحتوم.

- مالهاش دعوة الأرانب دا عمره ، ولكل أجل كتاب.

وبدأ على المفتش الغم الشديد .. لا لأن الضابط الكبير لم يقتنع ولكن لأنه استشهد بكلمة بليغة.. كان الأحرى به أن يستشهد هو بها ، ولكنه سرعان ما استرد مكانته ، وقال فى جهد شديد.

– نعم .. نعم لكل أجل كتاب دا صحيح وإنما .. برضه .. وجعلنا لكل شئ سببا .. ولحم الأرانب هنا هو السبب فى إنه عاش مائة عام.

كانت أصواتهم مسموعة أول الأمر ، ولكنها ما لبثت أن تلاشت حين تصاعدت الضجة من الخارج من فناء النقطة.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل وكان أمامنا ساعة أخرى لنبدأ رحلتنا صوب الجبل الغربى لمطاردة عصابة «الخط» التى ذاعت أنباؤها وشاعت وأصبح لها سلطان فى الصعيد كله يفوق سلطان القانون.

وكنت أتعجل الزمن لنبدأ رحلتنا صوب الجبل ولتتاح لى أول تجربة من نوعها فى حياتى .. فخلال عملى الصحفى لم يعهد الى بعمل من هذا النوع على الإطلاق . وهاهى الظروف تهيئ لى فرصة ثمينة لأكون أول إنسان يعلن على الناس نبأ هزيمة العصابة واستسلامها.

وكانت مناقشة المفتش ومندوب الوزارة قد انتهت لا أدرى عند أى حد عندما غادرت مقعدى فى الداخل وخرجت الى الفناء لألقى نظرة على الخفراء الذين اختارهم مندوب الوزارة بنفسه ليكونوا أفرادا فى فرقة الخلاص.

كان الخفراء يقفون تحت المطر وسط العاصفة .. ملابسهم قديمة وبعضها ممزق ، وأحذيتهم مثقوبة ووجوههم جامدة قاسية يرتسم عليها سخط هائل .. وشيخ الخفراء وحده كان يبدو عليه النشاط

والحماس يلقى إليهم بتعليماته ، ثم يسرع الى الداخل يهمس فى أذن المأمور بكلمة وينحنى للمفتش ويضرب تعظيم سلام لمندوب الوزارة ويرن جرس التليفون فيرد عليه ويصيح مبتهجا . المديرية .. ويجرى شيخ الخفراء الى الفناء يختبر الأسلحة بنفسه ويلقى نظرة على الساعة ثم يدور حول الخفراء ويهمس فى اذن البعض منهم ويشخط فى وجه البعض .. زعق بصوت رهيب فتحرك الخفراء الى الخارج وخرج الضباط الثلاثة الكبار يتقدمهم مندوب الوزارة فالمفتش فالمأمور ووقفوا يستعرضون الخفراء وهم فى طريقهم الى الأمام ولم تمض لحظات حتى تحرك طابور الخفراء صوب الجبل الغربى.

كان رفيقى فى الرحلة الغربية فقيرا عجوزا فى الخامسة والخمسين من عمره وكان قد قضى حياته فى تلك المنطقة الرهيبة وشهد معارك طاحنة بين اللصوص ورجال الحكومة. وكان يعرف مسالك الجبل والطرق المؤدية إليه معرفة خبير وكان يتحدث عن رجال العصابات وكأنه يعرفهم.

وكان شيخ الخفراء سمينا بعض الشئ أحمر الوجه منتفخ الأوداج ذا شارب أصفر منقوش وكان فيما يبدو معتدا بقوته البدنية فخورا بتركيبه الجسمانى وقد حرص عندما عرف أننى صحفى أن يذكر لى اسمه كاملا :

– زكريا حسن سليمان .. بس أوعى تنسانى لما تكتب.

وعندما أخبرته أننى سأبذل غاية جهدى لإبراز الدور الذى سيقوم به، سألنى فى هدوء:

– دى أول مرة نطلع فى كبسة ؟

ولما أجبته بالإيجاب قال وهو يضحك :

- بس اوعى تخاف خلى قلبك جامد.

كنا قد تركنا القرى وخرجنا الى الخلاء وكان لايزال أمامنا خمسة كيلو مترات لنصل الى الجبل وعن طريق المسالك الضيقة القذرة كان أمامنا أكثر من ساعة لنصل الى هناك ، وفجأة وقف شيخ الخفراء يلقى بتعليماته وشرح الخفراء الخطة ثم وزع القوة الى قافلتين واحدة تتجه نحو الشمال والأخرى الى اليمين وكنت من نصيب القافلة الأولى فانحرفنا ناحية الشمال فى طريق يبدو وكأنه كان يوما ما مجرى نهر جفت المياه فيه ولما كانت الأوامر تمنع استخدام أية أنوار أثناء زحفنا نحو الجبل فقد راح الخفير العجوز يتلمس طريقه فى الظلام وهو يلعن كل شئ وسرحت أنا فى هؤلاء الناس الذين يسكنون الجبل والسلاح بين أيديهم، وأصابعهم على الزناد، وعيونهم على الطريق يطلقون النار على كل حركة وعند كل اشارة ويعيش الواحد منهم وليس له مقر ويموت ولا نعرف له قبرا.

وانتزعنى من أفكارى شيخ الخفراء ، إذ وكزنى بشدة فى جنبى ، وقال لى وهو يغمز بعينيه:

- انت خايف والا ايه ؟

ولما أجبته بالنفى ، قال فى غير مبالاة:

- دى عصابة ورق أنا قلت للمأمور أخذ ألف جنيه وأجبلك الخط نفسه مربوط فى الحبل مارضيشى.

أثارنى حديثه .. فسألته مندهشا :

– وتقدر صحيح تجيبه فى حبل.

– إلا أجيبه ، دنا معروف فى كل حته اسأل أى واحد : تعرف زكريا ؟ شوف يقولك ايه!

وبدا وهو يتكلم كأنه يقرر واقعا لاسبيل الى انكاره .. وكان حين يتحدث يهز كتفيه ويفرك شاربه الكث بأصابعه ويكح فى تحد وثقة وينفخ صدره العريض وهو يربت فوقه براحة يده وأشعل زكريا سيجارة جذب منها نفسا عميقا ثم قال وهو ينفث الدخان فى ضيق شديد:

– تعرف أنا أنفع فى حاجة واحدة بس ..

وسكت زكريا قليلا وجذب نفسا آخر أشد عمقا وقال وهو ينفث الدخان هذه المرة فى حلقات.

– أنا تسيبنى فى الجبل دا وتقوللى روح !

– طيب وتعمل ايه فى الجبل ؟

وقال فى استنكار بالغ :

– أعمل ايه .. مادام معايا المدفع بتاعى يبقى كل يوم أسلمك عصابة .

قال ذلك ثم خبط بيده عدة مرات على المدفع الذى كان يتأرجح فوق صدره ثم قال فى صوت خافت وكأنه يحدث نفسه :

– مادام معاك مدفعك مافيش أى حاجة تقف قدامك..

ثم نفخ فى ضيق وفى أسى وبدا لى وكأنه أسد كاسر محبوس فى قفص من حديد ، وخيل الى وأنا أرقب أسارير وجهه أن الفرصة قد

سنحت له مرة أخرى لينطلق فى الجبل ، ومادام معه مدفعه فلن يقف شئ أمامه .. ولا أدرى لماذا خطر لى أن أسأله سؤالا ساذجا أغضبه للغاية وجعله يزمجر من الاهانة التى ألحقها به:

– وطلعت الجبل قبل كده ؟

– أمال احنا بنحكى فى ايه من الصبح ؟ أنا قضيت عمرى كله هناك، دى معلومات لازم تكتبها .. أنا كنت أطلع الجبل دا فى القمر ، حاكم أنا ماطلعش غير فى القمر بس .. المأمور عارف كده والوزارة عارفه كده.. وأطلع أنا ، المدفع على كتفى وبس شيبت المجرمين فى الجبل..

– وقتلت كتير منهم .

– ياما أنا أيام كنت ألاقى فى سكتى خمس جثث تعرف بقى كنت أبعد عنها وأنزل م الجبل.

– وتبعد عنها ليه ؟

– أنا مذهبى كده ما دام مات يبقى ألف رحمة .. وتعرف ايه السبب كان مزاجى أمسكهم ع الحيا ونهار ماكنت أمسك واحد كان يبقى يوم عيد ..

– ومسكت كثير يازكريا ..

– أسأل عنى بلاش أقولك أنا أحسن تقول كداب ، طيب تعرف ؟ أنا مرة مسكت واد اسمه جابر ، لاتقوللى الخط ولا الفقى ، وكان واحد مجرم بصحيح ، كان مشيب المنطقة دى كلها . فى يوم وكان القمر بدر وخدت مدفعى وطلعت الجبل تعرف ايه اللى حصل؟

دخلت عليه المغارة ، ضرب أكثر من عشرين طلقة بقيت أقوم وأنبطح على وشى، حاكم دا فن .. كمان تنه يضرب لما المدفع بتاعه فرغ.. وعنها حلقتله شنبه وأخذته ونزلت .

– وحلقتله ازاى؟

– شديت الشعر بأيدى..

كان الخفير العجوز يختلس بين كل حين وآخر نظرة الى شيخ الخفراء وكانت نظرته تحمل معانى كثيرة لم أستطع تحديدها وكنت أخمن أحيانا أنها نظرة اعجاب واكبار لأن زكريا كان أحيانا يستشهد بالشاويش فى وقائع كثيرة فكان يهز رأسه دائما موافقا على كل ما يقول.

كان الظلام حالكا للغاية والريح تعصف بشدة لاتزال ، والمطر حول المنطقة كلها وقد حولها الى بركة من الطين ، والخفير العجوز يبصق على الخط ويلعن الأيام وهو يحاول جاهدا أن يخرج من الحفرة التى وقع فيها.

ووقفنا جميعا فى العراء .. شيخ الخفراء والخمسة عشر خفيرا الذين كانوا يرتعدون من شدة البرد .. ويدأ زكريا يباشر سلطاته منذ تلك اللحظة.. فقد كان من البديهى انه وحده هو المسئول عن كل هؤلاء الناس الذين يلتفون حوله ..

وراح يتلفت هنا وهناك بعض الوقت قبل أن يسأل الخفير العجوز عن المكان الذى توجد فيه العصابة بالتحديد.. وأجاب الخفير على الفور وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح .. وبعثت اجابته موجة من الذعر فى

صفوف الخفراء .. فهم يعلمون بتجربتهم الطويلة أن الخطر يحيط بهم من كل جانب ما داموا على بعد يسير من دير الملاك ، واقترب الخفراء بعضهم من البعض فى حلقة ضيقة ووجوههم جميعا نحو الغرب وبنادقهم مشرعة فى أيديهم وكأنهم على أبواب معركة ساخنة لاتنتظر إلا أمرا من زكريا ، وفوجئت وأنا أنظر نحو الغرب مثلهم بشئ غريب ، شئ رهيب كالقبر ، يبدو فى الظلام تحده ظلمة أكثف من الظلمة التى تلف الكون وهمست فى أذن أحدهم أسأله عن هذا الشئ.. فأجاب بصوت خافت مرتعش .

- دا الدبل « الجبل ».

كانت المسافة التى تفصل بيننا وبين الجبل لاتزيد على ألف متر ، وكان معنى ذلك ببساطة أن طلقة ولو غير مقصودة يطلقها هارب فوق القمة لابد ان تقتل أحدنا فى الحال .. وقطع الصمت الذى يحيط بنا لغط الخفراء .. كل منهم يحاول أن يقترح شيئا لحل الموقف .. كانوا جميعا يتحدثون إلا زكريا كان يقف صامتا ، والمدفع فى كتفه وعيناه الواسعتان نصف مغلقتين كأنه يحلم .. وكان بين الحين والحين يدس أصبعه فى فمه يقرض اظفاره فى عصبية وقلق تستدعيهما مسئوليته الكبرى كقائد عظيم.

وأخيرا سكت اللغط وارتفع صوت الخفير العجوز يقترح أن نظل فى أماكننا حتى نعثر على زملائنا الآخرين ، أو ننسحب فى هدوء نحو الشرق بعيدا عن الجبل الغربى .. ولكن هذا الاقتراح لم يلق قبولا من زكريا وارتفع صوته لأول مرة يأمر الجميع بالتزام الصمت وانحنى على اذنى يهمس فيها ويده الغليظة تلتف حول كتفى:

– ايه رأيك بقى ، أنا راح أكبس على العصابة وأمسكهم زى النسوان.. ولما لم يرتفع صوتى بشئ ما .. قال على الفور.

– بس تكتب بقى آه ، أهو دا وقتك بقى ، زكريا الرهيب فى الجبل ، ولا اى حاجة ، بقى ، عاوزك تعمل موضوع كده يفتح النفس ، تعرف بعد كده الواحد يمسك العمودية على طول.

وتركنى وتقدم الجميع بعد أن أمرهم بالتحرك فى اتجاه الجبل وامتثل الخفراء للأمر ولكن صوت الخفير العجوز عاد يرتفع من جديد محذرا فى شئ من الغلظة.

وأضاف :

تروح فين دلوقت فى الجبل واحنا فى الأرض دول و ضربونا بالطوب يغلبونا، دا ليلة ايه المهببة دى.

ولكن زكريا كان يتقدم الخفير العجوز بمسافة لم تسمح له بأن يسمع حرفا واحدا مما قال ، وبدا الصمت يخيم على الصف الطويل من الرجال الذين راحوا يزحفون بحذر شديد نحو سفح الجبل.. وفجأة توقف زكريا واستدار نحوهم وأمرهم بالانتشار على شكل حدوة وهتف مسرورا بعد ذلك كأنه طفل صغير.

– أيوه .. حدوة دا تكتيك محسوبك زكريا ، تعرف ، لما يكون خمسين مجرم زى الخط .. لازم يسلموا..

وعندما أصبحت الحدوة على أحسن ما تكون أرتفع صوته من جديد يأمرهم بالتقدم ولكنه بقى هو فى مكانه لم يتزحزح شبرا وجذبنى من يدى لأكون الى جانبه وظل الخفير العجوز خلفنا فلم يكن مسلحا بشئ إلا بعصا صغيرة.

وأنتفخ زكريا كأنه روميل فى الصحراء، والتفت الىّ مزهوا كأنه ديك رومى سمين وقال:

– زكريا الرهيب فى الجبل ، ايه رأيك فى العنوان ده ؟

ولم ينتظر حتى يسمع منى جوابا ، ويبدو انه لم يكن ينتظر الجواب.. فواصل حديثه على الفور :

– لو أمسك الخط تفتكر يعملولى ايه ؟ ياسلام .. دا الواحد كان يبقى أشهر واحد فى مصر ، ايه رأيك البركة فيك أنت.

وعندما انتهى من حديثه كان الخفراء قد أصبحوا على مسافة بعيدة ولم يعد من السهل الاتصال بهم عن طريق الكلام وفجأة صوب زكريا مدفعه نحو الجبل وشد على الزناد .. وانطلقت الرصاصات تعربد فى الفضاء وصداها الرهيب يجلجل فى أنحاء الجبل واستدار نحوى فى كبرياء ملحوظة وقال فى غير مبالاة:

الهجوم بدأ .. تقدر تكتب بقه!!

ولم يكد زكريا ينتهى من عبارته هذه حتى ضج الفضاء حولنا بالاف الرصاصات ونظر زكريا نحو الجبل وقد اتسعت عيناه أكثر وتغضنت جبهته ثم لم يلبث أن عاد إليه الهدوء وقال فى سرور بالغ.

– دا العيال بتوعنا ..

ثم التفت نحوى وقال :

تقدر تكتب تقول .. وكانت الطلقات تشق كبد الجبل الغربى أيه رأيك فى أسلوبى بقى أنا كنت غاوى الكتابة على فكرة وتعرف لو كتبت .. مين عارف؟

وعندما حمى وطيس المعركة عن ذى قبل استدار مرة أخرى نحو الجبل ثم نظر الى الخفير العجوز الذى كان هو الآخر منهمكا فى تبين حقيقة الأمر وبدا أنه لم يعد يفهم شيئا مما يحيط به وأنه يعلق أهمية كبرى على ما سوف ينطق به الخفير العجوز.

وتكلم الخفير أخيرا وقال فى هدوء بالغ:

– دا مش رصاصنا دا رصاص مدافع .. العيال بتوعنا ماسكين بنادق. وهتف زكريا فى ارتباك شديد :

– مدافع .. مدافع .. انت متأكد ؟ أمال ايه ؟ نعمل ايه طيب ننسحب ننسحب.

وارتفع صوته عاليا رهيبا :

– أرجع ورا يا غفير .. ارجع ورا ..

ولكن صوته رغم ضخامته تلاشى فى الفضاء وعندما ارتفعت صرخة من مكان ليس بعيدا عنا هتف فى وجه الخفير وفى وجهى ..

– ننسحب أحنا ..

ولم ينتظر حتى يسمع رأينا فى هذا الأمر بل أسرع بالانسحاب وراح الخفير يلهث وهو يجرى خلفه وانطلقت أنا الآخر أعدو بأقصى قوة .. واختلطت أصوات الطلقات بصراخ الجنود بأصوات أعواد الذرة الصيفى الجافة وهى تنكسر تحت أقدام الجميع ورسم الظلام والليل والخوف لوحة رهيبة لجو المعركة ، وكان الفزع قد استبد بنا .. وكان واضحا للغاية أن شيخ الخفراء هو أكثر الجميع فزعا وكان منظره وهو يجاهد ليعدو بأقصى سرعة يدعو الى الرثاء والى الضحك معا .. ورغم ضخامته فقد كان يبدو وهو يجرى كأنه عصفور مذعور فاجأه صياد

قاس لايرحم .. وعندما اكتشف أن المدفع الرشاش الذى يحمله على كتفه يعوقه عن السرعة المطلوبة ، ألقى بالمدفع على الأرض أمامه ولكنه - لسوء الحظ - داس على الزناد وهو يجرى فانطلقت رصاصة إلى أعلى أصابته فى كتفه فسقط على الأرض مضرجا بالدماء.

كان أنينه مزعجا ورهيبا وقاسيا للغاية ولكنه لم يلبث أن انكفأ على وجهه بلا حراك . وانبطحت على وجهى فوق الأرض الى جانبه أتحسسه بيدى .. وكان الخفير قد لحق بنا فجلس على الأرض عند رأسه يلعن كل شئ ويده تتحسس جبهة الملقى على الأرض والخفراء الذين كانوا خلفنا بدأوا يفدون الى المكان الذى وقع زكريا فيه وأخذوا يلتفون حولنا صامتين لا يجرؤ أحد منهم على أن يشعل عود ثقاب واحد .. حتى لا نصبح هدفا لرصاص المجرمين الذى كان حتى هذه اللحظة يعوى حولنا فى كل اتجاه.

كان من المحتمل أن شيخ الخفراء قد مات فقد كان نبضه خافتا للغاية وثمة دم يسيل من كتفه ساخنا حارا وفمه ينفتح أحيانا بشهقات سريعة متلاحقة ، وثمة خفير صغير كان يقف عند أقدام زكريا ينتحب فى حرقة بالغة وفى تأثر صادق وسيل الرصاص المنهمر قد توقف والليل أخذ يسحب ذيوله خلف الجبل وطيور الصباح الصغيرة راحت تقطع الفضاء فوق رءوسنا فى اتجاه الحقول الدافئة، وبدا وجه زكريا على ضوء النهار الشاحب أصفر باهتا كالنهار نفسه ، وحملت إلينا الريح صوت العربات الضخمة التى كانت لابد تبحث عنا خلال الظلام وصرخ الخفير الشاب الذى كان يقف منتحبا منذ لحظة مستنجدا ولم تمض لحظات حتى وصلت العربات الضخمة ، ونزل المأمور أولا نائما

يغالب النعاس وتبعه مندوب الوزارة ومفتش البوليس وانحنى المأمور يفحص شيخ الخفراء ثم رفع أصابعه الملطخة بالدم وتمتم فى انشراح.

– الحمد الله .. بسيطة ..

كانت الاصابة فعلا بسيطة ، اخترقت الرصاصة لحم الكتف ولكنها لم تصب العظام بسوء .. وانتزع أحد الخفراء منديله المحلاوى الكبير من فوق رأسه ولفه حول الجرح الذى كان لايزال ينزف دما.

وانطلقت عربة سريعة نحو المدينة لتحضر طبيبا على عجل ، ووقف مفتش البوليس بجوار شيخ الخفراء وجلس مندوب الوزارة على رفرف عربة وانتشر الخفراء حولهما فى كل مكان.

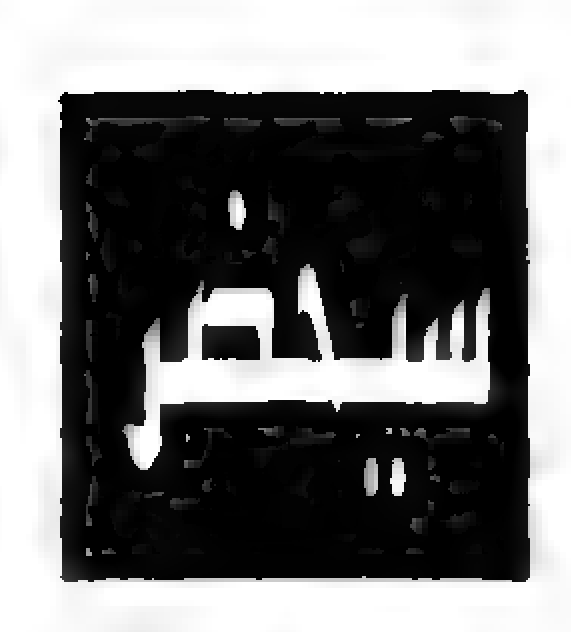
وهز المفتش رأسه فى عصبية بالغة وقال لمندوب الوزارة :

– سنعرف أن هذا صحيح عندما نجرب لحم الأرانب ، كل أرانب وسترى!

ولم يرد مندوب الوزارة .. كان يتثاء ب فى خمول ويرعش ساقيه فى عصبية بالغة .. وشيخ الخفراء الجريح يتمدد فوق بطانية الى جانب الترعة. والجبل الغربى يبدو خلفنا كقبر رهيب شيدته أجيال وعصور متعاقبة والخفير العجوز يشعل سيجارة ويبصق فوق الأرض ويلعن كل شئ ثم ينظر الى شيخ الخفراء ويمصمص شفتيه فى أسى.

✿✿

المأمور



المأمور الليلة وسيكون كل شئ على ما يرام . وحضور البيه المأمور بنفسه الى قهوة الاشراف لزيارة المعلم غزال ليست بالشئ القليل ، ولكنه حدث له قيمة وسيكون له شأن فى مستقبل الأيام . فالبيه المأمور لاينتقل بسهولة الى أى انسان وهو فى دائرة عمله لاينتقل الى مخلوق ، بل انه يتمتع بنفوذ الملوك . وهو يستطيع أن يقول للشئ - أى شئ - جماد ، حيوان ، بنى آدم .. كن فيكون.

ولقد تعرف المعلم غزال على البيه المأمور فى السجن ، عندما كان المعلم غزال سجينا ، وكان البيه المأمور هو الحاكم العام خلف الأسوار ، وفى أول لقاء بين المأمور والمعلم غزال احتد المأمور على المعلم فأهانه ، وتكررت الاهانات بعد ذلك حتى بلغت الضرب ، وكان قاسيا فإذا اعتدى بالضرب على أحد تحول الى وحش مفترس، وكان أحيانا ينسى نفسه فيطبق بأصابعه على عنق السجين حتى يشرف على الموت وعندئذ يخلصه من المصير البشع ضباط السجن وعساكره ، وبدا من كثرة

تردده على زنزانة المعلم غزال انه يتعقبه ويتعمد اهانته . لذلك عمد المعلم غزال الى احناء رأسه أمام عاصفة المأمور حتى تمر ، كف عن الاستفزاز حتى ينجو بنفسه من شر عظيم ، ودرب نفسه على منافقة العساكر والضباط والمسجونين حتى لايعطى الفرصة للمأمور للتنكيل به . ونجحت خطة المعلم غزال ، وابتعد المأمور عنه شيئا فشيئا حتى نسيه تماما وأصبح المعلم غزال مجرد سجين عادى لا شأن له بالادارة ولا بالمأمور.

وكان المعلم غزال وسيما ورقيقا وابن بلد مجدع حقيقى ، التف حوله السجناء، فرحين بهذا النموذج النادر الذى يندر وجوده فى مثل هذا المكان .. ففى السجن حيث يتقاتل الرجال من أجل قطعة جبن ملوثة بالتراب ، وحيث يفقد الرجل عينه من أجل عقب سيجارة ، وحيث الحياة كئيبة وفى أقصى درجات الانحطاط. فى جو مثل هذا تصبح للأشياء التافهة قيمة عظيمة ، ويصبح الورق الملون وعلب الصفيح الفارغة والمزق المهلهلة من الثياب ، وبقايا علبة السجاير الفاخرة الطباعة من مقتنيات الشخص يحرص عليها أكثر من نفسه ويموت فى سبيلها كأنها الأرض والعرض والأولاد.

ولكن المعلم غزال لم يسمح لجو السجن أن يأكله ، كان كريما .. مايملكه ليس له ، نقوده يوزعها على الجميع ، وعلبة سجايره مفتوحة دائما ، والمأكولات التى تصله من الخارج لا يذوقها فى أغلب الأحيان ولكنها للأحبة والصحاب فى عنبره وفى كل العنابر . وأصبح المعلم غزال زعيما فى السجن رغم أنه لم يدخل السجن من قبل ، كلمته على المسجونين أوامر ، وشفاعته لديهم حكم، والسجان اذا أراد أن ينفذ أمرا استعان بالمعلم غزال وأصبح المعلم غزال حبيب كل مسجون ، حتى

الذين يخـرجـون افـراجـا الى دنيـا الحـرية ، كـان المعلم غـزال يزودهـم بالنقود وأحيانا يعينهم فى أشغال يحصلون منها على لقمة العيش.

ولكن لم تكد تمر شهور على هذا السلام الذى ينعم به المعلم غزال.. حتى أوقع نفسـه فى شـر أعمـاله . وصلته هدية من أحد أصدقـائه فى الخارج عشرة أقفاص خوخ معتبر ليس مثله فى الأسواق، فترك خمسة أقفاص للمساجين ، وأرسل خـمسة أقـفاص للبيـه المأمور. وسرعـان ما استدعاه المأمور الى المكتب، وكانت طريقة الاستدعاء تنبئ عن كيفية الاستقبال . فقد جاء عسكرى غليظ الى الزنزانة وجر المعلم غزال من قفاه الى مكتب البيه المأمور، وعلى الباب كانت جريمته تنتظره ، أقفاص الخوخ مرصوصة بعضـها فوق بعض لم تمس، وعسكرى المأمور واقف عند الباب مهندم وفى حالة انتباه، وانتظر المعلم غزال عند الباب ساعات حتى فرغ البيه المأمور من مشاغله، وعندما سمحوا له بالدخول ، كان المأمـور مـجـعوصـا فى الكرسى الدوار وعصـاه تنام أمـامـه فـوق المكتب وعيناه تقدحان شـررا وملامحه كلها تنذر بالشر.

وقال المأمور وعيناه مثبتتان على وجه المعلم غزال :

– ايه الخوخ ده يامسـجـون ؟

وتصـرف المعلم غـزال بلباقـة فـقـال وعـيناه تنتـقـلان بين المكتب والجدار.

– هدية ياسعادة البيه ، وزعت نصفـها على عنبر ٩ وأرسلت نصفها لسعادة البيه المأمـور ليوزعـها بمعـرفتـه على بقيـة العنابر .. وكل سنة وسيادتك طيب.

وقال المأمور بعد أن اعتدل فى جلسته :

– يعنى باعتها للمساجين ؟

- نعـــم .

قالها بسرعة وبهدوء كأنما الرد لايحتمل التأويل ولايقبل أى تفسير آخر. وقال المأمور وهو ينهض من مكانه ليقترب من المعلم غزال :

- أنا افتكرت حاجة تانية يعنى ...

- حاجة تانية ايه ياسعادة البيه .. استغفر الله .

ومد المأمور يده فتناول عصاه ولوح فى وجه المعلم غزال ، يأمره بالانصراف وجرى المعلم غزال وهو يحمد الله الذى نجاه من براثن المأمور ، فقد كان المطب الذى وقع فيه فرصة المأمور لتمزيق لحم وجهه لو أراد !

بات السجن وسكانه فى شدة السرور للرزق الذى هبط عليهم من حيث لايعلمون ، وأصبح المعلم غزال أشهر مسجون بسبب هدية الخوخ التى وزعها البيه المأمور بنفسه حتى يتأكد من أن المساواة قد تحققت والعدل يأخذ مجراه. ولم تمض أيام حتى استدعى البيه المأمور المعلم غزال واستقبله بابتسامة عريضة وسمح له بالجلوس وقدم له سيجارة وطلب له واحد شاى فى كوب زجاج من النوع نفسه الذى يشرب فيه البيه المأمور.

وسأله عن صنعته وعن تهمته فأجاب المعلم غزال إجابات سريعة بأنه من ذوى الأملاك فى الجيزة وصاحب قهوة الاشراف ويحتكم على عدة ألوف من الجنيهات وأربع سيارات تاكسى وانه ألفى ومبسوط والحمد لله . ودردش المأمور مع المعلم غزال وكانت لهجته حلوة وضحكته صافية وقلبه أبيض كاللبن الحليب . ولأول مرة يعرف المعلم غزال أن البيه المأمور اسمه راشد وانه قضى فى السجون أربعين عاما طويلة ، وأنه بدأ حياته من تحت السلاح ووصل الى آخر مايمكن

لرجل مثله أن يصل إليه ، وأنه رجل دوغرى وصل الى مكانه العالى بالصبر والمشى على الصراط المستقيم.

وتكررت المقابلات بين البيه المأمور والمعلم غزال وتوطدت الصلات بينهما أكثر، وأحيانا كثيرة كان البيه المأمور يسمح للمعلم غزال بالجلوس معه حتى بعد التمام ، وكان يتبحبح معه أكثر فيوصى العسكرى أن يترك بابه مفتوحا طول الليل ، وتحول السجن الى جنينه وأصبح المعلم غزال مأمور مساعد للسجن ، وأصبحت سهراته وقعداته مع المأمور حديث كل المسجونين ، ولآن المأمور القاسى المتجهم الذى لا يرحم أمه ، والذى كان يحكى ذكرياته للمعلم غزال فى زهو شديد ، وهو يشرح بالتفاصيل كيف كتم على أنفاس السجين فقتله ، وكيف ألقى بأخر من أخر دور ، وكيف ضرب بالكرباج ولد قاتل شديد البأس حتى قضى عليه ، ولكن هذه الحوادث كانت أيام الشباب وكان البيه المأمور لايزال شاويشا بعد ، قويا كالثور ، شديد البأس كمنترة ، وكان لايستفزه إلا القتلة والعيال المجدع فتوات زمان.

– تعرف انه فى يوم كنت فى سجن مصر ، الكلام ده كان قبل الحرب ، سنة ٣٥ يمكن ، وكان البيه المأمور انجليزى ، وجه السجن واد فتوة ضرب واحد بالروسية قتله ، كان واد زى الحديد ، كانت بزازه طالعة من صدره زى بنت ١٤ كان يمشى فى السجن زى ما يكون فيل ماشى .. وكان فى السجن واد عسكرى زى الحيطة كان كل السجن يخاف منه ، لكن الواد الفتوة ده خلاه مسخة فى السجن ، ضربه بضهر ايده على صدره خلاه طرش الدم .. تعرف عملت ايه ؟ .

وكان المأمور يسكت عند هذا الحد من القصة .. ثم يزوم كأنه ذئب ، ويهز رأسه هزات متتابعة رتيبة ويقول فى صوت خفيض :

- الغرض .. أيام ..

كان المأمور مفتونا بقوته ، شديد الاعجاب ببنيانه المتين ، والحق انه كان رجلا من طراز غريب ، كانت عظام ذراعه عريضة كأنها جريدة نخل.. وصدره أعرض من المكتب الذى يجلس عليه ، وشاربه مفتول بقوة كأنه جناح صقر وسمانة رجله منفوخة كأنها كرة قدم . وصوته يجلجل كأنه زئير أسد . وكان اذا سأل أحدا من معاونيه لايتوقع جوابا ، كان يسأل ويجيب فى الوقت نفسه ، وكانت أسئلته أوامر ، وأجوبته أوامر ، واشاراته وإيماءاته كلها قوانين ومراسيم ، وكان المعلم غزال اذا جلس معه لايعلق ولا يجيب ، كان يكتفى بالابتسام ويهز رأسه بين الحين والحين.

والحق أن المعلم غزال أحب البيه المأمور حبا لامزيد عليه . نحن مخطئون لأننا نحكم على الناس من الظاهر ، ولو اننا تمهلنا فى اصدار الأحكام على الناس وغصنا فى أعماقهم لتبين لنا العكس ، وهاهو البيه المأمور خير شاهد على صدق نظرية المعلم غزال ، لقد كرهه فى البداية، وصدق مايقال عنه فى الزنازين ، وأمن بكلام المساجين بلا روية وانقاد فى الطريق الخاطئ بلا وعى.

هؤلاء المساجين قطعا غشاشون ، ولو لم يكونوا كذلك ما كانوا هنا فى السجن .. والبيه المأمور معذور عندما يقسو ، الناس هنا يستحقون القسوة بعضهم مجرم حتى النخاع ، وحتى الطيبين منهم يتحولون داخل السجن الى ذئاب، ولولا عصا المأمور وقسوته لأنقلب الأمر هنا الى فوضى ، ولأصبح السجن غابة من الذئاب والفهود.

فى الشهور التى شهدت الصداقة المتينة بين المأمور والمعلم غزال ، تحول المعلم غزال شيئا فشيئا ، فأصبح لايخفى اشمئزازه من تصرفات المساجين ، بل وأصبح يدافع أحيانا عن تصرفات المأمور.

وهمس المساجين بحقيقة العلاقة بين المأمور والمعلم غزال ، وانتقل العمل من زنزانة إلى أخرى ومن عنبر إلى آخر ، وبدأت الجفوة بين المساجين والمعلم غزال تتسع ، ولكن المعلم غزال لم ينتبه الى هذا التغيير على الإطلاق. فلم يكن لديه الوقت للتفكير فى هذا الأمر . النهار بطوله عند المأمور ، وعندما يعود من المكتب يكون المساجين داخل الزنازين.. وخلال تلك الأيام عاد المعلم غزال الى حياته الأولى ، أكل مرة ملوخية بالأرانب مع البيه المأمور، وسمح له بطبق طرشى بلدى من سيدنا الحسين كان المعلم غزال يتمناه.

وذات مغربية والمعلم غزال يتأهب للخروج من مكتب المأمور الى الزنزانة قال المأمور وهو ينفخ صدره ويشفط كمية كبيرة من الهواء :

– المساجين بيسألوا ع الخوخ يا معلم غزال .

وقال المعلم غزال :

– أنا تحت أمرك ياسعادة البيه ..

وقا المأمور وهو يهز عصاه :

– ألف شكر يامعلم . عندك زيارة باكر ان شاء الله ، ابعت الخوخ على هذا العنوان.

جلس المعلم غزال فى الزنزالة طول الليل يتفرس العنوان المكتوب على الورقة التى دسها المأمور فى يده لحظة خروجه من المكتب «١٠ شارع كمال صدقى بالدقى» ولم ينم المعلم غزال حتى أشرق الصباح ، وكان اسمه فى مقدمة كشف الزيارة، ووقف من خلف الأسلاك يتحدث مع زائريه باضطراب ، ثم دس لهم الورقة من خلال الثقوب وقال كأنه يقرأ من كشف مكتوب :

– عشر صناديق خوخ ، وديكين رومى وصفيحة سمن بلدى معتبرة وخروف سمين وكام جوز فراخ فيومى.

وعندما انتهت الزيارة عاد الى زنزانته وأغلق على نفسه الباب ونام ، وعشرة أيام طويلة مضت بعد ذلك وهو يعانى من الاضطراب ، النوم أصبح أعز عليه من الافراج ، وأصبح قليل الأكل شديد الانطواء ، حتى حارس الليل الشاويش شاهين لم يعد يجد متعة فى الحديث اليه من خلال ثقب الباب، والبيه المأمور لم يعد يستدعيه ولم يعد يسأل فيه ، وطافت الظنون به وعذبته أى عذاب!

لابد أن أهله تهاونوا فى ارسال الهدية ، لابد أنهم ظنوا الأمر كله مزاحا ، أو ربما ضاعت منهم الورقة التى تحمل العنوان ، ولكن نفس المعلم غزال أصابها الاطمئنان ذات صباح ، كان فى حوش السجن يدور مع السجناء فى الطابور، وكان البيه المأمور يقف كالفهد على باب المكتب ، عصاه فى يده ، ونظارته السوداء على عينيه. وعندما لمح المعلم غزال لوح له بالعصا فتقدم المعلم غزال نحوه فى اضطراب.. وعندما اقترب منه قال المأمور فى اقتضاب:

– متشكرين ..

ولم يزد حرفا ، وعاد المعلم غزال الى الطابور ، ولكنه عاد منشرح الصدر قرير العين فقد وصلت الهدية بحمد الله الى بيت المأمور.

ولكن هذه المسألة لم تمر ببساطة ، ففى السجن كل شئ ينكشف بعد حين، هدية المعلم غزال أصبحت حديث السجن كله ، حتى السجانة اشتركوا مع المساجين فى الهمس والتأليف، وانتقل الهمس الى الضباط، وانتقل من الضباط الى المأمور، وأصبح السجانة أكثر ضراوة وأشد قسوة على المعلم غزال ، واذا كان المعلم غزال يدفع رشاوى فليس أحق بها من السجانة الفقراء .. واحتمل المعلم غزال الأذى واحتمل الاهمال .. فهو على استعداد للموت ولا يخسر البيه المأمور.

ولكن سلوك المأمور بعد ذلك كان غريبا وأمره عجيبا .. ازدادت الجفوة بينه وبين المعلم غزال .. حتى حمايته لم يعد يبسطها عليه ، ذات صباح كبس المأمور على الزنازين فى حملة تفتيش ، وعندما فتح السجان زنزانة المعلم غزال وقف المعلم «تمام» وكبست العساكر على الزنزانة وفتشوها ، وعثروا على ممنوعات كثيرة ، أمواس حلاقة ، وابور سبرتو، زجاجة جاز ، وامتدت أيدى العساكر تداعب قفا المعلم غزال ، كل ذلك جرى والبيه المأمور واقف كالصقر على باب الزنزانة يباشر العملية بهمة ويتفرج وكأنه لاعلاقة له بالمعلم غزال ، وعندما انتهى التفتيش والضرب شدوه من قفاه على التأديب ، وغاب هناك ثلاثة أسابيع.

وخلال الأسابيع الثلاثة لم يسأل عنه أحد ، لم يرسل له مسجون سيجارة ولم تصله حتة حلاوة ، ولا كوباية شاى ، وجلس يفكر فى هذا الانقلاب الذى حدث له فى السجن، فى البداية كانت زنزانته دائما عامرة بالمساجين ، يزورونه فى الصباح وفى الظهيرة، وكان بعضهم يقوم عنه بالعمل ، يغسل له الزنزانة، ويسخن له الطعام ، ويعد له الشاى ، كانوا يجلسون فى حلقة حوله يغنون له ويرقصون ، ومرض مرة فسرقوا له الدواء من مستشفى السجن ، وناموا الى جواره مخالفين الأوامر حتى لايبقى وحيدا فى الليل؟ ما الذى غير السجناء وجعل قلوبهم تقسو عليه؟

صحيح أنه لاحظ منذ بدأت علاقته تتوطد بالمأمور نفورًا من جانب السجناء ولكن هذا النفور لم يكن حادا مكشوفا ولكنه استطاع أن يحسه على أية حال. كانوا إذا جلس معهم لايتكلمون الا بقدر ولايعلقون على الأشياء الا باتزان ، وتحولت ضحكاتهم معه الى شئ

أجوف بلا رنين، وحتى السلام يلقونه عليه بصفة رسمية خاليا من الود والصفاء ، ومع ذلك لم يعر الأمر اهتماما فى البداية وعندما تطورت الأمور بعد ذلك الى عداء حقيقى لم يهتم على الاطلاق ، فهو على أية حال ليس من صنف هؤلاء الناس . فهم مجرمون اعتادوا حياة الاجرام وهم فى السجن ربما يتمتعون بحياة أطيب من التى كانوا يحبونها خارج الأسوار وهو اذا صادق المأمور فليس فى الأمر ما يحرج، فقد كان له فى الخارج أصدقاء كثيرون من هذا الطراز الممتاز، والسجن بالنسبة له ليس مستقرا كما هو بالنسبة للآخرين ، ولكنه جسر كتب عليه أن يعبره بسبب جريمة لم تكن على البال ، فقد كانت خناقة تقوم عشرات مثلها كل يوم ، ولكنها تطورت الى تماسك بالأيدى لم يكن يخطر على باله أن الأمر سيتطور الى هذا المدى البعيد ، فقد هوى بيومى ميتا ، ولاحول ولا قوة إلا بالله ، مصيبة وقعت على رأسه بسبب عيون الناس التى لاترحم ، وهو من أجل ذلك فى السجن وان كان الأمر كله لن يزيد على ثلاث سنوات.

على أية حال لقد مضت الأسابيع الثلاثة بطيئة مريرة ثم عاد الى الزنزانة ورغم أن عودة كل مسجون من التأديب الى الزنزانة تعتبر حدثا داخل السجن إلا أن عودته مرت دون احتفال ، فأغلق باب الزنزانة على نفسه وقاطع الجميع: المساجين والحراس .. ويوما بعد يوم اعتاد حياته الجديدة . ووجد متعة فى السجن الجديد الذى شيده داخل السجن ، وأصبح يطبق اللوائح على نفسه بدقة ولادقة السجان ، فلا أمواس حلاقة ، ولا وابور سبرتو ولازجاجة جاز . وحتى السجاير أقلع عن تدخينها والشاى كف عن شربه وراح يجتر أيامه فى السجن عازفا عن كل شئ حتى عن طابور الصباح .. ثم قرر أن يطلق لحيته وأصبح

يقضى الليل قائما يصلى ويذكر ربه بصوت عال أقلق راحة المساجين فى الليل ، وعندما ترامت الأنباء الى البيه المأمور عما أصاب المعلم غزال استدعاه ذات صباح ، وعندما وصلته الدعوة لم يفرح بها كعهده من قبل ، خرج مع العسكرى يتمتم باسم الله حتى وصل الى هناك .. ودهش المأمور لمنظره واستفسر عن سر اطلاق اللحية والهداية التى حلت عليه فجأة وبلا سابق انذار . وقال المعلم غزال وهو يخفض بصره الى الأرض:

– مفيش حاجة ياسعادة البيه .

– مفيش حاجة ازاى ، انت عامل احتجاج وإلا ايه ..

– ولا احتجاج ولا حاجة ياسعادة البيه .

– امال اشمعنى الدروشة ماحطتش عليك إلا من يوم مارحت التأديب؟ كنت فاهم أيه انت ؟ انك اشتريت السجن يعنى ، والا عشان ..

ولم يتم المأمور العبارة ، انهال بيده السمينة القوية على وجه المعلم غزال فبطوح به على الأرض، ثم ركله بقدمه ركلة قوية ألقت به خارج المكتب، ثم استدعى العسكرى الحلاق وأمره بأن يزيل لحية «الشيخ غزال » وأن يعيده مرة أخرى الى التأديب حتى يعود عقله الى رأسه من جديد.

وقضى شهرا فى زنزانة التأديب يفكر فيما حدث من المأمور ولماذا حدث؟ لقد كان صديقه فترة طويلة وكان بينهما عمار . ومن أجله خاصم السجن كله وقاطع المساجين كلهم .: وأرسل إليه فى البيت بما طلبه وأكثر. مسلك غريب لم يفهم مغزاه وموقف يحتاج إلى عشرة انبياء لكى يتولوا عنه عملية التفسير..

وذات صباح دق عليه باب الزنزانة طارق وامتدت له يد بعلبة سجاير، ولكنه رفضها برفق . وعندما امتدت فى اليوم التالى يد أخرى ببرطمان مربى ردها فى عنف . ثم وقف يصرخ فى الزنزانة كالمجنون .

– كلكو شمتانين فيه ، شمتانين فيه ، يامجرمين ياولاد الكلب .

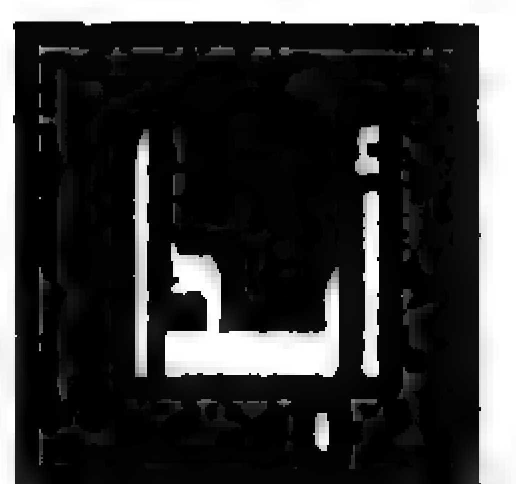
وجذب صراخه العساكر فأشبعوه ضربا حتى هدأ ثم انقلب على جنبه ونام. ثم جاء الفرج بعد ذلك ، وجاه الافراج، وخرج من باب السجن فى حراسة مشددة الى الدنيا الواسعة حيث لايوجد وحوش مثل هؤلاء المساجين والسجانة أيضا من نفس طبقة المساجين ، وحوش فى ملابس رسمية .. ولكن البيه المأمور سيظل صديقه رغم كل شئ. وهذه الليلة ستكون آخر مزاج.. سيحضر البيه المأمور، وسيعرف مقام المعلم غزال فى دنيا الحرية. ربما أخطأ فهم هذه الحقيقة خلف الأسوار. وستكون وليمة ولاعزومة فى بلاط الرشيد ، وسيحضر كل الخلان ليروا البيه المأمور بنفسه جالسا مع المعلم غزال وقد يحاول المأمور الاعتذار عما بدر منه.

ولكن المعلم غزال لن يقبل أى اعتذار ولن يعطيه الفرصة لذلك فما فات قد مات . والمهم اللحظة التى نحن فيها ، وهو اذا كان مأمورا إلا إن المعلم غزال رجل ألفى وله شنة ورنة وله سلطان فى الجيزة يفوّق سلطان البيه المأمور فى الليمان ، والأضواء باهرة والدنيا حر والمعازيم تتحرك أشباحها على الجدران ولكن هناك صمتا مريعا ، لا أحد يتكلم معه ، لا أحد يتحدث إليه ، كأنما المعازيم مساجين تعقبوه من الليمان الى الحياة .

وصرخ المعلم غزال صرخة مدوية ثم سقط على الأرض مغشيا عليه وقد طبق الظلام على كل شئ. لم يكن المسكين يدرك أنه غادر السجن منذ شهور طويلة الى مستشفى المجانيب..

✿✿

العبقرى



... ليس فهمى عبيد كالآخرين !

فالحياة ليست وظيفة ومواعيد مضبوطة وزوجة تنام فى حضنها طول الليل وفلوس معلومة والأولاد تزهق الشيطان وتقصر العمر! الحياة مخ وتفكير واختراع وحرب لاتنتهى وقفز فوق كل العوائق واجتياز لكل الحواجز والسباحة بعزم من حديد مع التيار أحيانا وضد التيار أحيانا .. ولكى تبلغ الغاية لابد من الصبر ومضغ الشوك اذا اقتضى الأمر ، المهم أن يصنع المخلوق شيئا عظيما وإلا فإنه لم يخلق على الإطلاق.

ولذلك عندما خرج فهمى عبيد من مدرسة الصنايع قبل أن يحصل منها على شهادة ، وقف فى دكان والده الحاج عبيد وفى يده مروحة من ريش الفراخ يهش بها الذباب من على وجه الزبون ثم يمد يده بعد الحلاقة ويقبض بها فى صمت على القرش صاغ اذا كان الزبون ثريا ،

وعلى قرش تعريفة اذا كان الزبون من الحتة ، وعلى الهواء إذا كان الزبون خاوى الوفاض مثل رأس الحاج عبيد أبوه!

واذا كان ثمة مثل حى للتناقض فى الوجود فليس أدل على هذا المثل من الحاج عبيد وابنه ، فمنذ أربعين عاما والحاج عبيد فى هذا الدكان، شاخت جدرانه وطقطق بياضه ، انخلع بلاطه ، وتقوس بابه فلم يعد ينغلق ولا ينفتح إلا بعد مصارعة عنيفة تستغرق ساعات كل صباح وكل مساء .. ومع ذلك فالحاج عبيد مبسوط فرحان . وهو يحمد ربه على نعماته ، ويتمنى لو استمر الحال على هذا المنوال الى أن يلقى ربه فى هدوء .. ولكن الواد فهمى لايعشق هذا الطراز من الحياة . وأبوه الحاج عبيد ميت من زمان، وهذا الدكان قبره، وهؤلاء الزبائن كأنهم زوار هذا القبر المهجور ، وعام بعد عام يتناقص عددهم باستمرار ، وسيأتى يوم قرب لا يجد فيه الحاج عبيد ما يأكله وسيموت مكانه وقد يتحول الى طعام للقطط والكلاب.

ولكن فهمى عبيد لن يترك أباه يتردى فى تلك النهاية ، سيصارع من أجل أن يطفو على السطح ، وسيكسب آلاف الجنيهات ، فهو يحس احساسا عميقا نابعا من أعماق نفسه انه خلق لكى يكون فوق القمة، وأنه ولد ومعه كل أدوات النجاح والوصول الى المكان الذى يريد . وذات صباح اختفى فهمى من الدكان ، طاف فى شوارع السويس يبحث عن عمل جديد . ولكن البحث قاده فى النهاية الى دكان حلاق .. صحيح أنظف من دكان أبيه وصحيح أن الحى هذا أفخر وأغنى، والشارع هنا انظف وألمع ، والزباين هنا أغنى وأوجه وعطر يفوح من داخل المحل ، ومراوح فى السقف ومرايات على الحيطان وأسطوات فى ملابس دكاترة

وزجاجات أشكال على ألوان كأنه صيدلية ، وهو لايهش على الناس هنا بمروحة من ريش الفراخ ولكن مروحته هنا من ريش النعام وأصابعه تمتد للزبون لتقبض أحيانا على نص افرنك وأحيانا على شلن كامل ولكن المصيبة ان ما يحصل عليه هنا أقل مما كان يحصل عليه عند أبيه.. لقد كان فى دكان أبيه هو الأوحد وكل الأموال السائلة هناك تصب فى جيبه ، ولكن هنا الأمر يختلف ، جميع الذين يعملون هنا يشتركون فى البقشيش ، الاسطوات يدخلون القسمة براجل وأنصاف الاسطوات يدخلون القسمة بنصف راجل والصبيان يدخلون القسمة بربع راجل ، حصيلته آخر النهار نص فرنك لايزيد وهجر الدكان وعاد لدكان أبيه وفى المساء كان يجلس وحيدا فى ميناء السويس ينظر فى أسى شديد الى السفن المارة من بعيد ، ويحلم بسفينة من هذه السفن الكبيرة تضربها الرياح فتجنح الى الساحل ، وتأخذه الى الشاطئ الآخر البعيد .. ولكن سفينة واحدة لم تقترب من الشاطئ، وجنية واحدة لم تظهر من أعماق الماء لتعشقه وتخطفه لتحقق له ما يريد ، سنوات طويلة مضت وفهمى عبيد أصبح فى العشرين والأسوار التى من حوله تزداد ارتفاعا ، ولكنه رغم ذلك كان مطمئنا الى أنه سيحطم هذه الأسوار أو يتسلقها يوما ما .. وكان فهمى على حق .. انفجرت الحرب العالمية فجأة ، وتدفق على السويس خلق كثيرون واجناس شتى ، وأصبح فى كل ركن كامب يضيق بالجنود ، ومخزن يكتظ بكل شيء، والفلوس تتلاطم فى أيدى الناس.. كما تتلاطم أمواج البحر عند رصيف ميناء بور توفيق، واشتغل فهمى بوابا على كامب، فترة ليست طويلة ولكنها أتاحت له مبلغا من المال بدأ حياته كمقاول معتمد للجيش..

والجيش الانجليزى حمار ليس فيه ربط ولازبط، الشاويش الانجليزى يتسلم مائة بيضة ويوقع على ألف ويأخذ ألف رغيف ويمضى على عشرة آلاف. والفلوس تجرى الآن بين يديه كما تجرى سيارات الانجليز على طريق المعاهدة، نظرية فهمى اذن صحيحة والحياة مخ وتفكير واختراع، وكل شىء ممكن وكل شىء يجوز، ولكن أصدقاء الصبا الذين نجحوا فى مدرسة الصنايع لايزالون يجلسون على المقهى يلعبون الطاولة كل مساء ، وابوه لايزال فى الدكان ، وصبيان الحلاق الكبير لايزالون يهشون الذباب بمراوح من ريش النعام.. ومضى فهمى يمتص حياته حتى النخاع . والفلوس التى لاتنزه صاحبها ليس لها لزوم .. والحياة مخ وتكفير ولكنها أيضا متعة وانبساط.. وليس أمتع فى الحياة من كازينو بديعة ، والبنات هناك ماركات كسيارات الركوب ، وكل واحدة لها شكل وكل واحدة لها لون ، والدنيا أيضا حظوظ ، وحظ فهمى مع قدرية ، وكل واحد برزقه ورزق قدرية وفير .. وقدرية حلوة وصغيرة وفمها دائما يضحك ، ودمها خفيف كأنها سمكة بلطية، ولو كان فهمى من النوع الذى يتزوج لكانت قدرية زوجته ، ولكنه لايتزوج ولايرتبط بأحد، ولكى تنجح لابد أن تكون وحدك ، لكى ترفرف كالعصفور فلا تربط عنقك بحجر ثقيل يمنعك عن الطيران ، ولكن الشيطان شاطر ، وقدرية حملت ، وداخت وداخ معها فهمى لتسقط حملها دون جدوى . كأنها حملت فى حجر يأبى أن يتدحرج من بطنها ، كأنه قرد يقبض على مصارينها بأظافر من حديد ، كارثة صحيح . ولكن الفلوس كفيلة بحل كل الكوارث ، المولود بنت .. الخالق الناطق شبه أبوها وفى نعومة أمها .. وفهمى مهما كان الأمر ليس نذلا ، تزوج قدرية بورقة ، وكتب البنت الصغيرة بأسمه ، وسماها سعاد ، فقد

جاءت وهو فى قمة سعده، ثم طلق الأم ومنحها مبلغا من المال وبشرط أن تحتفظ بسعاد ، وافترقا رسميا وان ظلت الصلة قائمة بينهما كالمعتاد وفجأة .. هوى نبأ كالصاعقة سحق قلب فهمى وهد قواه .. فقد توقفت الحرب فجأة ، ولم يعد هناك مزيد من الفلوس .. المعسكرات أقفرت والمخازن جفت ، والدنيا تشقلبت حالها كأن القيامة على الأبواب، وعاد فهمى الى شوارع السويس يتسكع أول النهار ، ويقضى أخره عند دكان الحاج عبيد ، ولكنه لم يعد يمسك بالمروحة الساعات الطويلة يقضيها جالسا على كرسى قش أمام الدكان ، يحملق فى الشارع فى ذهول ، ويمد يده أخر الليل يتناول من أبيه ثمن الدخان ، والرجل العجوز لم يسأله أين كان ولماذا جاء ؟ كان يسمع أن أبنه فى رغد من العيش وكان يفرح لهذا كثيرا ، ثم رآه فجأة ذات صباح على باب الدكان، وأدرك أن ابنه صادفه سوء الحظ ، وأن الحياة هذا شأنها منذ الأزل تصفو حينا ، تتجهم حينا ، والعاقل من لايفره الثراء ولايفزعه الفقر.

وهاهى السنوات تمضى وفهمى مكانه على باب الدكان ، ليس معه من أيام العز إلا بطاقة قيمة .. فهمى عبيد مقاول ومتعهد.. أين هى العهدة وأين هى المقاولة ؟ لم يعد هناك شىء إلا الدكان والقروش القليلة التى يد سها أبوه فى يده كل مساء .. ولكن ها هى الأيام تبتسم من جديد ، الحكومة ألغت المعاهدة.. وفى السويس طلبة يطلقون النار على الانجليز ، وعمال يؤلفون كتائب، وصياع يحملون السلاح، وغشاشون انتهزوا فرصة المعركة وارتدوا ملابس الميدان وليس أعظم من فهمى يعرف معسكرات الانجليز ومخابئهم فى القناة ، ليس أعظم من فهمى مستشارا لكتيبة نصفها صياع ونصفها نصابون ، وفى تلك الأيام

التقيت بفهمى فى السويس ، فى مقر كتيبة الفداء ، وكان فهمى وقتئذ مستشارا يضع الخطط التى لم تنفذ قط ، ويتولى الحرب التى لم تبدأ على الإطلاق.

وذات مساء كان فهمى يجلس مطرقا فى مقر الكتيبة ، حزينا صامتا مهموما ينكش أسنانه المسوسة بعود كبريت التقطه من الأرض، وعندما سألته عن سر همومه قال فى هدوء شديد:

– ابدا أنا بس بفكر فى المستقبل ..

– الكتيبة مش عندها سلاح وذخيرة ؟

– وأنا مالى ومال الكتيبة ماتندعق ، أنا قصدى ...

– قصدك ايه ؟

– قصدى مستقبلى ..

– المستقبل بتاع ربنا يفهمى..

– أى نعم .. لكن برضه ....

وكان الدم قد سال من أسنانه فألقى بعود الكبريت غاضبا ، وقال وهو يمسح الدم بأصابعه :

– افرض انا قدرت أطلع الانجليز من القناة ، الحكومة تدينى مليون جنيه ؟

– انت هتطلعهم لوحدك؟

– بقول يعنى .

– ياسيدى طلعهم وهمه يدوك عشرة ملايين ..

- تفتكر ...

- طبعا .

وصمت فهمى قليلا ، وبدا كأنه يفكر بعمق فى موضوع يقلقه ، ثم أستاذن وانصرف وعاد بعد أيام ومعه مشروع كامل أطلعنى عليه .

- مفيش حل غير كده ، خلينى بس أقابل رئيس الوزراء ، وأنا أكلمه، همه يدونى العشرة ملايين جنيه وماحدش له دعوة ، أنا هشترى قنبلة ذرية بسبعة ملايين جنيه أرميها ع الانجليز فى القناة وأنا ألهف الباقى.

وعندما افهمته ان مشروعه خرافى ولايمكن تحقيقه ، قال فى ضجر :

- أنت مالك ، خلينى أقابل رئيس الوزارة ومالكش دعوة ..

كان فهمى يعتقد اننى صاحب نفوذ ، وان نفوذى يمتد الى حد استدعاء رئيس الوزراء فى أى وقت يشاء وأى مكان يريد ، ولذلك بدا له فى الأيام التى تلت الحديث حول المشروع اننى أراوغه واننى حاقد عليه، وخطر له أحيانا اننى أضغط عليه كى أساومه ، وذات مساء كنت فى مقر الكتيبة وحدى حين دخل فهمى ومعه كراس من النوع الذى يستعمله تلاميد المدارس وفى هذا الكراس كل تفاصيل المشروع من أول السفر لأمريكا ، والاتصال بوزير الحربية الأمريكية وشراء القنبلة الذرية ، حتى الفندق الذى سينزل فيه لم ينس فهمى ذكره .

وعندما سألته متهكما :

- واشمعنى فندق والدرف استوريا .

رد فهمى مرتبكا ..

- بلاش .. أى فندق على كيفك ..

وبعد أن انتهى من شرح مشروعه بالتفصيل قال وهو يضغط على فخذه بأصابعه :

- وعلى العموم أهى لقمة نأكلها سوا ..

- يعنى ايه يافهمى مش فاهم ؟ .

- ولاحاجة .. ربنا هيسهلنا بثلاثة ملايين .. انت تاخد نص مليون وأنا الباقى .. بس انت تخلينى أقابل رئيس الوزارة.

ورغم هذا العرض السخى من فهمى إلا أننى لم أتحرك خطوة واحدة فى طريق اللقاء المنتظر بين فهمى ورئيس الوزارة ، واذ انتابه اليأس منى حمل فهمى كراسته وراح يطوف بها على دور الصحف عارضا مشروعه على المسئولين فيها متوهما أنه سيحدث هزة ليس لها مثيل فى التاريخ.

وأصيب فهمى بخيبة أمل شديدة لأعراض دور الصحف عن المشروع.. وعاد الى السويس والحزن يملأ قلبه واستقال من وظيفته الشرفية كمستشار لكتيبة الفداء .. وعاد الى دكانه يجلس أمامه طول النهار لاعنا هذا البلد الغبى الذى لايريد أن يستقل.

وخلال الأيام التى أعقبت استقالته من الكتيبة ازدادت ثورته على كل شىء وعندما التقينا مصادفة فى الطريق ، قال وهو يشيح بيده فى وجهى:

– وحياة ربنا لو الانجليز دخلت السويس لأخذهم بالحضن.. عشان دى بلد تستأهل الحرق ، وعندما دعوته للعودة الى مكانه فى الكتيبة قال وهو ينتفض من شدة الغيظ.

– ياعم بلا كتيبة بلا زفت .. هى دى كتايب دى .. دا نصب .. دول عالم كلهم حرامية .

– طيب انت مش كنت مستشار عندهم .

– ياعم مستشار ايه وبتاع ايه .. ع العموم أنا استفدت من التجربة.. أنا هاعمل كتاب أكشف فيه حقيقة الكتايب دى للرأى العام.

وصمت فهمى قليلا ثم قال :

– بس أنت بقى تشوف لى ناشر يطبع لى الكتاب ده وعلى فكرة .. هم بيدفعوا كام ..

– ميت جنيه .

وبدت الدهشـــة على وجه فـهمى وقـال وهو ينظر نحـوى نظرات متســـائلة :

– ميت جنيه .. ميت جنيه ايه .. دنا فاهم بيدفعوا ميت ألف .. خمسين ألف.

– حيلك حيلك .. الكتاب كله مابيبعش ألف نسخة يافهمى.

– مين قال لك كده .. كتاب زى ده مابيعش أقل من مليون نسخة .. أنا هاقول فيه أسرار خطيرة جدا .. بس انت شوف لى ناشر وأنا هتكلم معاه.

ومرت أيام طويلة بعد ذلك ولم تجمعنى المصادفة بفهمى .. وكدت انسى أمره فى غمار الأحداث التى وقعت بعد ذلك .. خيم الظلام على

منطقة القناة ذات مساء والأنباء تتناثر هنا وهناك ان حريقا رهيبا مروعا أكل القاهرة وان الرصاص يئز فى الفضاء والجثث بالأكوام فى الشوارع واللصوص يخطفون البضائع من المحلات ورجال البوليس يخطفون الرجال من البيوت وان الأمر عاد الى الانجليز من جديد . وفى الصباح تحققت الإشائعات .. كبس البوليس فى السويس على البيوت وخطف الرجال والسلاح .. ولفظت المعركة أنفاسها واختفى من الميدان الفدائيون واللصوص معا ، واضطررت الى السفر خلسة فى الليل من السويس الى القاهرة تاركا ورائى أشلاء معركة كانت حية نابضة حتى الأمس .

وران على مصر فترة من الظلام أسود من قرن الخروب . وذات صباح انقلبت مصر رأسا على عقب ، تحرك الجيش وقامت الثورة وعادت الألسنة تلوك معركة القناة من جديد ، وعادت الأقلام تخوض فى بحرها ، وذات مساء جاءنى فهمى عبيد الى الجريدة وصافحنى بحرارة وجلس صامتا يحتسى فنجان الشاى ويلقى نظرات خاطفة على صفحات كراس قديم يحمله .. وعندما سألته عن الأحوال أجابنى فى سرور بأن الأحوال عال وكل شىء على ما يرام وهمس فى أذنى بأن لديه مشروعا سيحدث هزة فى العالم ليس لها مثيل ، وقلت له مازحا :

– إياك مشروع القنبلة الذرية ..

– لا أبداً .. أنا كاتب مذكرات هتعمل هزة .. أسرار معركة القناة..

وأطلعنى على الكراسة التى معه .. كانت الكراسة تحوى فصولا شيقة بلا جدال عن أسرار كتيبة الفداء ، كيف تكونت ، كيف حاربت ، كيف انتصرت ، التكتيك الذى عليه فى المعارك الطاحنة ، كيف عاملت

الأسرى الانجليز الذين وقعوا فى قبضتها ، كيف استشهد أبطالها فردا بعد الآخر ، وكيف انفتحت لهم أوسع أبواب التاريخ ، وقائع مذهلة لم يحدث شىء منها على الاطلاق .. وكان يمكن لفهمى أن يطلع أحدا غيرى عليها ، فربما اقتنع.

نظرت الى فهمى نظرة طويلة وقلت وأنا ألوح بالكراسة فى يدى :

– كلام ايه الفارغ ده يافهمى .. بقى كتيبة الفداء اللى كانوا كلهم حرامية عاملهم أبطال .. ومعارك ايه ياراجل انت .. بقى بذمتك حصلت معارك.

– ماحصلش .. لكن الجو عاوز كده .. وع العموم دى هتعمل هزة.. المهم أنشرها مسلسلة فى الجريدة .. بس بشرط تنشروا صورتى وتكتبوا تحتها ، فهمى عبيد مستشار الكتيبة ، وتدفعوا لنا ألف جنيه .

وقلت لفهمى انه لايمكن نشر مثل هذه المذكرات الكاذبة ، لأن معركة القناة حدثت منذ أشهر قليلة ماضية ، وجميع القراء عاصروها وعرفوا أحداثها ولا يمكن نشر مثل هذه المذكرات إلا فى القرون القادمة فقد تجد من يصدقها..

وبان القرف على وجه فهمى وخطف الكراسة من يدى وقال فى صوت خفيض:

– لا منك ولا كفاية شرك .. وع العموم بكره نشوف .. أنا هانشرها ..

وقلت لفهمى وأنا أهدىء من ثورته :

– انت اشتغلت والا لسه ..

– لا .. ما باشتغلش ..

– طب ماتشتغل ..

– ايدى على كتفك ..

– تعالى وأنا أشغلك بكره ..

– فين ؟

– فى الحكومة .. أنا أعرف وزير الشئون الاجتماعية وهقوله انك انت كنت من عمال القناة ويشغلوك على طول ..

– بكام .

– عشرين جنيه أول تعيين .

– عشرين جنيه .. وأعمل بيهم ايه دول .. أشرب بيهم سجاير ..

– أحسن من مفيش ..

– لا .. مفيش أحسن .. وع العموم أنا كنت بكسب العشرين جنيه دول فى دقيقة ..

– امتى الكلام ده ؟

– أيام ما كنت متعهدا فى الجيش الانجليزى.

– طب دى أيام كان لها ظروف وراحت يافهمى..

– مفيش حاجة اسمها راحت.. الجايات أكثر من الرايحات .. سلام عليكم.

وانصرف فهمى غاضبا ، ولم أره بعد ذلك .. قاطعنى تماما. وكنت أنا أتحسس أخباره كلما سافرت الى السويس ، كانت أخباره دائما لاتسر .. ومرت خمس سنوات طويلة ثم جاء فهمى لكنه لم يكن فهمى الذى أعرفه ازداد نحولا وشحوبا وتساقط شعر رأسه وانحنى ظهره وبدا بلحيته النابتة وقميصه المتسخ كأنه عائد للتو من رحلة فى

الصـحراء ، ورحبت به كثـيرا ، وجلسنا نتسامـر ، وكان يشـاركني في الحديث بنكت بايخه ، وضـحكات فاترة ، وفجـأة اعتدل في جلسته وقال في اهتمام شـديد :

– أنا جيلك في مشـروع رهيب جدا .. البلد بتاعتنا دي مش فاهمـة أي حـاجـة عـمـال تعـمـل مـصـانـع .. وتصلح في أرض ، ودي حـاجـات مـاتجبش فلوس .. أنا عندي مـشـروع يكسب دهب نشـتـري كام ناقلة بترول .. تعرف الناقـلة بتأخذ كام في الرحلة الواحدة .. مـيت ألف جنيه عملة صـعبة والنـاقلة كلها بمليون جنيه .. يعني عشـر رحلات يـجيبوا حقها ..والباقي يبقى مكسـب .. وأنا بصـراحة عاوز أعمل المشروع ده .. نعـمل أسـهم .. والسـهـم بألـف جنيـه .. ونشـتـري ناقلة وأنـا أبقى المدير بتـاعـها .. والسـهـم ده هـيكسـب ألـف جـنيه في بـحر سنة وأنا أخـذ سـهـم واخد مـرتب .. أعمل مـيتين وخـمسـسـين جنيـه لنفسـي في الشـهـر .. لما تكسب قوي .. نجيب واحدة تانية .. وكمان واحدة .. وكمان واحدة..

ولم أشـا أن أصـدم فـهـمـي في أحـلامـه فـأثـنيت على المشـروع ثناء عظيما، وأبـديت اعـجـابي الشـديد بعقـليته الاقتصـادية الرائعة وتمنيت له النجاح وغـادرني فهـمـي تلك الليلة مسـرورا وعاد مرة أخـري بعد شـهـر ولكن بمشروع جديد.

– تعرف السمك بتاع البحر الأحمر ..

– ماله ..

بيـتبـاع في بيروت الكيلو بجنيه .. يعني احنا نشـتري لنش تجاري فيه ثلاجة ونصطاد سـمك من البحر الأحمر ونسافر ونبيعه في بيروت تعـرف نبـيع بكام في الرحـلة الواحـدة .. بعشـر تلاف جنيـه واحنا مش

هنكلف كثير.. هنجيب كام واد صياد م السويس نديهم عليى قفاهم .. وكل واحد ياخذ له جنيه فى اليوم وهم اللى يصطادوا ويسوقوا اللنش.. واحنا نقعد زى البهوات .. نسافر بيروت .. نبيع ونرجع ..

– مشروع عظيم خالص ..

– يعنى عاجبك ..

– قوى ..

وصافحنى فهمى بحرارة وانصرف مبتهجا .. وعاد مرة أخرى بعد أسابيع ولكن بمشروع جديد..

– تعرف الميناء بتاع السويس ..

– أيوه ..

– فيه كنوز بملايين الجنيهات .. أيام الحرب غرق فى الميناء دى ييجى ميت سفينة .. ولسه غارقانين لحد الوقت .. احنا نعمل شركة لانتشال السفن الغارقة .. ومش محتاجين حاجة .. نجيب كام واد غطاس م السويس نديهم على قفاهم ونطلع السفن دى .. هتلاقى كل حاجة .. دهب حتلاقى .. فلوس هتلاقى .. حديد هنبيع .. مكاتب راديوها .. سراير .. كل حاجة تعرف تكسب كام العملية دى .. ألف جنيه كل يوم يعنى ثلاثين ألف جنيه فى الشهر .. ايه رأيك فى المشروع ده ..

– عظيم جدا ..

– أهو المشروع ده .. متوقف عليك انت ..

– ازاى بقى ..

– نجيب تصريح م الحكومة ..

– طيب ان شاء الله ..

- صحيح ..

- بأذن الله ..

- طيب سلام عليكم..

وصافحنى فهمى مسرورا وانصرف .. ونسيته تماما ونسيت مشروعه حتى هبط على ذات مساء فتذكرت ، وجلست معه أفكر فى طريقة مناسبة للاعتذار ولكنه لم يترك أى فرصة للحديث ، بادرنى على الفور بمشروع جديد .

- أهو ده مشروع بقى .. مفيش زيه ..

- مشروع ايه يافهمى ..

- شركة النور للسياحة ..

- هنعمل شركة سياحة يعنى .

- آه .. بس جديدة .. بقى فيه سفن بتيجى م الشرق الأقصى وتبات فى السويس وتقوم الصبح تروح على بورسعيد ويقعد اتناشر ساعة فى القنال بدل الركاب بتوع المراكب دى ما يزهقوا احنا ناخدهم فى عربيات نفرجهم ع القاهرة والآثار ونبيتهم هنا ونطلعهم على بورسعيد يأخدوا المركب بتاعتهم من هناك .. كل سائح يدفع خمسة جنيهات عملة صعبة كل يوم ناخد خمسين سايح فى خمسة بميتين وخمسين جنيه .. يعنى سبعة تلاف وخمسميت جنيه فى الشهر عملة صعبة ومش هنكلف حاجة . بس عاوزين عشر عربيات مرسيدس ونجيب كام عيل سواق م السويس نديهم على قفاهم وواحد ترجمان نرميله جنيه فى اليوم والا حاجة وكان الله بالسر عليم .. ايه رأيك ..

- مشروع عظيم قوى ..

- صحيح ..

- أيوه صحيح ..

- طيب شد حيلك بقى معانا ..

وصافحني فهمي مسرورا وانصرف .. وغاب هذه المرة طويلا .. حتى خيل إلى أنه نفذ فعلا مشروعه واستراح ولكنه عاد بعد ذلك بأشهر طويلة وقد ازداد نحوله وازداد سعاله وبدا عجوزا أكبر من عمره بعشر سنوات ، وبدت عيناه مجهدتين كأنه لم ينم منذ فترة طويلة ، وقميصه متآكل الأكمام وحذاؤه مضروب ومبطوح وكالح اللون، وكان معه مشروع جديد .

- عارف السرديا .

- لا مش عارف ..

- دا نوع م الحيوانات البحرية فى البحر الأحمر .. لذيذ قوى انما الناس الذوات مابيردوش ياكلوه عشان شكله وسخ والبياعين بيقدموه بطريقة وسخة انما احنا لو قدمناه بطريقة نضيفة .. نقدر نبيع منه مليون علبة كل أسبوع .. ومش محتاجين حاجة .. نجيب كام عيل صياد م السويس ونديهم على قفاهم وعاوزين شوية علب كرتون وواد موظف يتصل بالمحلات واللوكاندات الكبيرة وكان الله بالسر عليم .. تعرف فيها مكسب قد ايه .. عشر تلاف جنيه كل شهر .

وأنا بدأت المشروع فعلا ..

وانتزع من لفافة كانت فى يده علبة كرتون صغيرة وقال وهو يقدمها لى :

- أهو الصنف أهه .. ابقى دوقه وقوللى رأيك وع العموم أنا فت على جروبى ولاباس النهارده ، وطلب كل واحد عشرين دستة .. وفكر انت فى المشروع ده واحنا هنعمل عمل كبير باذن الله .

وترك فهمى العلبة وانصرف ، كان فى العلبة خليط من شرائح لحم لاتستطيع أن تحدد أصلها ، لها رائحة خبيثة كأنها رائحة فار معفن ميت منذ عشرة أيام ، كالحة السواد كأنها جلد فيل مفروم ، وألقيت بالعلبة فى صفيحة الزبالة ونسيت فهمى ومشروعه ، ولكنه سرعان ماعاد وفى هذه المرة كان بالقميص والبنطلون فقط رغم أن البرد فى الخارج لايحتمل ، وجلس أمامى مقوسا كأنه عجينه التوت بفعل خباز ماهر ، قال وهو شديد الانكسار.

– ماحدش رضى ياخد م العلب .. مفيش حد بيقدر فى البلد دى ..

وقلت لفهمى لتهدئته :

– ماهو انت لازم تشوف شغلة ثابتة وبعدين تفكر فى المشاريع دى.. انت عارف الناس اللى اشتغلوا أيام القنال بياخدوا كام الوقت .. خمسين جنيه وستين جنيه .. يعنى انت لو كنت طاوعتنى واشتغلت

وقاطعنى فهمى بمنتهى الغضب.

– ياراجل بلاش فقر .. الواحد يهج م البلد دى أحسن وع العموم أنا عندى مشروع تانى .. بس مش هاكشفه دلوقت سلام عليكم.

ومضى فهمى سريعا واختفى هذه المرة ، انقطعت عنى أخباره فلم أعد أعرف عنه شيئا ، وخيل إلى أنه نفذ مشروعه وطفش من السويس خلسة على ظهر مركب متجولة ، وأحيانا كان يطوف بخاطرى انه مات جوعا بعد أن فقد الرجل الوحيد فى هذا العالم الذى كان يعطف عليه ، أبوه .. الأسطى عبيد . صاحب محل الحلاقة .. ولكن ظنونى خابت كلها فجأة .. وقد رأيت فهمى ذات صباح متورد الخدين شديد الأناقة على عينيه نظارة مذهبة يقود عربة فارهة وعندما رآنى ركن عربته برشاقة وأقبل نحوى يضمنى إليه بحرارة ، ولكنه رغم التورد والثراء كان يبدو شديد القلق ، حديثه مضطرب وأفكار شاردة وانصرف

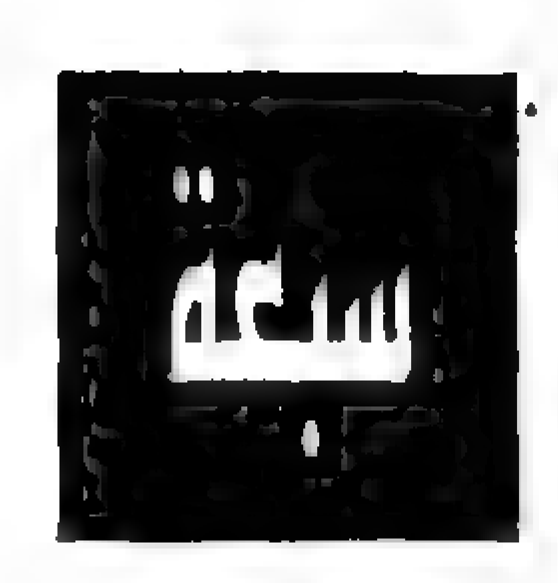
سريعا وقد اتفق معى على لقاء ، ولكنه لم يعد واستفزنى منه هذا التصرف الغريب فرحت أبحث عن السر الذى نقل فهمى هذا الانتقال المفاجئ السريع .. وسرعان ما اكتشفت السر .. هل تذكرون قدرية .. البنت الرقاصة التي عاشرها أيام العز ، والتى أنجب منها طفلة اسمها سعاد ثم هجرها بعد ذلك وانشغل فى همومه وأحلامه.

كانت هى الأخرى تسير مع فهمى فى خط واحد انتهت الحرب ولفظتها الملاهى ولكنها وجدت لنفسها مكانا فى الافراح والليالى الملاح ترقص شبه عارية كل ليلة أمام جمهور من الصبية ، والعجائز وتتلقى بصدرها وهى تثنى أوراقا صغيرة ملونة من فئة العشرة قروش وأحيانا من فئة الربع جنيه .. ولكنها استطاعت من هذه الأوراق الصغيرة أن تجمع ثروة وأن تقيم منزلا .. واعتزلت الرقص لتتفرغ لمهنة أخرى أسهل أداء وأوفر مالا تحولت الراقصة القديمة الى قوادة وأصبحت تشرف على العشرات من راقصات الحرب القدامى.

ونجحت قدرية نجاحا منقطع النظير ولكنها لم تهدأ فى البحث عن زوج وجربت كثيرين وفشلت ثم التقت مصادفة بفهمى فى الطريق ، كانت هى فى عربتها الفارهة وهو فى هيئته الزرية وذقنه النابتة وكراسة مشاريعه . وعنما دفن نفسه الى جوار قدرية فى السيارة أحس براحة شديدة ربما لأول مرة منذ أعوام طويلة وبات تلك الليلة معها فى فيللتها الأنيقة ولم يخرج منها بعد ذلك عاد زوجا لقدرية وأصبحت كل مشاريعها تدار باسمه وان كان هو نفسه لايعرف عنها شيئا ولكنه على أية حال استراح للحياة الجديدة ، واسترحت أنا الآخر من فهمى فلم يعد يزورنى إذ يبدو انه لم يعد فى حاجة الى مشورتى أو لم يعد لديه مشروعات جديدة.

✿✿

السماء السوداء



أعوام طويلة ، والمعلم محفوظ بلا شغلانة ، صحيح أنه لايجيد صنعة ولكنه خبير فى الحياة .. والسنوات السبع الماضية قضاها كلها على مقهى الأمير بالقلعة ينغرس فى وجوه الناس ويدقق النظر فى ملامحهم وصحيح أيضا انه قضى فترة فى فجر صباه فى دكان نجار ولكنه لم يفهم من سر الحرفة شيئا .. حادث واحد فقط كان يذكره دوما وهو جالس على المقهى كل مساء جعله سعيدا رغم البطالة والفشل..

فقد كان محفوظ - ولم يكن قد أصبح معلما بعد - ينشر جذع شجرة بلوط ضخمة ، وفجأة بعد أن انشق الجذع الى نصفين رأى بعينيه - هكذا يزعم - دودة طويلة رفيعة وبجوارها خبز وماء .. وكان دائما يذكر القصة ليدعم بها رأيه ، وهو ان الله لاينسى أحدا ، حتى الدودة الصغيرة الحقيرة فى جذع الشجرة!

ولكن لماذا لم يرزقه الله كما فعل مع الدودة داخل الشجرة .. فهذا يرجع لحكمة يعلمها الله وحده ، ولم يجهد المعلم محفوظ نفسه أبدا فى تفهم هذه الحكمة أو معرفة دوافعها .. المهم أن حكمة الله شاءت أن تقع الحرب فجأة .. ويبدأ الصراع رهيبا فى أوروبا ، واتخذ هذا الصراع الرهيب له فى مصر مظهرا بسيطا عبارة عن مكتب صغير فى شبرا يديره ضباط انجليز ويقبل عمالا من مصر وبأجور خيالية.

وخطف المعلم محفوظ رجله الى مكتب شبرا ووقف ساعة تحت الشمس ضمن طابور طويل من الرجال ، خيل إليه فى بادىء الأمر أنه لن ينتهى .. ولكن شاءت كلمة الله ألا ينصرم النهار إلا وقد استطاع أن يقيد اسمه .. وعندما سأله الضابط الانجليزى الذى يتكلم عربية ركيكة عن مهنته أجابه دون وعى .. نجار .. هو نفسه لم يدر بعد أن غادر المكتب ، لماذا اختار هذه المهنة بالذات.

وجاءه الخطاب على عجل ليتسلم العمل ، نجار فى معسكرات العباسية وأجره جنيه فى اليوم.

شغلة عظيمة وربح وفير .. والسبب الحرب ! بارك الله فى الحرب .. لو انها وقعت منذ سبعة أعوام مضت لما تذوق المعلم محفوظ مرارة البطالة ونظرات الناس الشامتة . ولكنها حكمة الله شاءت ثم عدلت مشيئتها .. وقد أن الآوان لكى يعمل المعلم محفوظ ويربح مثل بقية خلق الله.

ومضت أيام الأسبوع الأول رتيبة والمعلم محفوظ يرسم بسذاجة خطوط المستقبل .. انه يستطيع أن يوفر مبلغا من المال وأن يفتح ورشة.. أو يفتح مقهى يضمن له معاشا ثابتا .. عندما تقضى مشيئة الله بانتهاء الحرب.

ولكن مضى شهر ، ثم مضى عام ، ثم عامان .. والمعلم محفوظ لم يدخر قرشا .. وعرفت قدماه الطريق الى البارات والملاهى ودور الرقص – الى الحياة الصاخبة الحافلة التى حرم منها طويلا .. وأصبح للمعلم محفوظ احتياجات لم يكن فى حاجة إليها من قبل ، والجنيه لم يعد يكفيه .. ولسانه الذى أخذ «يرطن» بكلمات انجليزية أصبح قادرا على التفاهم أكثر من ذى قبل.

ووقع المعلم محفوظ فى مشكلة جديدة ، ولكنها سرعان ما اندثرت.. هكذا قضت مشيئة الله!

انتقلت الحرب الى الصحراء الغربية .. ولم تعد أوروبا تشهد أى نوع من الصراع ، فقد انطوت كلها مستسلمة .. وعبر الألمان البحر إلى تونس ليخوضوا الصراع على رمال صحراء أفريقيا الميتة.

وهبط الفرج على المعلم محفوظ عندما ساومه الانجليز ليذهب الى طبرق ومضاعفة الأجر مرتين ، ولم يناقش المعلم محفوظ بل ركب اللورى مع «شحنة» من الرجال ومضى بهم جميعا الى طبرق .. ومضت أيام طويلة وهو محبوس كالفأر داخل المدينة يعمل ويقبض ويدخر كثيرا فليس أمامه مجال للانفاق .. وعاد من جديد يفكر فى أمر الورشة ، أو المقهى ، والاستقرار الذى ينشده عندما تقضى مشيئة الله بانتهاء الحرب وينتهى معها كل هذا الثراء .. ولكن تفكيره انقطع فجأة، فقد استيقظ ذات صباح فاذا بالانجليز هجروا المدينة وقوم جدد يحتلون مرافقها ويحاصرونها بأسنة الحراب.. وأمروه بخلع ملابسه وسلموه زيا جديدا ، بنطلونا أزرق وقميصا من نفس القماش واللون .. ولطشوا منه النقود التى ادخرها ، ثم علم بعد ذلك كله انه يتعامل هذه المرة مع جنس آخر .. مع الألمان ..

وأمروه أن يعمل ، وعمل طويلا وبجهد أكبر من الجهد الذى كان يقوم به عند الانجليز ، والسبب أن الألمان اكتشفوا السر الذى لم يكتشفه الإنجليز طوال أعوام ثلاثة ، وهو أن المعلم محفوظ ليس نجارا ولكنه يصلح – وهو القوى كالثور – عتالا يحمل البضائع والذخائر على رصيف السكة الحديد ، ومر المعلم محفوظ بمحنة .. ولكنها علمته أشياء كثيرة ، فالانجليز لايأكلون عرق الناس ، بينما الألمان يفعلون هذا !! لم يكن المعلم محفوظ قد اكتشف بعد .. انه وقع أسيرا !!

حتى بعد أن اكتشف ذلك لم يستطع أن يجد تفسيرا لعدم منحه أجره عن العمل الذى يقوم به .. انه ليس جنديا حتى يأخذوه أسيرا .. كان يعمل عند الانجليز ، والآن يعمل عند الألمان ، ولكن فرق كبير بين العمل هنا والعمل هناك.. لو أن هؤلاء الألمان فكوا أسره وألحقوه بعمل ونقدوه أجره .. اذن لبقى معهم الى الأبد .. فهو لايعتزم الفرار .. انه فقط يبحث عن عمل .. ولكن هؤلا الألمان الذين يصرخون دائما لايفهمون حقيقة موقفه .. لقد وجدوه مع الانجليز فحسبوه معهم .. وهو ليس كذلك على الاطلاق!.

ولم يكن هناك سبيل للتفاهم مع الألمان .. حتى لو ان هناك سبيلا فلا فائدة ترجى من التفاهم . واستسلم المعلم محفوظ لمصيره ولم يعد يفكر فى شئ على الإطلاق حتى ولا فى المبلغ الذى لطشوه.

شئ واحد اقلقه .. أين بقية زملائه الذين كانوا معه فى طبرق قبل الغزو ؟ هل استطاعوا الفرار مع الانجليز ؟ أم قتلوا فى المعركة ؟ أم أنهم يعملون مع الألمان ولكن فى مكان آخر ؟ وهد الارهاق الشديد كيانه، واستبد به فنسى كل شىء ماعداه .. أصبح همه كله أن يطيع

الأوامر فلا يضربه الألمان .: فقد تلقى درسا رهيبا عندما سولت له نفسه أن يسأل الحارس مرة عما اذا كانوا سينقدونه أجره بعد الحرب ، ويومها ضربه الجندى بمؤخرة البندقية على رأسه ففقد وعيه لساعات.. ولم يغضبه فى المسألة كلها إلا أن الجندى الذى ضربه لايحتمل لكمة واحدة من قبضة المعلم محفوظ الفولاذية .. فقط لو كان بغير سلاح!

وسرعان ما دارت الأيام .. واستيقظ ذات صباح على صوت طلقات تأتى من كل اتجاه .. وأزيز طائرات يكاد يصم الآذان ، ورائحة حرائق تشتعل فى كل مكان .. وأحس بأن الأرض تميد به وأنه يفقد بالتدريج توازنه ثم السيطرة على نفسه ، ثم وعيه..

وعندما استيقظ بعد ذلك بأيام كان على سرير فى مستشفى طبرق وبلا ذراع ! واكتشف أن الانجليز قد عادوا الى المدينة وأن الألمان هجروها . ومعهم ذراعه «وعرقه» لمدة شهور قضاها يحمل كل شيء كالثور على رقبته على رصيف السكة الحديد..

ومضت أيام طويلة وهو راقد على سريره فى المستشفى .. والعنبر الذى يرقد فيه يعج بالجنود الجرحى .. ملفوفين فى الضمادات .. حتى عيونهم نفسها مغلقة تحت اللفافات ، وكثيرا ما سمع صراخا فى جوف الليل ، ثم حركة غريبة وكم شاهد رجلا ممدا على «نقالة» ويدفعها انجليزى خارج العنبر ، ووجه الرجل يختفى تحت ملاءة بيضاء .. وكان المعلم محفوظ يرفع أصبعه دائما الى أعلى ويرتل الشهادتين على روح الميت رغم انه انجليزى ، فهو على أية حال غريب فى هذه الصحراء.

وتم شفاء المعلم محفوظ بعد وقت قصير .. وسلمه الانجليز ملابس جديدة ومائة جنيه ثمن ذراعه المبتورة .. وطلبوا منه أن يعود .. فلم تعد الحرب فى حاجة إليه بعد أن فقد أهم ماتحتاجه الحرب فيه!!

ولم ينس المعلم محفوظ أن يعد الجنيهات المائة قبل أن يغادر طبرق.. ثم «لفع» الشوال الضخم الذى دس فيه بنطلونى جيش .. وباكوات شاى .. وعدة زجاجات فارغة .. وخرج من طبرق على قدميه .. وحذاؤه الذى كان فى قدمى جندى من قبل ، يضرب فى الرمل فى طريقه الى ربوة موسى حيث تنتظره العربة هناك.

وعندما انحدر المعلم محفوظ ناحية الربوة قاطعا المنحنى الضيق الذى يفصل طبرق عن الطريق الرئيسى .. لفت نظره أن كل شىء قد تغير فى المكان .. كان الطريق عندما قطعه أول مرة تزينه أشجار السرو العالية.. ومعالم الطريق الدالة عليه .. لقد أصبح الطريق مهجورا ولا أثر لشجرة واحدة .. وثمة فجوات عميقة على الطريق من أثر القنابل تبدو كأنها مقابر مهجورة نبشتها الكلاب والذئاب.

وعلى امتداد صفحة الصحراء المحيطة بالطريق كان كل شىء يبدو بشعا رهيبا .. عربات مقلوبة وهياكل دبابات محترقة وعظام نخرة أكل الدود ما عليها .. وبقايا جثث ممزقة وخوذات جنود من جميع الأحجام، استحال لونها الذى كان أصفر الى لون كالح أشبه بلون المياه الراكدة .. والجو يعبق برائحة خبيثة .. ودود كثير يزحف فوق الرمال ، نثرته جثث القتلى فعاد يأكل منها ، ووقف المعلم محفوظ برهة ينظر الى كل اتجاه ، آلاف الجثث مطروحة فى الصحراء ، وكأنها فى انتظار نفير رهيب سيدوى صوته فجأة فى الأفق لترتعش من جديد وقد دبت فيها الحياة !! وبين الجثث كان هناك عدد منها يعرف أصحابها جيدا .. فقد عاشوا معه فترة طويلة داخل طبرق . ظن يوما انهم هربوا من الانجليز.. أو يعملون مع الألمان فى مكان بعيد .. كانت بقايا ملابسهم تدل عليهم .. واصطرعت باذنه أصوات مبهمة بشعة أشبه بنعيق قطيع من البوم فى ليل بهيم..

وعندما رفع بصره الى أعلى رأى السماء وقد أسود لونها تماما ، كانت هناك مظلة من الغربان .. ملايين من الغربان لايعرف من أين جاءت ولا كيف جاءت ، تصفق بأجنحتها فى الجو .. وهى هابطة نحو الأرض لتلتقط من الجيف المنتشرة فى الرمال قطعا ثم تعود الى التحليق من جديد.

واستبد الرعب بنفس المعلم محفوظ .. وامتلأت نفسه مرارة .. وود لو يستطيع أن يبصق على الألمان والانجليز وسائر الناس .. واختلس نظرة الى كم جلبابه وقد تدلى الى جواره بلا ذراع ، و «لفع» الشوال الضخم على كتفيه ومضى مسرعا على الطريق نحو ربوة موسى.

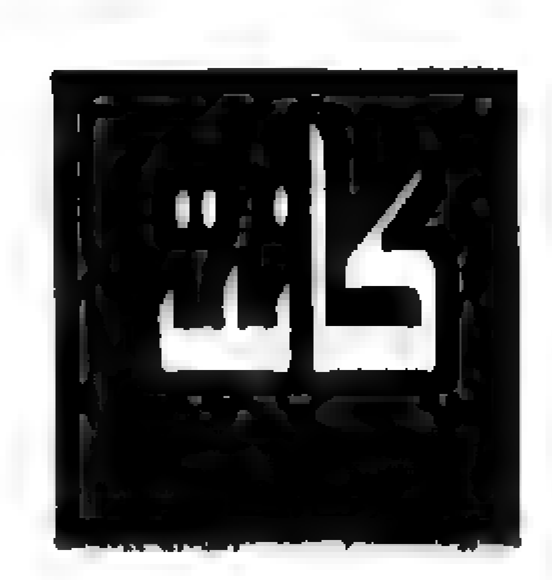
وتساءل المعلم محفوظ بينه وبين نفسه وهو يحث الخطى على الرمال : ترى ماهى الحكمة فى نشوب الحرب بين الناس ، ثم ينتهى الجميع الى مجرد عظام ؟ وأجاب عن سؤاله بنفسه : قد تكون الحكمة من وراء الحرب هى اطعام هذه الملايين من الغربان!!

ومصمص المعلم محفوظ شفتيه فى أسى عميق وهو يسرع الخطى صاعدا نحو الربوة .. وتذكر فى تلك اللحظة الدودة الرفيعة الطويلة فى جذع الشجرة وأمامها الخبز والماء!!

وعندما تكور حول نفسه بجوار الشوال فى العربة اللورى ، اختلس النظر نحو السماء .. كانت لاتزال سوداء .. بلون ملايين الغربان التى راحت تصفق بأجنحتها وهى تهبط نحو الأرض لتلتقط بمخالبها نتفا من الجيف المنتشرة على صفحة الصحراء!!

✿ ✿

واعظ الليمان



الشمس تلهب رمال الصحراء العريضة المحيطة بالليمان ، ولم يكن هناك شجرة واحدة على بعد عدة أميال من مكان السجن.. ولاثمة طيور شاردة فى الجو، ولا بئر ماء .. ولا أثر إطلاقا للحياة ، لم يكن هناك سوى عدة قبور مهجورة نبشتها الكلاب والذئاب وصقور الجو الجائعة . وكان الطريق من المدينة الى السجن طويلا مرهقا ، والعربة الوحيدة التى صادفها واعظ السجن لتنقله الى هناك ، عربة نقل تستعمل فى نقل اللحوم مرة كل أسبوع الى هؤلاء الذين لفظتهم الحياة بعيدا عنها .

كان الواعظ بدينا قصير القامة ، أحمر الوجه ، يبدو للوهلة الأولى كأنه من عمد الريف الأثرياء ، وكان حديث التخرج ، وكانت وظيفة واعظ السجن .. هى أول عمل يقوم به فى الحياة.

جلس الواعظ بجوار السائق يفكر فيما عساه سيقوله فى صباح الغد للمذنبين من نزلاء الليمان ، وتذكر وهو جالس بجوار السائق ، والعربة تهزه هزا عنيفا ، كل خطب الوعظ التى حفظها عن ظهر قلب، خطبة رمضان المعظم ، وفيها الحث على الصوم ومغالبة النفس ، وخطبة الحج .. وفيها المناسك جميعا .. وخطبة رجب وفيها النهى عن زيارة المقابر و.. و.. !!

وابتسم الواعظ فى سرور ، انه لم يزل يحفظ هذا كله ، وفى جعبته عدد لا بأس به من الآيات والأحاديث..

واستقر فى مقعده مطمئنا الى النجاح الذى سيصادفه غدا عندما يقف أمام حشد المذنبين ليعلمهم ويرشدهم الى العمل الطيب الذى يرفعه الله الى سمواته، ودس يده فى جيبه فأخرج منديله الكبير ، وجفف به عرقه الذى ظل يسيل من فوق جبينه فملأ عينيه حتى تعذرت الرؤية عليه ، وكان الارهاق الشديد قد نال منه خلال الرحلة فأغمض عينيه وراح فى نوم عميق.

وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى ، كانت الشمس قد توسطت الأفق ، وحجارة السجن الصماء تكاد تنصهر من شدة الحرارة ، وكان قد قضى ليلته غارقا فى نوم عميق أنساه طول الرحلة ، ووعورة الطريق ، وعندما فرغ من صلاته جلس يتناول افطاره ، وكان شهيا لذيذا وبكميات ضخمة ودهش لوجود مثل هذه الأصناف اللذيذة والكميات الكبيرة داخل الليمان .. لابد انهم سعداء هؤلاء النزلاء ، وهو نفسه عندما كان خارج هذه الجدران – فى عالم الحرية – أيام أن كان طالبا فى الأزهر .. لم يكن يستطيع الحصول على هذه الكميات ولا هذه الأصناف!

لم يفكر طويلا فى هذا الأمر الذى بدا غريبا فى نظره .. وراح أثناء تناوله الطعام يفكر فى الخطبة التى أعدها .. والتى يرجو من أعماقه أن تحوذ رضاء مأمور الليمان ، وتجشأ الشيخ عبد الحميد – وهذا اسمه – وهو يخطو أمام الحارس فى طريقه الى مكتب المأمور – ليتعرف إليه ، إذ لم تكن أمامه الفرصة ليقوم بهذا العمل فى مساء الأمس عندما هبط السجن فى عربة اللحوم.

وكان غريبا عليه أيضا هذا الذى صادفه فى شخص المأمور ، فقد كان رجلا بدينا تدل ملامحه الغليظة على الطيبة والهدوء ، وكان فوق هذا وذاك مطلعا على كتب النحو والبلاغة ، وآراء الشراح القدامى والمحدثين . وبعد أن انتهى الحديث بينهما حول الفقه والدين ، اتخذ المأمور سمت الحاكم وقال مخاطبا الواعظ بعد أن أصلح رباط عنقه:

– اننا هنا أسرة واحدة ، وأنا طيب جدا ، مادام النظام هنا على أكمل وجه ، والرجل الذى يعمل داخل السجن ، هو فى الحقيقة مسجون بملابس عادية ، وستحب مهنتك جداً مادمت مخلصا لها ، مقبلا عليها، وأرى من واجبى أن أخبرك أن زميلك الذى حللت أنت مكانه ظل معنا هنا لمدة طويلة ، كان فيها مثالا للكفاية والاخلاص، ولكنه فجأة نسى أصول مهنته فأخذ يتدخل فيما لايعنيه، وأصبح هو سببا قويا فى تمرد المذنبين على الأوامر فقد كان يتدخل دائما فى طريقة معاملة السجانين للمسجونين ، ولكنه نال جزاءه ، فقد نقل من هنا الى جهة نائية . فانا لا أحب شيئا قدر حبى للنظام. وأضحى فى سبيل تدعيمه بأقرب المقربين إلى.

تصبب العرق على وجه الشيخ عبد الحميد وهو يستمع الى قصة الواعظ الذى سبقه ، وجف حلقه تماما عندما أنهى المأمور قصته بخبر

نقله، واستعاذ برب العباد من شر الشيطان الرجيم ، ودعا الله سرا أن يوفقه فى عمله ، فيعمل آمنا مستقرا ويجمع قدرا من المال ليشترى به قطعة أرض على «حرف» الترعة كما فعل الشيخ رشيد ، والشيخ سلمان ابنا قريته.. وزميلا الدراسة ..!

وعندما انتهت المقابلة خرج الشيخ عبد الحميد من مكتب المأمور وهو يتمتم باسم الله ، والحارس يخطو أمامه فى الردهة الضيقة الطويلة ليقوده الى الفناء الواسع حيث ينتظره المذنبون منذ ساعة ليستمعوا الى موعظته. وعندما أطل على الفناء كان الحر لايزال شديدا، ورأى أكثر من ألف مسجون يجلسون القرفصاء على الرمال فى مواجهة منصة صنعت خصيصا لتقى الواعظ من حرارة الصيف فى تلك المنطقة الجافة الحارقة ، وحول الجالسين اصطفت فرقة من الجنود المسلحين ، وقد صوبوا أسلحتهم الى القطيع البائس . وكان اللغط يدور شديدا بين الجالسين وكأنهم فى معركة كلامية حادة . ولكنها سرعان ما هدأت تماما عندما اقترب الواعظ من الجمع المحتشد ، وتركزت كل النظرات عليه .. حتى نظرات الحراس ، واحس الشيخ عبد الحميد بأهميته البالغة ربما للمرة الأولى ، فتحسس جبينه ، وأصلح من وضع العمامة ، وثبت بصره بالأرض وهو يصعد السلالم الخشبية المؤدية الى المنصة ، وألقى نظرة شاملة على كل من حوله ، ثم رفع صوته بالتحية وبدأ يلقى موعظته فى صوت رتيب ونبرات حلوة ، ولكن هبت الأصوات من جانب الجالسين :

– هس ياجدع انت وهوه

– اللى يحب النبى يسكت

- خلونا نسمع الكلام المفيد

ويبدو أن أحدا منهم لم يكن يحب الاستماع الى الكلام المفيد ، فقد ظلت الضوضاء تتصاعد من حوله ، وكأنه يعظ فى سوق . ولم يثنه هذا عن التوقف، فقد كان الموقف يحتاج الى شجاعة .. وهو شجاع ، فواصل حديثه إليهم.

- أيها الناس .. أمرنا الله باتباع طريق الخير .. والبعد عن طريق المعصية ، ومن يعمل منكم مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، نهانا الله عن الخمر .. فلا نقربها .. وعن الميسر فلا نمارسه، حكمة سماوية .. للبعد عن الخطيئة التى يزينها الشيطان، انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، فالخمر تهدم الصحة وتمحو الشخصية ، والميسر يهدم بيوتكم الآمنة ويجركم الى الدين والخراب، فاتقوا الله يامعشر المسلمين تنالوا رضاه!!

وتوقف الشيخ عبد الحميد عن مواصلة حديثه ريثما يجفف عرقه الذى سال من جبينه على عينيه ، وأحس ارهاقا شديدا .. وصعوبة فى التنفس لابد أنه أجاد وأحسن والا .. لماذا كل هذا الاستغراق حتى لقد نسى نفسه والقى الشيخ عبد الحميد نظرة على من حوله ليرى وقع حديثه فى نفوس المسلمين .. لم يكن هناك من ينظر اليه ، المذنبون يتجادلون فى ضجة ... ربما من أجل عملية بيع وشراء ، ولفائف تبغ كثيرة تنتقل من يد الى يد ، وأوراق لامعة شفافة تتناولها الأيدى لتسلمها الى أخرى . وارتبك الشيخ عبد الحميد ولم يدر ماذا يفعل ، انه واثق تماما انه أجاد اختيار موضوع الموعظة ، وصوته جميل حسن ، فلماذا اذن لايستمع اليه هؤلاء الجهلاء !!

وعاد الشيخ عبد الحميد مواصلا حديثه ، وفى هذه المرة بصوت أشد :

- أيها الناس ، ان الله يأمركم بالزكاة .. ففى أموالكم حق السائل والمحروم ، فلا تكنزوا ثرواتكم فتجنوا حسرة الدنيا .. وعذاب الآخرة ، ولاتبذروا فى أموالكم، فقد نهى الله عن التبذير .. ان المبذرين اخوان الشيطان ، فعلى كل منكم أن يطهر ماله بالزكاة.

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا ريثما يلتقط أنفاسه ، وعاد من جديد ينظر الى الجمع المحتشد أمامه ! كان الجميع مشغولين عنه وعن حديثه بما يبدو انه أهم من ذلك ، عمليات بيع وشراء على الطريقة التى كانت سائدة يوما ما قبل أن تخترع النقود ، والحراس فى نفس الاغفاءة اللذيذة ، واستبدت الدهشة بالشيخ عبد الحميد كيف لم يستطع التأثير على هؤلاء الناس .. وقد نجح من قبل فى السيطرة على أهل قريته عندما كان يخطب فيهم الجمعة خلال زياراته المتعددة لهم فى فصل الصيف .. وكان لم يزل طالبا .. والآن وهو يعمل كواعظ رسمى لايستطيع أن يلفت اليه نظر هؤلا المذنبين ، واشتد ارتباك الشيخ عبد الحميد .. وهو لايدرى تماما ماذا يجب عليه أن يفعل ، هل ينسحب ويمشى؟ ولكن هذه قد تحسب عليه ، اذن هل يصرخ فيهم أن انتبهوا أيها الكافرون؟ .. أم .. وقبل أن يمضى فى تفكيره للعثور على حل لهذه المشكة ، انتبه على صوت أجش يرتفع صائحا :

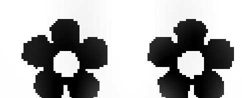
- انتباه .

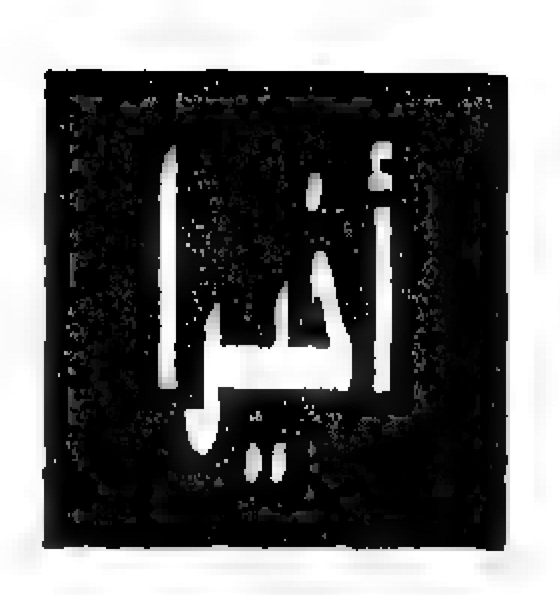
وعلى الأثر ظهر المأمور وبجانبه كبار الضباط ، وعدد كبير من الحراس، مقبلين جميعا فى موكب مهيب نحو منصة الشيخ ، وانتفض

الحراس فى وقت واحد وقد طار النوم من عيونهم . وصمت المذنبون وكأنهم جثث فى مقبرة ، وانتفض الشيخ عبد الحميد هو الآخر ، فقد أخذته روعة الموكب المهيب ، واختلطت فى ذهنه جميع المواعظ التى حفظها عن ظهر قلب طوال حياته الماضية ، وارتفع صوته من جديد ، وكان المأمور قد اتخذ له مكانا على مقربة من الحشد الكبير.

– ايها الناس ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم .. «وكل عمل ابن آدم لنفسه إلا الصيام فهو لى وأنا أجزى به » والصيام دواء لمرض التخمة ، ولاشعاركم بما يلقاه المحرمون من اخوانكم فى الانسانية ، فتعطفون عليهم ، وتحسنون إليهم . وترزقونهم مما رزقكم الله.

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا ، كان الصمت لايزال مخيما على الجميع ، وهم ينصتون فى هدوء ويمصمصون شفاههم فى «طرقعات» مسموعة ، وعيونهم تختلس النظرات الى الناحية التى وقف فيها المأمور، وكان يبدو عليهم التأثر الشديد لما يقوله ورضى الشيخ عبد الحميد عن نفسه كثيرا ، وراح يربت بيده على صدره العريض وكأنه أفئدتهم قد تفتحت للتوجيه الحكيم الصائب ، لقد آمن أفراد هذا القطيع أخيرا ، آمنوا بالصلاة والصيام والزكاة .. والحج الى بيت الله لمن استطاع اليه سبيلا وغشيت عيناه سحابة من أثر الرضاء وعاد الى حديثه يلقيه فى عزم وقوة وعيناه لاترى شيئا أمامه سوى الاستقرار الذى سيلقاه فى عمله .. وقطعة الأرض التى سيشتريها بجوار الترعة . ولم لا ؟ وقد ران الصمت على الجميع واستطاع أن يغزو قلوبهم بالايمان؟!





جـاء القطار ونهض هـريدى عـبـد العـال من مكانه علـى الرصـيف ، ورفع الشــوال الهـائل الذى يحـوى كل مـا مـعــه من هدايا لأسـرته القابعة فى زاوية مهـجورة من زوايا الصعيد ، وقذف به داخل القطار ، ورفع ذيل جلبابه بين أسـنانـه وامــسك بنافـذة القـطار وراح يجـرى مـعـه، وسـقطت فـردة حـذائه المـمـزق تحت العـجلات وخطر له أن يـتـرك القطار ليـجرى خلف (الفردة) ولكنه طرد هذا الخـاطر بعد أن وجـد نفسـه فجأة وبطريقة مـا داخل القطار ، والشـوال الضـخم بين يديه يحـاول عـبـثـا أن يجـد له ولنفسـه مكانا بين مـئـات من أمـثـاله افـتـرشـوا أرضـيـة العـربة المظـلمـة وراحـوا يتحـدثون ويهرشـون غيـر ملقين بالا الى من يدوسـون فوقهم بالأقدام.

ووجد هريدى لنفسه مكانا وسط هذا الزحام وفتح الشوال ليرى بنفسه ان الهدايا لم تمس. ولكن الغضب استبد به عندما اكتشف ان زر الشمام قد أصيب بضربة فى جنبه وان كيس السكر قد انفرط، وزجاجة المزيج قد سالت فلطخت كل شيء . وطوى هريدى الشوال ووضعه تحت جنبه عندما بدأ القطار يتحرك نحو الصعيد ، وخطر له ان ينام ، فإن أمامه أكثر من عشر ساعات حتى يصل القطار الى طما ، ومن هنا ك سوف يركب الحلزونة الى ميت الحلاجى ، وبعدها يستطيع السير على قدميه الى حيث يشاء.

ولكن حديث المسافرين وهرشهم ونداءات باعة الكازوزة واللب والبيض والسميط وكذلك الهدايا التى فى الشوال ، والجنيهات العشرين التى فى جيبه ، كل ذلك طرد النوم من عينيه ، فظل ساهرا يرقب أعمدة التلغراف وهى تجرى مسرعة فى الطريق المضاد وكأنها أطفال مذعورة تجرى مهرولة فى طلب الأمان.

وغاب هريدى تماما عن كل ما حوله ، وتذكر اليوم الذى جاء فيه الى القاهرة ، أول مرة ، حدث هذا منذ عام ، كان الوقت ظهرا والمكان محطة مصر ، والزحام على أشده وعربات كثيرة فى عدد جميع الحلزونات التى تمر على ميت الحلاجى فى عام كامل .. تجرى فى كل الاتجاهات ومركبات حديدية تحدث ضجيجا يصم الأذان وباعة شمام وبطيخ وورق، وخلق كثيرون أكثر من كل الذين يسكنون الصعيد ، ورائحة غير ذكية وبالناس مجهدون صفر الوجوه ، مرضى جميعا بالسعال ولكنهم فى ملابس نظيفة وأحذية جديدة ومع بعضهم نساء بيض جميلات ، ونظر هريدى الى قدميه العاريتين المتورمتين وجلبابه الممزق، وتذكر صابحة زوجته ، وتمنى لو كان له حذاء وأمسك فى يده بورقة مطوية وسار فى الطريق.

وقبل أن يقطع مسافة طويلة استوقف افنديا كان يعبر الميدان مثله ، وأبرز له الورقة المطوية فألقى الأفندى عليها ثم أشار عليه أن يمضى الى الأمام ثم الى اليمين ثم الى الشمال ثم .. أشياء كثيرة معقدة لم يفهم هريدى منها حرفا ، حتى الورقة التى تحمل العنوان لم يحصل عليها هريدى فقد أخذها الأفندى وجرى فجأة بأقصى سرعة خلف حلزونة ضخمة كانت تجرى بسرعة ولم يلبث أن أصبح الأفندى داخلها ، وغابت العربة مع العنوان عن الأنظار.

وهكذا عثر هريدى على الشيخ أحمد مروان متعهد الانفار بعد أربعة أيام ، قضى ثلاثة منها فى قسم الموسكى .. ولم يدر هريدى السبب فى هذا ، كما انه لم يدر أيضا السبب فى انهم تركوه ، المهم انهم عندما اخذوه سألوه عن اسمه ومقر إقامته وصناعته ، وكان هريدى صادقا فلم يذكر سوى انه يملك جسما قويا كالثور يستطيع أن يهدم به حائطا، أو يجر به حلزونة ، أو يصرع به رجلا من رجال المدينة الصفر الوجوه.

واهتز القطار فجأة ، وكانت الهزة قوية أيقظت هريدى من أحلامه ودفعت بكثير من الجالسين الى الوقوف ليروا من النوافذ حقيقة الأمر، وهتف بعضهم تصليح .. فيه تصليح فى السكة..

وهتف البعض الآخر :

– يامستعجل عطلك الله.

ثم خيم الهدوء من جديد .. وتوقف القطار قليلا قبل أن يسير وعاد هريدى يذكر تلك الأيام منذ عام كيف انه ظل عاطلا بلا عمل عدة أسابيع . ثم أخذه المعلم مروان ليعمل فى عمارة ، وكان العمل سهلا .

يحمل على كتفه خمسين طوبة ويصعد بها على سقالة وثبا كالبهلوانات الى الدور الخامس ثم يعود ، وعند كل مساء كانوا ينقدونه ريالا كاملا وصرف هريدى الريال فى اليوم الأول ، وفى اليوم الثانى وبقية أيام الأسبوع وعندما أخذ يقتصد توقف عن العمل فى العمارة، ولم يعد البناء فى حاجة الى مزيد من الطوب ، وهكذا مضت أسابيع أخرى وهو بلا عمل وأحيانا بلا طعام ، أما المأوى فمضمون ، فى الساحة التى يملكها المعلم مروان فى حضن الجبل عند الدراسة ، وهكذا عرف هريدى الدراسة والأزهر والعباسية أيضا حيث كان يعمل فى العمارة ، وعرف كثيرا من بلدياته فى المقهى الذى يجتمعون بها كل مساء يدخنون المعسل ويشربون أقداح الشاى الأسود .. ويلعبون الطاولة وأحيانا يأكلون العيش القمح مع الفول ، ودخل هريدى فى عمل جديد وخرج منه الى عمل آخر ، وفى كل يوم تنشق الأرض عن عمارة ضخمة ، ثم تنتهى لتقوم بجوارها أو فى حى آخر بعيد عمارة مثلها وهريدى يحمل الطوب على كتفه ويغنى وهو يتأرجح على السقالة ويشرب أكواب الشاى فى فترة الغذاء. وينام فى الليل على الرملة . كم هى باردة لذيذة فى الليالى الحارة أعظم بكثير من الأرض الساخنة الصلبة التى كان يفترشها فى الصعيد.

وتنهد هريدى فى عمق ، وهو يسترجع فى ذاكرته تلك الليالى البعيدة ، وارتجف بدنه كله عندما تذكر .. كيف خطر له ذات مساء وهو جالس على الرمل أن يترك زوجته وأسرته الى الأبد وأن يخلص رقبته من تلك العلاقة التى تجعله يدور مجهدا حول نفسه ، كالثور الكبير .. وتذكر كيف استبد به هذا الخاطر حتى أقلقه ، وكيف استقر رأيه ذات

مساء ، وهو يجلس وحيدا على الرملة وأصابعه تعبث فى بطن الكثب البارد على ألا يعود الى الصعيد لهذه الحياة التى يعيشها الناس هناك ، حيث الظلام والنساء اللاتى في شكل غربان الجو، والعيش الذى ينافس الطوب ، أما هو ففى مصر .. أم المدائن كلها .. هنا الفول المدمس بكثرة والعيش لبن يبتلعه الناس بسهولة ، وشوارع نظيفة ونقود ، الناس هنا يختلفون عن الناس فى قريته بهادة، وفى ميت الحلاجى وفى طما .. هنا الناس يبدون أكثر بهجة وأشد نظافة وأصواتهم أكثر رقة وجيوبهم عامرة.

وعجب هريدى ليلتها لأن الناس هنا أشد غفلة من الذين هناك ، انهم هنا يقطعون الوقت فيما لافائدة فيه ، انهم يذهبون الى الخلاء والى الملاهى والى النهر، وهو لايعرف طعما لهذا كله ، ولو ان الناس هنا أصحاب فطنة حقا لقضوا الوقت كله فى الأكل ؟ الأكل هنا متوافر والناس لايعرفون قيمته ، ولو ان كل هذه الكميات الضخمة من الفول والطعمية والباذنجان المخلل فى الصعيد لأتى الناس عليها فى لحظة ، ولكنه أحيانا يرى أصحاب الدكاكين وهم يلقون ببعض فضلات هذه الأشياء فى الطريق.

واهتز القطار من جديد ، وتمهل فى سيره قليلا ووقف بعض الركاب ووقع البعض الآخر ، وجرى بعضهم نحو النافذة ، وهتفوا ، المنيا وداس النازلون والصاعدون على الجالسين ، وتململ رجل كان يفترش الأرض بجوار هريدى وأبدى تبرمه من هذا الحذاء الضخم القذر الذى انحشر فى فمه ، وصاح رجل عجوز كان يتمدد تحت كرسى :- استحملوا بعض ياخلايق . دى كلها ساعتين والعمر كله يومين.

ومصمص بعض الجالسين شفاههم فى اعجاب ، وهتف أحدهم :

– ربنا يفوتها على خير .

وتحرك القطار من جديد فى طريقه الى أسيوط ، وعاد هريدى الى ذكرياته فى مصر ، الى هذا الخاطر الغريب الذى استبد به بعض الوقت فى ضرورة هجر أسرته وزوجته ، والصعيد كله ، ثم تذكر ماحدث بعد ذلك وكان قد بدد كل ما اقتصده ، ولماذا يقتصد ، انه الآن ينوى أن يفعل ذلك . ولكن خاطرا ملحا ظل يطرق خلايا مخه بانتظام وفى قسوة شديدة وجوع مسعور نحو المرأة يأكل كيانه ويكاد يحيله الى شعلة .

وهمس ليلتها فى أذن بلال ، الصعيدى الزنجى الذى جاء الى مصر منذ خمسة أعوام ، همس له برغبته الجنونية ، انه لم يكن يحس هذا الاحساس من قبل فى الصعيد ، ربما لأن زوجته كانت فى شكل الغراب ، عجفاء مثل عود الحطب ، وربما هو الطعام اللذيذ الذى حرك فى نفسه هذا الغول الرهيب وقاده بلال فى ذلك الصباح الى الجبل بجوار المشرحة، حيث بعض النساء الممتلئات الملطخات الوجوه بكل مافى الوجود من هوان ، وفى وجوههن بثور غريبة ، ومن ملابسهن تفوح رائحة غريبة ، ولكنهن أجمل بكثير من التى تنتظره فى بهاده مع نصف دستة من الأطفال.

ولن ينسى هريدى ماحدث ، ضربه بعض الرجال ضربا مبرحا حتى كادوا يقتلونه وسلبوا منه الريال الذى كان معه . ومع انه قوى فى حجم الثور والآخرين ضعاف كالذباب ، إلا أنهم كانوا يتحركون بسرعة عجيبة ، ويضربونه فى وجهه وعلى رأسه فى مهارة وكأنها طبقا لخطة وكان يود لو يمسك بأحدهم ولكنهم لم يمكنوه وعندما تركوه لم

يستطع أن يفتح عينيه، وعندما فتح عينيه وجد نفسه داخل حلقة من الجنود السود مثل بلال وفى أيديهم كرابيج.

واهتز القطار فجأة ، وقام بعض الناس ووقع البعض الآخر ، ورفع هريدى يده يتحسس قفاه وظهره ، صحيح أن الألم زال ولكن آثار الضرب المبرح بالكرابيج مازالت فى مكانها هناك وكأنها حدثت بالأمس .

وابتسم هريدى فى خبث شديد ومضى وقت طويل قبل أن يسير القطار ، وسأل هريدى جاره عن الساعة ، وسأل الجار رجلا آخر.

وسأل الجار الآخر جارا ، ثم جاء الجواب من بعيد ، من رجل كان يجلس فى أخر العربة.

وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل والحر يكتم الأنفاس ، ورائحة الرجال مختلطة برائحة الشمام برائحة البطيخ برائحة المزيج ، وعاد هريدى يهرش فى قفاه وفى ظهره ؟ وفى رأسه تتلاطم الأفكار والذكريات متزاحمة وأخذ بعضها برقاب بعض ، والمشاهد تترى أمامه كأعمدة التلغراف التى تجرى مذعورة على الطريق المضاد والتى أخذها الظلام عن عينيه.

وعاد هريدى يذكر كيف نام فى الساحة عشرة أيام بعد .. «العلقة» لم يستطع أن يبرحها ، وكيف طرد عن نفسه خاطر الانفصال عن أسرته وزوجته وعن الصعيد ، ثم عاد الى العمل من جديد ، من عمارة الى أخرى حتى جاءه المعلم ذات يوم وقاده الى معلم آخر ، فسلمه لرجل نظيف لايبدو مثل الآخرين قالوا له انه مهندس وان عمله سيكون بعد ذلك الحفر فى الرمال دون أن يحمل طوبا أو يتسلق عمائر .. شيء

لافائدة فيه ولكنه سيتقاضى أجرا كبيرا . ثلاثين قرشا فى اليوم ، سيعمل بلا انقطاع.

وفى جوف الصحراء بعد الهرم راح يضرب الفأس فى جوف الأرض.. عمل مريح ، وفيه نوع من الاستقرار وهؤلاء البلهاء يدفعون الأجر ، وهو لايفهم معنى لكل هذا العمل التافه ، الحفر فى الرمال .. ربما جاءه الحظ الذى أصاب بعض الناس من قبل . ان بعض الناس فى المدينة لايعملون شيئا ويتقاضون أجرا كبيرا والأفندى الذى يعمل معه يجلس فقط على الكرسى خلف مكتب كبير وفى الظل لايحفر الأرض ولايحمل الطوب ، ورغم ذلك فيبدو انه يتقاضى أجرا كبيرا لانه يدخن السجائر فى علبة ، ويشرب الشاى والقهوة ويدفع أحيانا بقشيشا سخيا لهؤلاء الذين يحفرون، والمعلم مروان مقاول الأنفار انه لايفعل أحيانا شيئا هو الآخر، إلا الجلوس على المقهى ولعب الطاولة وتدخين المعسل ، ومع ذلك فهو يتقاضى أجرا كبيرا ، أتاح له أن يبنى عمارة فى مصر ، ويشترى عشرة أفدنه فى طما ومتزوج أربع نساء .. انه الحظ لابد اذن قد هبط عليه هو الآخر ، وإلا ؟ فما معنى كل هذا النعيم الذى يرفل فيه .. الحفر فى الرمال خمس ساعات والأجر ثلاثون قرشا ولاتوجد هنا بطالة كما هو الحال فى شغل العمارات ويبدو أنها لن تكون .. لأن الصحراء عريضة طويلة والحفر فيها يستغرق الدهر كله..

وتذكر هريدى كيف مرت الشهور رتيبة هينة حتى حدث شيء عجيب.. منذ أسبوع واحد كان هريدى يضرب الفأس فى الرمل فى بطء ممل فليست هناك رقابة ، الأفندى فى المنزل والريس فى القهوة ، والصحراء لن تتصدع اذا تأخر العمل فيها قليلا أو سار فيها فى بطء شديد ، وعاد هريدى الى الضرب بالفأس فى باطن الصحراء ، ثم مضى

وحده يسرع فى العمل ويرفع الفأس الى أعلى فى نشاط ويضرب فى الأرض بقسوة ، لايدرى لماذا ؟ ربما لانه تذكر زوجته وامه التى تركها تموت فى الصعيد ولكنه توقف فجأة عن العمل فقد غاصت الفأس فى الرمل ، وعبثا حاول أن ينزعها دون جدوى واستطاع أخيرا عندما استعان ببعض الرجال ، وخلف الفأس فى الأرض فجوة كبيرة مظلمة سوداء كقلب المعلم مروان، وانحنى هريدى ينظر داخلها فى بلاهة ثم قفز من شدة الرعب .. كان هناك شىء أشبه بالحجرة ، وجثث كثيرة ممددة وكأنها نائمة وأوانى طبخ وأشياء أخرى كثيرة من بينها أرغفة خبز يبدو تماما مثل خبز الصعيد.

وامتقع لون هريدى وهو يفكر فى هذا الأمر ان هذا الذى يراه لابد مقبرة هائلة، وهؤلاء موتى منذ زمن بعيد .. تذكر كلمات الشيخ الدسوقى واعظ القرية التى يرددها فى المسجد كل يوم جمعة ، وهى ان الأرض تخفى تحتها جثث ملايين الخلق منذ ياجوج وماجوج.

وهريدى لايدرى متى كان ياجوج وماجوج هذا ، ولكن لابد انهم ظهروا منذ زمن بعيد يضرب فى بطن التاريخ الى غور سحيق.

واصفر لون هريدى عندما خطر له انه ربما كان هؤلاء القوم «المساخيط» الذين سخطهم الله لضلالهم.

وتذكر ثانية كلمات الشيخ دسوقى حيث كان يقول ان الله كان يسخط القوم الظالمين ، وانه سيسخط العالم قريبا بكل ما فيه ومن فيه. اذن كان الشيخ دسوقى يقصد ان العالم كله سيتحول الى شىء من هذا القبيل وخطر له أيضا ان هؤلاء القوم ربما يمتون الى الأفندى المهندس بصلة قرابة، وان الغرض من حفر الصحراء كان هو العصور

عليهم ، المهم أن هريدى انتهى من هذه الخواطر جميعا بأن صاح وبلا وعى :

– يارجاله ، يارجاله ، يارجاله ..

وهرع الرجالة اليه وتوقف العمل فى كل مكان إلا عند هريدى ، ونزل هريدى من الفتحة الى الداخل ، كانت الرائحة عقنة قوية ، والناس ينامون فى هدوء تبدو على وجوههم راحة السنين الطويلة.

ونظر هريدى اليهم فى اشفاق وذعر .. وفى حسد أيضا .. صحيح ان الدسوقى كان صادقا حينما كان يقول : لاتأتى الراحة إلا مع الموت .. وراح هريدى يذرع أرض الحجرة المظلمة بحثا عن شئ، لم يكن هنا سوى أحجار فى أحجام مختلفة.

وفجأة عثر على شىء لامع لابد انه كنز ، وعندما وضعه فى جيبه ، كانت الفتحة قد اتسعت أكثر ، وأصبح فى وسع الرجال أن يروه .

وجاء الريس بعد ساعة ، وجاء المهندس بعد ساعات ، وتوقف العمل فى ذلك المساء ، ونام هريدى بجوار الفتحة تحت الحراسة ، كانت المنطقة قد تحولت كلها الى نهار بفعل الأنوار التى جلبها المهندس ، والمكان كله طوقه الجند المسلحون ، وأغتم هريدى لهذه النهاية السيئة، لابد ان هذا الذى عثر عليه كنز تملكه الحكومة، أو مقبرة تضم رفات أحد أجداد رجال الحكومة.

وسهر هريدى الليل بطوله يفكر فى الأقوال التى سيدلى بها ، انه لايقصد هذا العمل على الاطلاق .. والأفندى المهندس هو الذى أمره بذلك وعند الفجر سقط هريدى نائما من الاعياء . وعندما جاء الصباح

أيقظوه. وقادوه الى خيمة نصبها الجند بسرعة ، ودس يده فى جيبه وأخرج القطعة الصفراء وألقى بها فى الرمل وداس عليها بقدميه.

ودخل هريدى الى الخيمة .. كان هناك ضابط صغير السن والأفندى المهندس وافندية مثله .. بعضهم يلتقط مناظر . وبعضهم يدون شيئا على ورقة ، لابد انهم رجال النيابة .. وهم هريدى أن ينحنى على حذاء المهندس يستعطفه ويستحلفه بكل مقدس أن يتركه . ولكن صوتا رتيبا هادئا جاءه من الخلف من الضابط الجالس فى الخيمة :

– انت اللى دخلت مقبرة فرعون فى الأول ؟

– أنا مظلوم والله العظيم يابيه

ولم يلتفت الضابط الى الاستعطاف وسأله :

– كانت الساعة كام

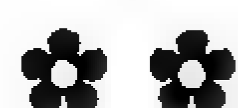
– والله العظيم مظلوم يابيه ، احنا ناس غلابة مامعناش ساعات ، وضحك الناس الجالسون ، لابد انهم يسخرون منه ، وهكذا الناس يضحكون دائما من كل مايصيب الآخرين من شرور ، وانتهى التحقيق بسرعة وخرج من الخيمة دون أن يمسه أذى ، وبجوار الفتحة قضى هريدى خمسة أيام طوال مسح خلالها كل الصحراء المحيطة بالمقبرة ، بحثا عن القطعة الصفراء التى ألقى بها ، وأول أمس نقدوه الأجر كاملا ومكافأة عشرة جنيهات وقالوا له اذهب اذا شئت .. هؤلاء البلهاء.

وذهب هريدى وهو لايصدق ، واشترى الشمام واقة الأرز وكيس السكر وعاد الى طما وهاهو القطار يقف فيها الآن والنازلون والصاعدون لن يدوسوا عليه .. انه سينزل معهم وسيدوس هو أيضا على الآخرين ..

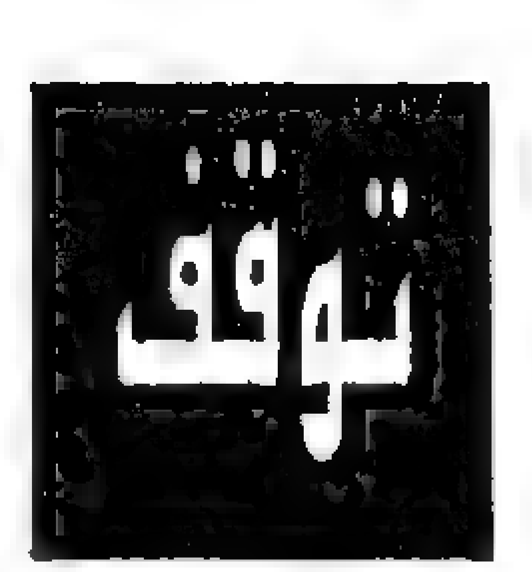
وتحسس هريدى الجنيهات العشرين التى فى جيبه ، وفتح الشوال من جديد ليرى مافيه كان كل شيء مكانه، حتى نسخة الجريدة التى تحمل صورته عند الفتحة والتى اشتراها بقرش صاغ لتتفرج عليها زوجته وكل الرجال فى بهادة.

وهبط هريدى الى الرصيف ، وقبل أن يترك الرصيف كان القطار قد تحرك .. ونظر هريدى الى قدميه كانتا عاريتين تماما ، لقد نسى «الفردة» الثانية داخل القطار ، أما الفردة الأولى فقد سقطت منه تحت العجلات عند بداية الرحلة.

وخطر له أن يجرى وراء القطار ليأتى بالفردة ولكن القطار كان قد اختفى مع «الفردة» فى الظلام .. ورفع هريدى الشوال على كتفه ، وعلى تراب الأرض الطيبة غاص هريدى بأصابع قدميه الضخمتين .. ومضى مسرعا فى الطريق الى .. طما !



المرحـــوم



العمل تماما فى القرية فقد مات الشيخ فراج عند الفجر، وعمت القرية فرحة شديدة لم نشهدها من قبل.

وعند الدرب الذى ينتهى الى المرحوم جلس الشيوخ على الأرض فى حلقات يدخنون ، ويسألون عن أسعار القمح وعن موعد تدفق المياه فى الترعة. ويثرثرون حول سن الشيخ فراج وهل حضر هوجة عرابى أم انه كان طفلا لايدرك شيئا.

وراح بعضهم يسرد فى حماسة قصص أحداث بعيدة له ، وللشيخ فراج عندما كان كل منهما فتى فى ربيع العمر ، وعلى مقربة من الشيوخ جلس الفتيان فرحين بالفرار من عناء العمل فى الحقول وراح كل منهم يقص مغامرة حديث بينه وبين الشيخ فراج عندما حاول سرقة ثمار الجوافة التى كان يملكها المرحوم عند الجسر . وكيف ضربهم الشيخ فراج بعصا التوت الرفيعة وكان فى جسم كل فتى من أبناء القرية آثارا من عصا المرحوم.

وانتشر الأطفال الصغار يلعبون فى الساحة الواسعة التى سيقام فيها « الصيوان » فى الليل والبشر يغمر نفوسهم ، لأن مساء ذلك اليوم لن يكون كئيبا مثل الليالي السالفة ، فستشع أنوار «الكلوبات» وسيمتد نورها فى الساحة وسيلعبون حتى الفجر دون أن يزجرهم أحد فسيكون الجميع فى المأتم حتى الصباح.

وكان الأطفال يرددون وهم يدورون حول أنفسهم لحنا ساذجا أشبه بالنواح:

- حانسهر بالليل ، وناكل لحمة على روح المرحوم.

وكان يسكتهم أحيانا عن ترديد اللحن مرور شيخ عجوز مخترقا الحوش فى طريقه الى بيت المرحوم حيث يجلس الرجال فى انتظار تشييع الجنازة فيزجرهم بصوت غاضب وهو يلوح لهم بعصاه.

- ماتسكتوا ، جاتكم داهية..

وكانت النسوة العجائز يجلسن فوق أسطح المنازل المجاورة لبيت المرحوم يروين فى أسى بالغ قصة الساعات الأخيرة لموت الشيخ فراج وكيف انه سأل عن فلان .. وفلان وتنبأ بنهايته قبل أن تأتى النهاية بساعات.

وعند باب البيت كان الابن الأكبر للمرحوم يقف والحزن يبدو عليه ، وان كانت الفرحة تغمر كيانه فى حقيقة الأمر ، فقد كان أبوه يملك طاقما كاملا من الملابس الجوخ والشاهى ، وكان يستعملها فى المناسبات الخاصة وقد جاءت المناسبة الخاصة ليستعملها الابن.

وكانت فرحته تمتد الى سبب آخر ، هو أن زواجه بمحاسن بنت شيخ البلد كان مؤجلا لحين شفاء الوالد أو وفاته ، ولقد أصبح الطريق الآن مفتوحا الى هنائه بعد أن تداركت أباه رحمة الله.

وكان الجو يسوده بعض الفتور فقد كان الجميع فى انتظار حضور نجل الشيخ فراج الذى يعمل موظفا فى مصر ، وقد مرت ساعات طويلة قبل أن يحضر.

وعندما حضر تم تشييع الجنازة فى دقائق ، وحمل النعش أربعة : شيخ البلد ، ومحمد الخفير النظامى ، وعبد السميع الأخرس ونجله الكبير ، فقد أصر على أن يحمل أباه حتى القبر.

وعندما جاء الظهر كان الرجال قد عادوا من المقابر ، وتم اعداد «الصيوان» وجاء المقرئون من البندر ، وجلس الناس يستمعون الى ترتيل أيات الذكر الحكيم ثم خيم الصمت على الجميع عندما حان موعد الغذاء ، والتفوا فى حلقات يأكلون حتى شبعوا ، وكان الغذاء ثريدا ولحم ضأن ، فقد كان المرحوم يملك قطيعا صغيرا من الخرفان وكان يرفض بشدة أن يذبح أحدها ، فقد كانت تربية الخراف هواية عند المرحوم.

ولم تنقطع الثرثرة خلال الأكل فقد همس محمد الخفير وسط الشلة التى كان يجلس بينها ضاحكا:

– الله يرحمه كان نفسه فيها.

وعندما انتهى الجميع من الغذاء ارتشفوا القهوة على عجل ودسوا أصابعهم فى صناديق الدخان فالتقط كل منهم لفافة. وغادروا الصيوان مسرعين الى منازلهم ، وبقى البعض داخل الصيوان مضطجعين وهم يدخنون فى لذة وأصابع أرجلهم تتحسس وبر السجادة القاقعة الألوان التى فرشت على الأرض.

وزحف المساء على القرية وهى تتعوج فى النور ، وصوت المقرىء يلعلع فى أنحاء القرية ، وأبناء الكفور المجاورة يفدون جماعات ليشتروا اللعب وباعة الحلاوة « الغزل » يحتشدون حول الصيوان والابن الكبير فى طاقم الملابس الجوخ يستقبل الناس والابن الصغير الذى يعمل فى مصر يطوف عليهم بعلب السجائر كلما دخل الصيوان فوج جديد.

وجلس الشيوخ يرتشفون أقداح القهوة ، ويدسون شيئا لزجا أسود اللون فى أفواههم ويسألون الحاج وهدان فى الحاح أن يمزج لهم القهوة بالعنبر الذى يحمله.

وجلس الشبان عند باب الصيوان يختلسون النظرات نحو فتيات القرية عند مرورهن نحو بيت المرحوم أو عودتهن من هناك.

ومرت ساعات الليل على «القرية» سريعة شأنها شأن ليالى العيد والمقرئون يتبارون فى التجويد ، والفلاحون يمصمصون مع أبناء القرية المحظوظين شفاههم عجبا واستحسانا. وفجأة سرت همهمة بين الجميع أشاعت اللغط فى أنحاء المكان عندما حمل محمد الخفير إليهم نبأ هز أعصابهم هزا ، خلاصته أن العشاء لن يقدم لوفود المعزين اكتفاء بما قدم فى الغذاء.

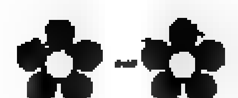
وأصيب الجميع بخيبة أمل شديدة ، وجلس الشيوخ ساهمين بعد أن أتوا على ما معهم من الشىء اللزج الأسود اللون ، وتسلل الشبان جماعات ليسيروا على الجسر فى الهواء الندى، وهد التعب كيان المقرئين فخفتت أصواتهم ، وافتقدت الرنين الحلو الذى كان لها فى أول الليل .. ولم يلبث الشيوخ أن تسللوا هم الآخرون وقد هاجمهم

النعاس، ولم يعد هناك غير المقرئين ، وبعض الذين فضلوا النوم على السجادة ذات الألوان فناموا حيث هم حتى الصباح ، وظل الأطفال يمرحون على ضوء المصابيح حتى ذبلت هى الأخرى وأظلم المكان فعادوا الى دورهم من جديد.

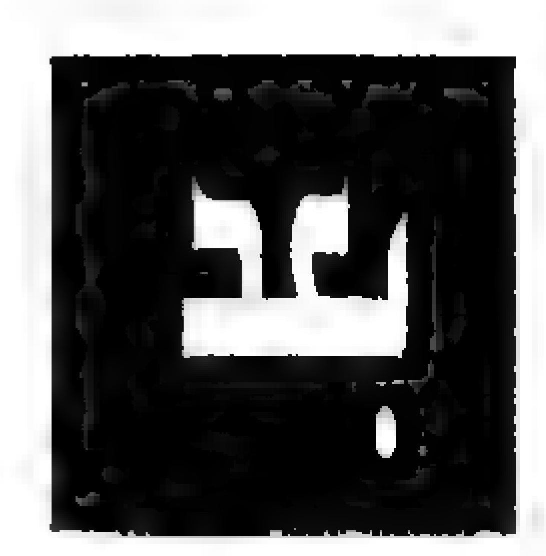
ولف الظلام الكئيب القرية وعاد نباح الكلاب يسمع أتيا من بعيد عبر المزارع والحقول ولم يلبث الفجر أن أشرق عليها وعادت الأبواب تفتح محدثة صريرا أشبه بموت عربة يجرها ثور على طريق حجرى وخرج الشبان بهرواتهم نحو الحقول ، والشيوخ على الحمير فى طريقهم الى البندر. والأطفال يسحبون البهائم نحو الترعة.

وعادت التعاسة من جديد تحتل قلب كل منهم.

شىء واحد اعاد الأمل الى قلوب أهل القرية ، فقد رأوا عند الكوبرى القديم المتآكل – الذى يفصل القرية عن بقية الكون – حمدان ابن الشيخ عبد الرحيم يسرع الخطى فى طريقه نحو البندر لاحضار الطبيب ، فقد دهمت النوبة أباه ، وتذكر الناس فى القرية أن الشيخ عبد الرحيم مريض منذ أمد بعيد وأنه لن يعمر طويلا ، وستمضى على القرية أيام قليلة حتى يهبط عليها يوم أخر فيه حركة .. وترفيه.



البوليف



التل الكبير بعدة كيلو مترات ، ترقد قرية المحسمة ذليلة بين التلال ، فتبدو منازلها المتداعية إلى جوار سلسلة التلال الرهيبة وكأنها عابد صينى يركع في فناء معبد بوذى قديم .

وأهل المحسمة لايعرفون أن لقريتهم شأنا عظيما ، ولم يسمعوا أن البلاغات البريطانية التي صدرت من جانب القيادة فى فايد خلال معركة القتال قد ذكرت اسم قريتهم أكثر من مرة ، ولم يسمعوا كذلك بأن محمد حسنين وسعدى كامل اللذين قتلا خلال المعركة قد صدرت بأسمائهم وقصص استشهادهم ملاحق خاصة من صحف مصر .

لم يسمع أهل المحسمة بشئ من هذا ، فهم لا يقرأون صحفا ، والراديو الوحيد فى قريتهم في دكان الشيخ عبد القادر ، وهو رجل لا يحب الليل ويعتقد أن دوره فى الحياة يتوقف عندما تغيب الشمس .. ولكنهم رغم هذا الجهل المطبق بأهمية قريتهم وذيوع صيتها . كانوا يعلمون حقيقة واحدة تمس القرية من بعيد .. خلاصتها أن الانجليز يستخدمون الجبل القريب من القرية لاحراق بقايا الأطعمة كانوا يعلمون السر .. وكانوا جميعا يتوجهون تحت جنح الظلام إلى الجبل ،

ينبشون الأرض بأظفارهم ، بحثا عن شئ من الطعام لم تصل إليه النار. وكانوا دائما يجدون ، وكانوا دائما يتعجبون لبلاهة هؤلاء الناس.. الانجليز . ولو أنهم وزعوا هذه الأطعمة على سكان قرية المحسمة .. مثلا . لنال الانجليز ثواب الدنيا والآخرة ! ولكن ، هكذا شأن الأقوياء .. والانجليز على الأقل من أقوى أهل المحسمة .

المهم ان أهل القرية كانوا يعلمون انه في ساعة معينة من ساعات النهار تقبل عربة أو أكثر من عربات الجيش البريطانى فتعبر الكوبري الخشبى على ترعة الإسماعيلية ثم تنحرف يمينا نحو القرية ، ومن هناك إلى سفح الجبل ، حيث تتم عملية احراق الأطعمة على مشهد من أهل المحسمة ، وأحيانا كانت العربات تتأخر قليلا عن موعدها ، وأحيانا أيضا كانت تأتى مبكرة ، ورأى أهل القرية زيادة في الاحتياط اختيار واحد منهم كل يوم ليقف على رأس الكوبرى المتهالك ، يرقب عربات الإنجليز وهى فى طريقها اليهم ، والف الناس فى المحسمة أن يستمعوا إلى صراخ « الديدبان » يعلنهم فيه بنبأ ظهور العربات على الطريق .

وفى ذلك الصباح السعيد هتف الديدبان :

– العربية جايه ..

فهرع الناس صوب الكوبري يشهدون المنظر بأنفسهم ، وعندما رأوها سعدوا بمرآها ، فقد حدث أن إنقطع ورود العربات سبعة أيام كاملة .

ولم تكن عربة واحدة ، كانوا ثلاثا .. وعندما أصبحوا فوق الكوبري تماما سمع أهل المحسمة صوتا كالرعد ، فقد تهشم الكوبري وسقطت عربتان فى الترعة واستدارت الثالثة عائدة بأقصى سرعة ناحية المعسكرات .

ولم ينتظر أهل المحسمة شيئا ، فقد خلعوا ملابسهم جميعا والقوا بأنفسهم فى الترعة . وانتشلوا السائقين .. وراح كل منهم يجمع علب الصفيح التى تطفو على الماء ، ويغوص فى الأعماق لينتزع من طين الترعة العلب الضخمة التى استعصت على التيار . وعاد أهل القرية إلى منازلهم يحمل كل منهم مجموعة من علب الصفيح .. تحوى لحما محفوظا لم تمسه النار من قريب أو بعيد .

مجانين هؤلاء الإنجليز .. هكذا قال أهل المحسمة وهم يهتفون في شراهة غذاءهم من محتويات العلب الصفيح ولو كان هذا هو الطعام الفاسد .. أين إذن هو الطعام الصالح ؟

لابد إنها حيلة إنجليزية – هكذا قال أحدهم – ولابد أن الكبار الإنجليز يتعمدون إحراق هذه المأكولات ، حتى لايصاب الجنود بالتخمة. وأكد هذا الذي قال – قوله بحكاية طويلة عن خدع الإنجليز .. فقد سبق له أن عمل عندهم فترة خلال الحرب .

المهم أ ن قرية المحسمة سعدت ذلك اليوم وإبتهج أهلها .. فقد حشوا بطونهم بما زنته خمسة أطنان من اللحم اللذيذ السهل المضغ وهى كمية كبيرة لم تكن تحلم القرية أن تستهلكها ولو بعد جيل .

رجل واحد شهد القصة من البداية ولكنه لم ينل شيئا . فقد كان عبد المقصود يجلس تحت الشجرة عند الكوبري عندما سقطت العربة ، وكان هناك عندما إندفع سكان القرية كالسيل المنهمر صوب الترعة . وكان هناك عندما خرجوا جميعا من الماء منطلقين بأقصى قوتهم متدافعين كأنهم فى يوم الحشر الى منازلهم . كان هناك ، ورأى كل شئ . ولكنه لم يأخذ شيئا. فعبد المقصود بلا ساقين ، وصرخاته لم تستطع الوصول إلى أحد وقت الصراع الرهيب حول اقتناص أكبر عدد

ممكن من الصناديق العائمة . ورغم ذلك فقد توسل عبد المقصود لطوب الأرض فى المحسمة أن يعطيه أحد ، ولو علبه ليرى ما بداخلها . ولكن لم يرض أحد منهم .

ان المسألة مسألة رزق وهو نفسه كان هناك . ولابد أنه كان مكتوبا عليه الا يأخذ شيئا . ان لكل منا نصيبه فى الحياة ، وسيأخذ كل منا نصيبه . هكذا قال الذين راحوا يفلسفون الأمر لعبد المقصود .

كانت الشمس قد بدأت تختفى خلف قمم التلال المحيطة بالقرية ، عندما وصل عبد المقصود إلى مكانه بجوار الترعة . وكان الجنود الإنجليز قد أوشكوا على الإنتهاء من ترميم الكوبرى . حين راح عبد المقصود يفكر فى الأمر مليا ، وعيناه تبحثان فى قلق فوق سطح الماء عن شئ من حمولة الصباح .. ولكن صرخة اليمة قطعت عليه تفكيره . ولم تنقطع الصرخة ، بل تبعتها صرخات ، وشاهد عبد المقصود أشباحا تهرول وسط القرية ، وأشباحا تسقط على الأرض . والصراخ يعلو وينتشر . وكأنما شب حريق هائل في أنحاء القرية .

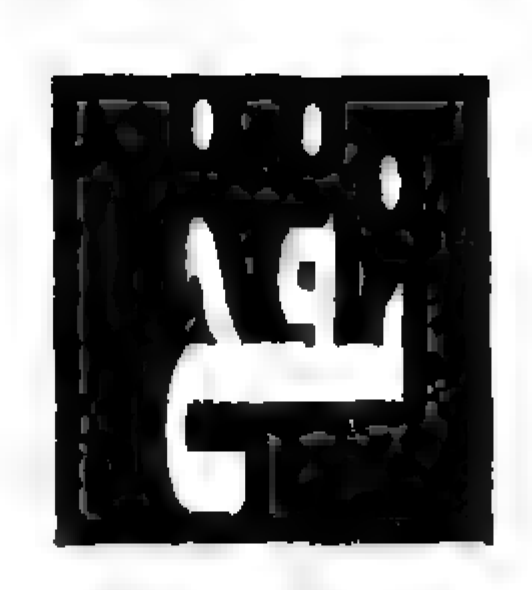
وزحف عبد المقصود من مكانه نحو قلب القرية مستفسرا عن حقيقة الأمر وكان هناك حريق .. ولكن في بطون أهل القرية . فقد أحس كل منهم فجأة بخناجر حادة تمزق أحشاءه . وإرتمى كل منهم يفرغ ما في جوفه من طعام . وخرج بعضهم يجرى كالمجنون في أنحاء القرية بحثا عن شئ لا يدركه . ولم تمض ساعات حتى كانت قافلة من عربات تجرى على الطريق بسرعة نحو القرية ، ولكنها كانت عربات من نوع جديد . وكانت أجراسها تدق دقات منتظمة رهيبة . وعندما وصلت راح الرجال الذين كانوا بداخلها يحملون أهل القرية على نقالات إلى جوفها . وعبد المقصود يشهد كل ذلك عن كثب ، فهو الوحيد الذى

لم يشعر بألم . وإن كانت أمعاؤه تلتوى من الجوع ورنت كلمة «تسمم» فى أذنه في الوقت الذى شاهد فيه رجال الإسعاف يحملون معهم ما تبقى من علب اللحوم المفتوحة والمقفلة . هل جاءهم من العلب ؟ لا يمكن ، أن عبد المقصود يذكر جيدا أن أهل القرية يأكلون هذا الطعام منذ أن عسكر الانجليز إلى جوارهم فلم يصبهم التسمم يوما ، لابد أنه المغص أصابهم من جراء مياه الترعة الباردة في هذا الوقت من الشتاء .

وزحف عبد المقصود نحو الحائط ليفسح الطريق لعربات الإسعاف التى إنطلقت وسقطت علبة كبيرة من العربة الأخيرة .. علبة كاملة لم تفتح بعد، تدحرجت على الطريق ، واستقرت إلى جوار عبد المقصود ، ومد يده فالتقطها . وراح يقلبها بين يده يتفحص جوانبها . ثم زحف من جديد على أرض الشارع فى طريقه إلى مكانه المعهود عند جسر الترعة . وعندما وصل إلى هناك كان الظلام قد بدأ ينشر أرديته على القرية وعلى التلال المحيطة بها . والجنود الإنجليز قد أوشكوا على ترميم الكوبرى . وأسند ظهره إلى جذع الشجرة العجوز .. وأبصرَ قافلة عربات الإسعاف تنطلق أمام عينيه من بعيد نحو التل الكبير .. وأضواؤها تبدو خافتة . ورنت فى أذنه « قرقرة » بطنه الخاوية كأنها صرخات أهل القرية . ومد يده فالتقط حجرا دق العلبة فأحدث بها ثغرة واسعة . وغاص بأصابعه الخمسة في جوفها . وراح عبد المقصود يمضغ اللحم الطرى في لذة فائقة . وأحس بالراحة تسرى فى كيانه ، وبالسعادة تغمر نفسه . والقى عبد المقصود بالعلبة الفارغة ، وتنهد بارتياح عميق . وتدحرج رأسه الكبير على صدره البارز العظام . وراح عبد المقصود فى نوم عميق . .

✿ ✿

مادام هناك نساء



الشاويش عبد الرحيم من شدة الضجر ورفع يده إلى فمه فمسح شفتيه ، ثم أمال طربوشه إلى الخلف قليلا، ووضع البندقية بين ساقيه وأخرج منديله المحلاوى فجفف به عرقه الذى يتساقط من جبهته العريضة على غضون وجهه الكالح البارز العظام .. ثم اعتدل الشاويش فى وقفته فأصبح مثل شجرة عجوز يابسة ثابتة فى الأرض .. وتلفت فى أنحاء العربة الأخيرة من قطار بور سعيد .

وكانت العربة مزدحمة ، حارة مزعجة ، ورغم أن النوافذ كانت مغلقة إلا أنها كانت تبدو وكأنها تحمل مع الركاب شحنة من التراب ! .

ونظر الشاويش عبد الرحيم إلى نفسه من تحت إلى فوق ، ومن فوق إلى تحت ، كانت البدلة « الميري » كالحة مثل وجهه ، والحزام نازل قليلا عن المستوى اللائق ، والبنطلون أيضا نازل أكثر من اللازم على الحذاء ، والحذاء مغبر مجروح فى أكثر من موضع ، وحتى الرباط مفكوك ، وزوج الكلبشات مازال فى يده ، كان منذ برهة فى يدى مجرم رهيب سلمه فى القسم فى القاهرة قبل أن يعود إلى مقر عمله فى محافظة بور سعيد .

وتذكر الشاويش عبد الرحيم منظر المجرم والكلبشات فى يديه ، قفاه العريض الغليظ فى أصابعه هو النحيلة المدببة كأنها رجلا دجاجة هزيلة .

وتذكر منظره وهو ساهم أبدا ، مطرق إلى الأرض فى ذهول على الدوام. ولكن سرعان ما طرد الشاويش صورة المجرم والكلبشات والنظرة الساهمة الحزينة عن خاطره وعاد من جديد ينظر حوله فى أنحاء العربة والقطار يجرى به مسرعا كالقدر فى طريقه إلى بنها .

وحدث الشاويش نفسه فى أسى .. هؤلاء الجالسون فى بلاهة .. إنهم لا يتعبون مثله ومع ذلك ينظرون إليه نظرات يحمل بعضها معنى الشماتة لأنه واقف « زنهار » مع أنهم يعرفون أنه شاويش وأنه فى مهمة رسمية لأن البندقية فى يده والكلبشات مع استمارة السفر فى يده الأخرى .

وعاد عبد الرحيم يجفف عرقه المتساقط حافرا لنفسه فى تجاعيد وجهه النحيل قنوات .

واهتز فى وقفته وكأنه سيسقط والقطار يتأرجح وكأنه يجرى على غير قضبان ، ولم يفكر الشاويش ، فتقدم على الفور إلى ثلاثة كانوا محشورين على مقعد مخصص لراكبين ، وبلهجة آمرة تحمل الضجر الذى يحسه .. ووجه الحديث إليهم جميعا :

– فسح يا جدع إنت وهوه ...

وأفسح الثلاثة سريعا للشاويش وسقط الثالث الذى كان يجلس عند الحرف فوق الأرض .

وهكذا وجد عبد الرحيم نفسه جالسا على الكرسى والطربوش على ركبته ويده على المنديل تمسح شعر رأسه الأشيب المبلل بالعرق ، وأطرق عبد الرحيم فترة يستعيد فيها قواه ، ثم رفع رأسه فى تثاقل وتمتم فى سرعة يشوبها الضجر :

– لامؤاخذة يارجاله ...

ولم يجبه أحد من الجالسين .. ويبدو أنه لم يكن ينتظر جوابا .. فضرب يده في جيبه الخلفى وأخرج علبة سجائر من الصفيح الإنجليزى ، وأخرج منها سيجارة رخيصة وضعها بين شفتيه وأشعلها من رجل يجلس أمامه على الأرض بين المقعدين وراح يجذب أنفاسا عميقة .

وسادت فترة قبل أن يتكلم الشاويش عبد الرحيم :

– فاضل أد أيه على بنها ؟

وجاء الجواب من خلفه :

– مابقاش فاضل ...

ثم خيم الصمت من جديد .. ولكن هذا الصمت لم يتعوده الشاويش عبد الرحيم ، والرحلة طويلة ، وهو فى حاجة إلى أن يتكلم – أى كلام – ومع أى أحد ولكن كيف السبيل ؟ والذين من حوله يبدو أنهم من هواة الصمت البليغ ، وفكر الشاويش عبد الرحيم برهة ثم نظر إلى الذين حوله.. رجل فى ملابس بلدية عجوز طحنته السنون وأكلت معها نور عينيه ، وفلاح يبدو أنه لا يعرف شيئا ، والرجل الثالث الذى كان على المقعد قبل أن يجلس الشاويش فقد آثر الصمت فجلس على الأرض بجوار الكرسى .

وعلى المقعد الأمامى كان هناك أفندى يبدو أنه متكبر وخواجه من الأورام ، ورجل فى ملابس متسخة وتحت قدميه صفيحة تحدث ضجيجا كلما إهتز القطار .

ونظر الشاويش إلى الرجل المتسخ وراق له أن يتحدث إليه ، فهو وحده الذى يبدو فى حاجة إلى الحديث .. وهو أيضا الذى يستطيع أن يتحدث إليه دون أن يخشى منه صدا .

وبلهجة باردة قال الشاويش للرجل المتسخ متسائلا :

– بتشتغل ايه ؟

وانتفض الرجل مذعورا ، وأدار رأسه الصغير الحليق كقطعة بطاطا مسلوقة فى كل إتجاه ، ثم أجاب أخيرا بعد أن تأكد أنه هو المقصود بالسؤال وان السؤال قد يكون للتحرى :

– فى الخردة ...

وفتح الشاويش عبد الرحيم فمه فى دهشه بلهاء وهز رأسه قبل أن يقول :

– فى مصر .. والا فى الإسماعيلية ؟

– فى مصر بإذن الله ... إنما باشترى الخردة من الاسماعيلية .

وعاد الشاويش عبد الرحيم يقول :

– من الكنوبة ؟ (جمع كامب) .

وابتسم تاجر الخردة فى إطمئنان ودهشة لمعلومات الشاويش الواسعة .. وأجاب :

– أيوه ...

ولكن الحديث إنتهى عند هذا الحد .. وفكر الشاويش فى موضوع أخر للحديث ، غير أن تاجر الخردة فاجأة بقوله :

– أنا واخواتى :

وانفرجت أسارير الشاويش عبد الرحيم عن ابتسامة هادئة كانت عابرة بوجهه الكادح المنهوك وقال في هدوء شديد :

– واخواتك معاك ؟

– ايوه ... ستة ... وعايشين مع بعض .

– ربنا يخلى ...

وهز الشاويش عبد الرحيم رأسه فى غير عنف وكأن فكرة رائعة قد لمعت فى ذهنه ... ثم قال :

– تعرف ! العيلة اللى زى دى ، مايفرقهاش الا الحريم .

وعلى الفور نطق الرجل العجوز الجالس إلى جوار الشاويش عبد الرحيم :

– قطت الحريم وأيامها . هم اللى جايبين الكافية للعالم .

وهتف الشاويش عبد الرحيم مؤمنا على حديثه :

– اسم الله عليك ... هم سبب الفساد والبلاوى ... إنما الراجل «الجدع» صحيح هو اللى يعرف يدق مراته على رأسها ... تعرف ... أنا كان عندى حريم في البيت ... على الطلاق من دراعى ماكانوا يبصوا من شباك ولا من باب .. ماعندناش مسخرة أبدا .

وهتف تاجر الخردة :

– ونعم الرجال ... مفيش كلام .

وخيم الصمت من جديد ، وتناول الشاوبيش عبد الرحيم كبريت من الخشب وراح يحفر به أسنانه السوداء التى نخرها السوس ، ولكنه سرعان ما قذف بعود الكبريت إلى الأرض وقد ظهر الغضب على وجهه بعد أن سال الدم من فمه ولطخ شفتيه ، ونظر الرجل ذو الملابس القذرة إلى الشاويش فى ألم مفتعل ، وفى وجهه يبدو الرياء الشديد والرغبة فى النفاق، وهز الشاويش عبد الرحيم رأسه فى غضب وعصبية ومصمص شفتيه أسفا قبل أن يقول :

– تعرف ... كبريت اليومين دول سم !

وظهرت الدهشة على وجه تاجر الخردة وتساءل مستنكرا قول الشاويش :– سم ... ؟!

– أيوه سم ... تعرف كبريت زمان كان فيه البركة ... ياسلام !

وهز تاجر الخردة رأسه مؤمنا على رأى الشاويش وهتف مسرورا :

– كلام حلو ... الكبريت بتاع اليومين دول شغل بره ، كل شغل بره سم !

وكان القطار قد دخل محطة بنها وأخذ الناس يستعدون للنزول ، ورغم أن عدد النازلين كان كثيرا إلا ان الزحام ظل على أشده والضجة الهائلة تمزق ماتبقى من أعصاب الناس ، وظهر على الافندى الجالس أمام الشاويش الضيق الشديد بسبب الزحام وكان الشاويش منهمكا فى تجفيف عرقه بمنديله المحلاوى العريض عندما لمح على أسارير الافندى هذا الضيق الشديد فمال بجسمه إلى الأمام وقال للأفندى بهمس مسموع وكأنه يدلى اليه بسر خطير :

- تعرف الزحمة دى من ايه ؟

ولم يجب الافندى ، فواصل الشاويش حديثه قائلا :

- من الإنجليز !

- إنجليز ؟!

هتف بها الأفندى فى دهشة ، اذ لم يكن فى العربة انجليزى واحد ، وابتسم الشاويش فى خبث من يعرف الأسرار جميعا ، وقال بنفس الصوت الخافت المسموع :

- أنا مسكت دوارية سبع سنين عند الكنوبة .. تعرف الانجليز دى ، ربنا غضبان عليها .

وهتف بائع الخردة مسرورا :

- الله أكبر .. ياسلام .. كلام زى الشهد .

وقال الشاويش عبد الرحيم فى كبرياء :

- أمال ... وتعرف غضبان عليهم ليه ؟! هناك الست زى الراجل ، والراجل ده ولا حاجه !! .

وعاد الرجل العجوز الذى طحنته السنون ينصت فى اهتمام بالغ ثم أخرج علبة نشوق أخذ منها حفنة بين أصابعه وراح يعطس بشدة .. وأخرج الأفندى منديله ووضعه على فمه وقد أدار وجهه إلى الناحية الأخرى ، ولم يترك الشاويش هذه الفرصة تمر دون أن يتحدث ، فقال للأفندى :

– والله ما فيه حاجه بتحوش المرض أبدا ، ده كله أمر ربنا ، تعرف أيام الكوليرا ، كنت آكل بلح من غير غسيل ، ولا اتحقنت ولا حاجه ، دى الحقن بتجيب العيا !! .

وضحك الشاويش عبد الرحيم ضحكة هزيلة قبل أن يستطرد فى الحديث :

– تعرف أيام الكوليرا دى بقيت أقول اياك تمسح صنف النسا من على وجه الأرض ، كان العالم صحيح يرتاح .

– مضبوط والله .. كلام زى الشهد .

هكذا صاح بائع الخردة وهو يناول الشاويش سيجارة رخيصة من سجائره ، وبعد أن أشعلها له صاح من جديد :

– ده الستات دول لعنة ...

وعقب الشاويش قائلا :

– تعرف .. مش كله !

– أيوه ... مش كله ... مضبوط !

– اسألنى أنا ... حاكم أنا لفيت الاربعتاشر مديرية ، مدرية مدرية ، فيه ستات تمام ، تصلى وتصوم وتعرف ربنا مضبوط ، إنما دى واحدة فى الالف ، ويمكن فى المليون ! .

– مضبوط ... فى المليون ، ده أنا كنت أعرف واحدة ست بتضرب جوزها بالشبشب ! .

– تعرف ايه ... هو إنت شفت حاجة ، بقولك اسألنى أنا ، ده ياما ناس من النوع ده ، أمال هو غضب ربنا ده من شويه ... سيدنا الخضر قال عليكم بالنسا هم أصل الفساد .

وظهرت النشوة على وجه بائع الخردة وهتف فى ارتياح :

- ياسلام ... ونعم يا عم .

وعاد الشاويش يقول :

- أمال ، دى حاجات مثبوتة كلها بس فين اللى يقرا واللى يسمع .

وقال بائع الخردة فى زهو :

- مضبوط ... أهو ياما ناس بيقروا ويكتبوا ، انما فين الناس اللى تعرف الكلام المفيد ده !

وقال الشاويش عبد الرحيم :

- الكلام ده وغيره ، ياما فيه كلام زى الشهد ، إنما طول صنف الحريم ده ماهو فى العالم مافيش فايده .

وكان القطار قد غادر « منيا القمح » فى طريقه إلى « أبو حماد » .. وأخرج الشاويش ساعته الضخمة من جيب سترته ومسحها بمنديله ثم هز رأسه فى اعجاب :

- ياسلام ... سواق « جدع » صحيح .

وهتف بائع الخردة :

- من بختنا ...

ونظر الشاويش عبد الرحيم إليه نظرة كبرياء وقال فى زهو شديد :

- تعرف ... أهو اللى زى ده تلقاه بعيد عن صنف النسا ، أنا أيام ماكنت متجوز بصراحة يعنى كنت مش ملتفت لعملى ، دلوقت مابونش .

ومال تاجر الخردة إلى الأمام وهمس للشاويش وكأنه يلقى إليه بسر رهيب :

– أمال الست فين دلوقت ؟!

وتنهد الشاويش عبد الرحيم فى أسى عميق :

– ياه .. تعيش أنت ... كانت صاحبة عيا ، وربنا افتكرها من عشرين سنة ، ومن يومها والله ... صمت عن صنف الحريم ده ... من خمستاشر سنة جيت أجوز تاني ، بنت جماعة من بلدنا ، قعدوا يتحكموا .. المهر قد إيه .. والعفش ايه ... والسكن ايه ، حلفت ياشيخ ميت طلاق من دراعى ماتجوز ، قلت يعنى حاجيب ايه ، أهى تهمة ... ومن يومها .

– عين العقل ، ونعم الرجال ، أنا راخر وحياتك دلوقت بتاع أربعين سنة سن انما مافكرتش فى جواز من أى حرمة ، حاكم أنا ساكن مع أمى ، واحده ست عجوزه تصلى الوقت بوقته وست أخوات ، ولامؤاخذة عايشين كلنا فى مطرحين ، هاتجوز أوديها فين ؟ كفاية الواحد يدوب يعرف يجيب لقمة العيش وبس .

– ريحت نفسك والله من الخوته وعدم الراحة ، تقطع الحريم وأيامها . وكان القطار قد بدأ يزحف ببطء نحو رصيف محطة أبو حماد ، وعندما توقف تماما كان الازدحام الشديد قد خف بعض الشئ .

وصعد بعض الناس إلى العربة ، عامل وأفندى وبائع كازوزة وأفندى وامرأة ... امرأة جميلة مشمشة مثل الصباح الجميل ، وهدأ الركن الذى كان يجلس فيه الشاويش عبد الرحيم والافندى والخواجة ،

وهدأ تماما ، وقد تسمرت عيون الشاويش وبائع الخردة على الحسن الصارخ الملفوف فى الغلالة الرقيقة السمراء ، التقت عينا الشاويش عبد الرحيم بعينى بائع الخردة ... كان الأخير يلعق شفتيه ولعابه يسيل من جانب فمه المفتوح .

ومضت فترة صمت قصيرة قبل أن ينهض الشاويش واقفا ليصلح من هندامه ، وعيناه لا تبتعدان عن المرأة التى وقفت فى ركن قريب ... وأصلح الشاويش عبد الرحيم من الحزام ، ورفع البنطلون إلى الحد اللائق ، وثبت ياقته المنشاة وأحكم تثبيت زراير الجاكتة ، وأخرج منديله المحلاوى الذى كان يمسح به عينيه منذ برهة فبلله بلعابه وانحنى حتى الأرض فمسح الحذاء فى همة قبل أن يعتدل واقفا من جديد ... ومر بائع غازوزة ، فأصطدم بالسيدة فاحتجت ، وثار الشاويش ثورة عنيفة :

- إنت يعنى عميت ... مش شايف الست ، صحيح ناس مافيش عندكم دم ، عالم ايه الزلط دى ! .

- كلام مضبوط .. ناس مايختشوش ، وتقدم الشاويش خطوتين إلى الأمام وفى يده البندقية والكلبشات على الكرسى وابتسم للسيدة فى حياء :

- اتفضلى ياست .

وفى حياء مصطنع ودلال ظاهر قالت السيدة :

- اتفضل إنت ... كتر خيرك .

وابتسم الشاويش فى خبث قبل أن يقول :

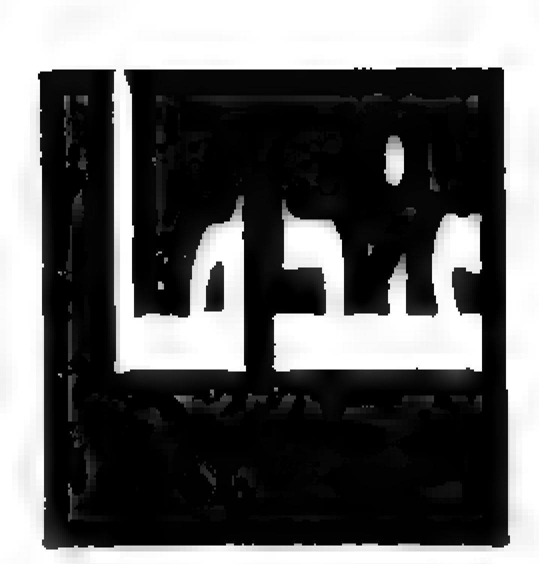
- ده واجب ياست .. اتفضلى انت من الزحمة .

و « تفضلت » السيدة وجلست ودار حوار طويل قبل أن يعرف الشاويش انها فى طريقها إلى أختها فى شارع الثلاثينى بالإسماعيلية.. وإنها ستمر فى طريقها الذى سيمر به وانه أيضا سيقوم بمهمة توصيلها إلى المكان الذى تريد .

وعندما وقف القطار فى محطة الإسماعيلية خرج الشاويش ومعه السيدة ، فعبرا الكوبرى معا وخرجا من الباب العمومى إلى الميدان الفسيح ثم توقف الشاويش فجأة ولم تنتبه السيدة الا والشاويش يجأر بأعلى صوته : جاى .. جاى .. جاى .. ثم جرى بأقصى سرعة إلى داخل المحطة ، كانت خاوية هادئة إلا من بعض الباعة والحمالين ، والقطار الذى كان هناك منذ لحظة تركها فى الطريق إلى بور سعيد ، وزوج الكلبشات قد نسيه الشاويش داخل العربة ومعهما « أورنيك » تسليم المجرم فى محافظة مصر، وتاجر الخردة اختفى هو الآخر عن الانظار .

✿ ✿

مولد الشيخ حمزة



عبر محمود الدسوقى كوبرى شبرا البلد كانت الشمس قد أخذت تعلو فى الأفق باعثة حرارتها القوية الشديدة فى يوم من أيام شهر أغسطس القائظة ، وكان التعب قد استبد به تماما رغم إنه لم يكن قد قطع من الرحلة الطويلة التى فرضتها عليه الظروف إلا شوطا قصيرا . فهو منذ الصباح الباكر يلهث متعجلا على الطريق قاطعا المسافة من صحراء العباسية حيث مقام الشيخ حمزة فى طريقه إلى قريته بهناى بالمنوفية .

ورغم إنقضاء كل هذه الساعات الطوال إلا إنه لم يقطع شيئا يذكر ولم تزل أمامه ساعات أخرى طويلة فى مثل هذا القيظ الرهيب . ويسمل محمود الدسوقى وهو يرفع ذيل جلبابه الأسود الكشميرى ليغطى به رأسه وخطا نحو اليمين محتميا بظل الأشجار الطويلة البائسة التى تعرت من أوراقها قبل الأوان .

وعاد محمود يذكر وهو يحث الخطى على الطريق ما حدث له بالأمس.. الأمس !!؟ ياله من يوم رهيب مر عليه وكأنه عام رغم وجوده على بعد أمتار قليلة من ضريح سيدى حمزة صاحب المعجزات والكرامات التى تدوى كالطبل فى أنحاء المنوفية ، وابتسم محمود الدسوقى رغم الاعياء الشديد فانفجرت ابتسامته عن فم واسع مهجور. ولثة خربها الداء وسنة واحدة متآكلة تقف وحدها فى الفم الواسع العريض كأنها شاهد قبر فى صحراء مجهوله الحدود ..

ورفع محمود يده يجفف عرقه بذيل جلبابه دون أن يبعده عن رأسه ثم دس يده فى طيات ملابسه الداخلية حتى لامست ظهره المحدوب وأخذ يهرش فى حركة منتظمة وبصوت رتيب مسموع ، وأزاح ذيل جلبابه قليلا إلى الخلف من رأسه ورفع عينيه إلى السماء وحملق فى قرص الشمس التى بدت كطاقة جهنم ..

وإستعاذ محمود من جهنم ومن قرص الشمس ، ثم جال ببصره فى الفضاء الواسع العريض ، كان الهواء لزجا راسبا فى كثافة على مقربة من سطح الأرض ، وثمة طيور تطير شردة نحو الشمال فى بطء ممل ، ثم غض بصره نحو الأرض ونفخ فى شدة ، وزام فى أسف عميق ، وراح يتذكر وهو يتدحرج على الطريق الجاف المغبر الطويل ماحدث له .. منذ الصباح الباكر لأول أمس .. وهو نائم كالكلب بجوار الفرن « ومباركة » زوجته تعد له « طرحة » العيش القمح ، والخروف بجوار الفرن ليحمل هذا فى الصباح للشيخ حمزة ..

كان النهار قد انبثق والشمس لم تظهر بعد ومحمود يهرول على الطريق الزراعى ساحبا الخروف فى عنت والنوم لم يبرح جفونه بعد ،

ومباركة تتقدم تحمل « مشنة » العيش على رأسها حتى وصل الركب إلى النقطة الثابتة ، وأكثر من عربة أوتوبيس مرت أمامه وهو لايستطيع الركوب ومعه الهدية المبروكة لأن الكمسارية لم يكونوا سمعوا بعد بسر الشيخ حمزة الباتع ..

ووصل محمود أخيرا إلى القاهرة قبل الظهر بقليل ، وقطع المسافة من شبرا إلى العباسية على قدميه و « المشنة » فوق رأسه والخروف يسحبه بحبل طويل علقه فى رقبته وقدميه ..

وعندما وصل إلى المولد لم يكن هناك خلق كثيرون ، كان الحر شديدا مرهقا ، والشيخ حمزة الصغير ممددا على السجادة العجمى الفاخرة ومن حوله بعض المريدين الذين ظلوا على ولائهم للشيخ الصغير بعد أن انتقل الشيخ حمزة الكبير إلى مولاه ، وضريح الشيخ الكبير يتضوع عبيرا ونورا ، والمكان كله يعبق برائحة البخور ، ودار رأس محمود الف مرة قبل أن ينادى على الشيخ حمزة ، وهكذا نهض الشيخ من مجلسه متثاقلا ومن خلفه مريدوه

حتى وصل إلى محمود فلم يتمالك الاخير نفسه فانكب على يده مقبلا اياها قبلات سريعة متلاحقة .

وهكذا أفلت الخروف من يد محمود وشرد فى الصحراء الواسعة كاملة ومحمود يجرى خلف الخروف الشارد متوسلا بطوب الأرض « حلق ياجدع .. إمسك ياخويا » والشيخ حمزة ومريدوه يشرفون على عملية المطاردة حتى إستطاع محمود أن يمسك بالخروف بعد أن فقد ماتبقى فيه من جهد قليل - وسحب الخروف من أذنيه حتى سلمه للشيخ وعلى شفتيه إبتسامة عريضة إستطاع ان ينتزعها فبدت صفراء باهته لا معنى لها ..

وهمس الشيخ فى أذن واحد من الملتفين حوله وسرعان ماظهرت بالقرب من الجمع المحتشد عربة فارهة نزل منها سائق حمل الخروف داخلها ثم انطلق بها مثيرا خلفه غبارا شديدا آذى عينى محمود رغم إنه كان وقتئذ مطرقا إلى الأرض فى حياء شديد .

لم يدر محمود أين ذهب الخروف ولكنه عرف مصير « المشنة » فقد دخل بها رجل عجوز مخترقا الساحة الكبيرة إلى ركن قصى حيث يقوم بعض الرجال بالطبخ على قدم وساق لتجهيز العشاء للوافدين من الريف والمدينة لأحياء الليلة الكبيرة لمولد سيدى حمزة ، وعندما رفع محمود عينيه إلى أعلى لم يجد الشيخ ولا أحدا من مريديه .. فحمد الله فى سره لأنه كان يود الجلوس ليستريح ..

وجلس محمود قليلا على الرمال الناعمة الباردة حول الضريح .. ولكن قلبه كان يأكله لزيارة أخيه فى القلعة ، لم يكن له سواه ... وقد هجر القرية صبيا وجاء إلى المدينة واشتغل صبى بقال وموزع عيش « فينو » أبيض ثم خفير ثم نشبت الحرب فكون نفسه واستطاع أن يمتلك لنفسه بيتا وان يتزوج واحدة من مصر طويلة وبيضاء مثل الجير ولم يعد بينهما اتصال إلا فى مثل هذه المناسبات القليلة .

وخلع محمود نعليه ودخل إلى الساحة الكبيرة ومن ثم انفلت الى ضريح الشيخ حمزة فقرأ الفاتحه مرات مترحما على والديه وعلى أموات المسلمين جميعا ، ثم دار حول الضريح مرات متمتما بضع امنيات ساذجة ثم دار حول الضريح من جديد قبل أن يغادر المكان كله وهو يمسح وجهه بيديه فى طريقه إلى القلعة .

ووصل محمود إلى منزل أخيه بعد العصر بقليل فتوض وصلى العصر ثم القى عليه أخوه عدة أسئلة قصيرة عن البلدة وحال الذين

فيها أجاب عليها محمود فى إختصار شديد ، ثم قص على أخيه وهو جالس القرقصاء يتناول طعامه من بقايا طعام الأمس قصته مع الخروف فى البلدة عند الفجر وفى صحراء العباسية عند الظهر ، وبان الغضب الشديد على وجه أخيه وهو يستمع إليه ثم صرخ فى وجهه مؤنبا :

- إنك أولى بهذا الخروف ، هل أكلت حتى حمدت الله وشربت حتى ارتويت ، ثم لم يبق إلا موالد الأولياء وأضرحة المشايخ ، ستعيش وتموت « فلاحا » لاتفهم حالة الدنيا وكيف تسير الان ..

ورفع مبروك - وهذا اسمه - ساقيه وضم يديه حولهما على هيئة دائرة وعاد يصرخ فى محمود ..

- أنظر إلى ، هل أرسلت شيئا ، هل ذبحت دجاجة .. لماذا لاتفعل مثلما أفعل ، أو إنك تفعل هذا لكى يقول الناس « واله محمود راجل عال وعمدة » ، لماذا لا تعيش فى حدودك أيها الابله ثم ... وهرش مبروك فى أنفه قبل ان يقول :

- ثم أخوك .. أليس أولى من الشيخ حمزة ، هل يأكل الشيخ حمزة.. هل يشرب .. ان أولاده فى بحبوحة من العيش . فابنه حمزة الصغير مدير فى الوزارة والاخر طبيب والثالث ضابط بوليس والرابع فى الجامعة ، وأنت ؟ لاشئ ، لم يكن عندك سوى الخروف وقد سحبته بنفسك للشيخ حمزة .

ورد محمود فى خوف شديد من كلام أخيه الذى يبدو معقولا إلى حد مارغم ما فيه من كفر شديد ..

– أصله نذر علينا ..

– نذر .. هكذا صاح مبروك فى تهكم لاذع .. ومن قال لك انذر شيئا.. لايكلف الله نفسا إلا وسعها ، أراهن إنك لم تأكل اللحم طول العام وجلبابك تملؤه الثقوب وكأنه غربال ، لقد هرمت ويبست وأصبحت جلدا على عظم وستموت قبل الاوان ، ولكن لك ان تفعل ماتريد فلن أنصحك حتى تموت .

وتوقف محمود عن ازدراد الطعام الذى أمامه رغم إنه كان يحس جوعا يمزق أحشاءه ، وجذبت زوجة أخيع غطاء رأسها إلى الأمام حتى لامس حاجبيها وقالت فى لهجة مضغوطة وكأنها تتحدث من أنفها .

– أكمل أكلك ، وإلا الكلام اللى فى صالحك يزعل ، إحنا مالناش دعوة ، كل واحد عقله فى راسه يعرف خلاصه .. ثم قامت فغادرت الحجرة على الفور ، وظل الرجلان صامتين كأنهما تمثالان من النحاس حتى بعد أن نهض محمود وغسل يديه ثم عاد ولبس الحذاء وتأهب للخروج ، ولم يحاول أخوه أن يستبقيه بل مد يده فى فتوربورقتين من فئة العشرة القروش دسهما فى يد محمود الذى طوى أصابعه الخمسة عليهما على الفور ، ودون أن يستدير لمواجهة أخيه فتح الباب فى هدوء وإنصرف عائدا إلى العباسية ..

وصل محمود إلى ساحة المولد فى المساء .. كانت الأنوار تتلألأ من بعيد وصوت مرتل التواشيح يدوى فى الميكرفون ، وخلق كثيرون يحومون فى الساحة الكبرى فى ملابس بيضاء ، والليلة الختامية تبدو عامرة جميلة لائقة بمقام الشيخ حمزة الكبير .. وصدم محمود فى احلامه عن « العشوة الطيبة » التى كان يمنى نفسه بها ، فقد قدم

العشاء منذ الساعة الخامسة وظل الجميع يأكلون حتى الثامنة مساء والذين حضروا بعد الثامنة لم يقدم لهم شئ فجلسوا فى الساحة الكبرى حول الضريح يزفرون وقد فترت حماستهم للمولد وراحوا يتحدثون فى أمور شتى متصلة اتصالا وثيقا بالمعاش والرزاق ، وافترش محمود الأرض وسط مجموعة من قرى مختلفة بالمنوفية جمعتهم الليلة المباركة ، وكان الحديث يدور كله حول كرامات الشيخ حمزة وكيف ان خلقا كثيرين حضروا الليلة من بلاد بعيدة وأكثرهم ممن لم يكونوا على اتصال به فى حياته التى امتدت عشرات السنين .

وراح كل منهم يتحدث عن كرامات الشيخ التى سمع بها والتى رآها بنفسه . وكان يتزعم الجميع الشيخ حسنين فهو أعلمهم جميعا بكرامات الشيخ ، فهو ينيف على السبعين وكان من الواصلين على الشيخ ومن صحابته المفضلين .. وذكر الشيخ حسنين واقعة حدثت فى صباه وكانت فى مولد الشيخ معروف والد الشيخ حمزة الكبير وكيف ان الالاف المؤلفة التى هرعت لاحياء الليلة أكلت حتى شبعت من خروف واحد و « مشنة » عيش واحدة لأن يد الشيخ حمزة كانت مبروكة بفضل الله .. وتململ محمود فى جلسته وهو يستمع لفضائل الشيخ حمزة الكبير ، وتحسر لأنه ليس حيا الان ، اذن لاستطاع محمود أن يتناول عشاؤه فلا يعانى غضة الجوع كما يعانيها الان ، وفكر محمود فى أن يشترى شيئا يأكله ، ولكن كل ما معه ثلاثون قرشا ، سيركب بعشرة ، والريال سيقطع به جلبابا للولد سيد ، وهو يستطيع أن يصبر حتى الصباح القرية فى الضحى ويستطيع أن يأكل هناك مايريد .

وكان الحديث بين المجموعة قد إنتقل من واحد إلى آخر وصمت المجلس كله بعد ذلك ، وطالت فترة الصمت ، وكان الجوع قد نال من الجميع فاضطجعوا على الرمال يحدقون فى النجوم .. وفجأة هتف محمود بصوت غير مسموع .. وكأنه لم يكن يقصد أن يقول .. « أنا جبت خروف النهاردة » .. وانتفض جاره عبد المقصود وشب على ركبتيه وقد مال بجسمه إلى الأمام مستندا بيده اليسرى إلى الرمال وهتف صارخا فى وجه محمود :

- بتقول ايه ؟

وهرش محمود قفاه قبل أن يقول وكأنه يعتذر عما قال :

- ده نذر علينا ، خروف لامؤاخذه سمين .

وخبط عبد المقصود كفا بكف وهو يلعن كل شئ ، ومع كل شئ هذه أجداد الذين نسلوا محمود منذ عهد أدم إلى اخر الزمان .

- بقى خروف يابغل وقاعد بطنك تصوصو من ..

ولم يواصل عبد المقصود حديثه ، فقد أقبل الشيخ حمزة عليهم فوقفوا جميعا ، ونظر إلى كل واحد منهم بعينيه الناعستين الجميلتين، ووجهه الأحمر السمين المستدير وبشرته الناعمة اللامعة الحمراء ، ومد يده البضة المشربة بالحمرة فاختطفها محمود بسرعة وطبع قبلة طويلة وسأل الشيخ وعلى شفتيه ابتسامة مضيئة :

- عسى أن تكونوا فى خير حال ، وان يكون العشاء قد قدم لكم جميعا، فإن الدنيا « هايصة » كما ترون ، وهذه ليلة مباركة نسأل الله أن يعيدها عليكم بالخير والبركات .

وزام عبد المقصود ولم يتكلم ، وهرش الشيخ حسن قفاه وتحول الاخرون يبحثون فى الرمال عن أخذيتهم أو عن شئ آخر علهم يكونون قد نسوه هناك ، وتولى الاجابة محمود فهتف صارخا :

– الحمد لله ، خير الله كثير ، وبركة الشيخ كثيرة .

وإنصرف الشيخ بعد أن أعلن الجميع عن اقتراب موعد « حضرة » الذكر ليستعدوا لها ..

وأقبل الجميع على ساحة الذكر ، وانفلت محمود بعيدا فأخرج القروش الثلاثين وعدها أكثر من مرة ، ثم اختار لها مكانا فى السروال عند الجنب الايمن ، ومن ثم اتجه إلى حلقة الذكر فأخذ مكانه وراح يتطوح فى حركات منسجمة مع الصف الطويل من الرجال ، وكان الجوع والإرهاق قد هدأ كيانه وسلبا حيويته وقدرته على حركات الذكر ، ولكن ما أن مر الوقت ومست الجميع الرحمة الربانية ، وطفا الزبد على أفواه البعض وتدفق العرق غزيرا من جباه الرجال حتى اندمج محمود هو الاخر وذاب فى الذكر حتى نسى متاعبه تماما .. حتى أنه بعد ساعة من الزمان سقط مغشيا عليه فلم يفق إلا فى الصباح .

وتذكر محمود ماحدث له فى الصباح وهو يسير على الطريق الزراعى الطويل عند قرية سنتريس عندما فتح عينيه وكانت حرارة الشمس حامية والصحراء قد تحولت إلى جهنم وهو نائم فى مكان يبعد عن حلقة الذكر مسافة طويلة والسكون يشمل كل شئ ، سيكون عميق كثيف وكأنه ضباب ، حتى ان محمود قد ضرب رأسه بيده ليتأكد أنه مازال على قيد الحياة ورويدا بدأ يفيق وبصره يميز الأشياء التى من حوله .. الخيمة مازالت مكانها وآثار ليلة الأمس تبدو واضحة ..

قصاصات ورق كثيرة تتحرك وكان فيها حياة يهب عليها نسيم الصحراء الساخن الجاف ، وفردة حذاء مقلوبة ، وطاقية صوف مدفونة فى الرمال وآثار أقدام حافية على الطريق بين الخيمة والضريح ، والشيخ حمزة واقف وسط مجموعة من العمال يناقشهم فى صوت مسموع حول اجر الميكروفون والكراسى القطيفة التيخصصت للمقرئين والضيوف العظام .. ودس محمود يده فى طيات ملابسه يتحسس جسمه الذى لم ير الماء منذ شهور ، ومست يده نفس المكان الذى اودعه بالأمس القروش الثلاثين ، ثم هب واقفا وكأنما لدغه ثعبان.. ومن أجل البحث عن الثروة الضائعة خلع محمود الجلباب والفانلة ثم خلع السروال ، ووقف وسط الصحراء « بلبوصا » يفتش فى كل خرق عن القروش التى ضاعت مع ليلة الأمس ومضى أكثر من ساعة ومحمود يجأر بأعلى صوته وهو يلطم خديه دون مجيب ، حتى خيل اليه أن من كرامات الشيخ حمزة الصغير ان اذنه لاتلتقط مثل هذه الأصوات التى نهى عنها الله كما قال الشيخ نفسه عندما ذهب اليه محمود يشكو ماحدث له :

- اسمع يامحمود .. ان ما يفقده الإنسان ما هو إلا تكفير عن سيئات ارتكبها المرء دون أن يشعر وربما هو تعويض لمال حرام اكتسبه الإنسان دون أن يدرى بمصدره ، والدنيا على حالها منذ الأزل فى أخذ وعطاء ، وما ضاع اليوم قد يأتى به الغد وتناول محمود يد الشيخ فقبلها وعبره يتيمة تنحدر من عينيه إلى جانب فمه فى ذهول .

واختطف الشيخ يده بسرعة ودسها فى جيبه وهو يعيد باقى النقود التى نقدها للعمال اجرا عن الكراسى والميكروفون وهتف بصوت مسموع .

– عاوز فلوس ولا حاجة يا محمود .

وهتف محمود فى صوت عاجز .

– متشكر ياسيدى الشيخ أنا رايح لاخويا .

واتجه الشيخ فى خطوات واثقة مطمئنة إلى عربة كانت تقف إلى جانب الطريق واختفى داخلها وسرعان ما اختفت هى الاخرى عن الأنظار ، بعد أن أثارت خلفها زوبعة من الرمال آذت عينى محمود . واكتشف محمود وهو يبتلع حسرته انها نفس العربة التى حملت الخروف بالأمس .

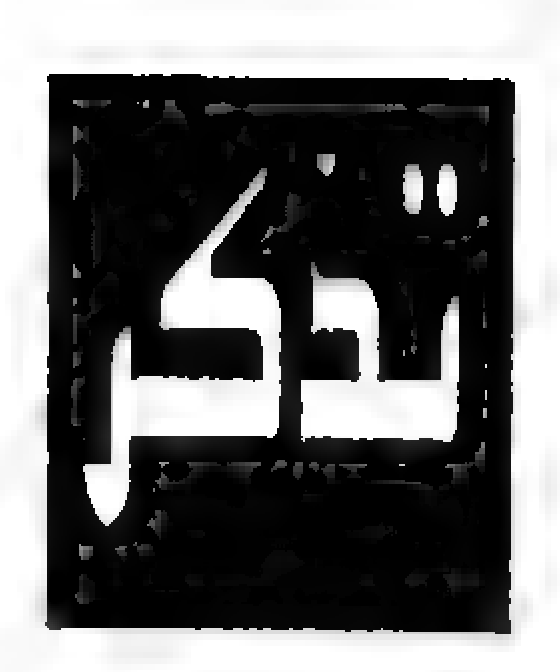
واستدار محمود وذيل جلبابه على رأسه فى طريقه إلى القلعة .. إلى أخيه .. وطافت برأسه وهو يسير مسرعا فى شارع الجيش ذكرى المقابلة الفاترة وبقايا الطعام البائت ، والكلام الموجع والنظرة المتحفزة ، والتهكم اللازع ، وارتعش بدن محمود وهو يذكر كل هذا .. وكانت القلعة تقف شامخة أعلى الجبل وتبدو لعينه هو واقف فى صرة العتبة الخضراء يرنو اليها من بعيد والأفكار المزعجة السوداء تتزاحم حوله وتسد عليه الطريق إلى هناك ، واستدار محمود الى الخلف الى شارع كلوت بك الى شبرا البلد على قدميه .

كانت الشمس قد مالت للمغيب ، ورائحة الأرض الطيبة السوداء تملأ خياشيمه ، ونقيق الضفادع أخذ يعلو فى الجو ، وعواء ذئاب جائعة هائمة وسط الحقول يأتى من بعيد ، ونباح كلاب متحفزة يحمله الريح من الضفة الأخرى للنهر .. ومجرى الرياح المنوفى يتدفق عميقا باردا مخضرا مسرعا نحو الشمال حاملا على صفحته كميات هائلة من العشب والنخيل .

وأزاح محمود جلبلابه عن رأسه ، وانحدر إلى ضفة النهر ثم انحنى يشرب بفمه من المياه الجارية وهو ينخر كالحصان .. ثم ارتقى إلى «بهنأى» على بعد خطوات من مكانه وهو يتلو الفاتحة فى همس على المنحدر من جديد وهو يمسح بيده رأسه ورقبته ، ورفع رأسه ينظر روح الشيخ حمزة ، وساقاه النحيلتان تسرعان الخطى حتى اختفى داخل مسارب القرية الضيقة ..

✿ ✿

خواجات شارع الهرم



الناس فى قرية « نكلة » قصة حسن أبو سويلم و « الخوجاية » فى تلك الليلة الباردة من ليالى الشتاء ، مع انهم كانوا قد نسوها منذ أعوام .. كانت المناسبة التى ذكرتهم بالقصة هى موت حسن بعد أن اعتكف طويلا فى المصلية التى على حرف النهر .

وعندما تهادى نعشه فى المساء وسط المصابيح والمشاعل ، وقف الناس الذين كانوا فى المقهى رافعين أصابعهم متمتمين بالشهادتين على روح الذى فى النعش .. فقد كان صديقا لهم فى أيام بعيدة ، يوم أن كان يجلس على المقهى ويحكى قصة الخوجاية البيضة التى سلبت عقله فى شارع الهرم .. وكان حسن قبل أن يموت يعمل فى الجمعية التعاونية وقبل ذلك كان فى مصر ، ولم يدر أحد من أهل القرية ماذا كان يفعل هناك ، ولكنه قبل ذلك كان يسرح خلف الجمل طول النهار من القرية إلى المدينة وبالعكس .

وأصل القصة أن حسن يسير خلف الجمل ذات صباح فى طريق الهرم فى طريقه إلى « نكلة » عندما وقف فجأة راشقا العصا المشمش

الرفيعة بين جلد ظهره وجلبابه الأزرق الرقيق ، وراح يهرش بقسوة مخترقا ظهره طولا وعرضا ، حافرا بطرفها المدبب قنوات وسط العرق والطين وظل عشر دقائق وهو يهرش هرشا متصلا محركا أكتافه خلال عملية الهرش ملتقطا أنفاسه بسرعة وهو يلهث كالكلب ، مغلقا عينيه فاتحا فمه من اللذة التى تجتاح جسده كله ..

ولم يكن فى نيته أن يكف عن الهرش أبدا ، لولا أن الجمل ترك الطريق منحرفا نحو المزارع فجرى خلفه ، وعندما استدار به نحو الطريق العام استوقفه ثلاثة أشخاص : « خوجاية » ورجلان معها ، ظلوا ينظرون إلى الجمل فترة طويلة ، وهم يحومون حوله وكأنهم لم يروا مثله من قبل ، والست « الخوجاية » تربت عليه فى حنان ، وحسن واقف خلف الجمل وكأنه ليس موجودا فى نظر هؤلاء الناس .. والتفتت الخوجاية الى حسن أخيرا ، وطلبت إليه بالإشارة أن يسمح لها بركوب الجمل برهة ، وشعر حسن عن ساعديه ، ورفع الخوجاية من وسطها إلى أعلا ، وأزاح الهواء فستانها الرقيق فكشف عن جسدها ، أفخاذ ممتلئة جميلة شديدة البياض والاحمرار .. ورائحة نفاذة لم تدخل خياشيم حسن من قبل . تفوح من الجلد الناعم الرقيق مثل الفستان الذى يغطيه .

ودارت الأرض بحسن فلم يستطيع أن يرفع الخوجاية التى أكثر من هذا، وعندما هوى بها إلى الأرض ، ارتمت على صدره فأحتضنها ، وأحس بصدرها الناهد وشعرها الأشقر الناعم ووجهها الذى يطفح دما وجمالا .. ولم يستطع الوقوف على قدميه بعد ذلك .. وأحس رغبة فى الجلوس ، فجلس متعبا على الرصيف يلهث كقطة تلد ! .

وصعدت الخوجاية على ظهر الجمل بمساعدة الرجلين ، ثم لم يلبثوا طويلا حتى ذهبوا تاركين فى يد حسن ورقة من فئة الخمسين قرشا وسعادة تغمر كيانه وترعشه .

ولعق حسن شفتيه وهو يسير خلف الجمل والدنيا لا تكاد تتسع له فى طريقه الى قريته « نكله » ويداه معلقتان على طرفى العصا من خلف عنقه وتمنى لو أن معه خوجاية من هذا النوع فيغلق عليها وعلى نفسه باب المندرة ، فلا يأكل ولا يشرب ولا يعمل ، وهو واثق تماما أنه معها لن يموت، وقفزت الى ذهنه صورة زوجته « لظيمة » فانقبضت نفسه وعاد يهوى بالعصا من جديد على ظهر الجمل حتى وصل إلى القرية ، وعشرة أيام مرت عليه فى قريته لم يغادرها وهو جالس على الدكة أمام المقهى عند حرف الترعة يحكى للناس قصة الخوجاية المبيضة التى فى لون العسل والحليب والناس تسمع وتضحك وهو يروى التفاصيل ، كيف رفعها بذراعيه ؟ وكيف طار الفستان الحريرى ، وكيف ظهر الجسد الباتع اللين الأملس كالحرير ، وكيف أصابه الدوار .. و .. و .. ثم يسكت حسن فجأة كلما قصها مرة .. وهو يعض على شفتيه ، وفى آخر الليل كان يجمع جلبابه بين أصابعه الخمسة وهو يزوم كالذئب المسلوخ بيده فى وجوه الحاضرين وملء أشداقه عبارة واحد ة :

– روحوا .. داحنا متجوزين غفر ! .

ولم يمض أسبوعان حتى طلق حسن زوجته ، وتفرغ للجلوس على المقهى ، رافضا العروض الكثيرة التى عرضت عليه لنقل المحاصيل بالجمل إلى المدينة مكتفيا بالهرش فى ظهره بطرف العصا ، ورواية قصة الخوجاية البيضة لكل من يقابله فى الطريق .

ومضى شهر وتزوج حسن فتاة بيضاء فى لون البفتة ، نحيلة مثل العصا المشمش التى لا تفارقه ولكن الذين رأوه ليلة الزفاف أيقنوا من سعادته لعرض الإبتسامة التى احتلت فمه ، وانقطع عن المقهى ، وذهب بالجمل إلى المدينة وإلى القرى المجاورة ، والزوجة الجديدة تخرج إلى الحقل، فان حسن يملك قيراطين ووقته لايسمح له بالتفرغ لزراعتهما، ومرت شهور ، وأصبحت الزوجة سوداء كغيرها من النساء فى القرية ، وكون الطين والتراب والعمل الشاق الطريل طبقة جديدة نحاسية اللون فوق وجهها ، وعاد حسن إلى المقهى يحكى من جديد قصة الخوجاية فى شارع الهرم ، مضيفا للقصة فصولا جديدة : كيف مالت هى عليه؟ وكيف ربتت على خده ؟ ومسحت بشفتيها على جبينه العريض ؟ ولم تمض أيام كثيرة حتى طلق حسن زوجته ، وفى أخر كل ليل يلعن أجداد الحاضرين وأذواقهم الفاسدة .

– دانتم متجوزين حدايات .

ومرت شهور طويلة وأصدقاؤه يهمسون فى أذنه بأسماء العذارى فى القرية ، وحسن لا يعجبه أحد ، ولا ترضيه واحدة منهن على الإطلاق كلهن غربان وكلهن « غفر » ! ولكن ثلاثة أرادب قمح كان ينقلها بالجمل من قريته إلى المنصورة ، غيرت رأيه وزحزحته عن مكانه فقد وجد ضالته فى المنصورية ، عذراء فى الخامسة عشرة بيضاء جميلة ، شعرها ناعم طويل، وعيناها واسعتان ، تعرف القراءة أيضا ولا تعرف كيف تعمل فى الغيط ، وفى نفس المساء تزوجها حسن ، ثم عاد بها إلى القرية بعد أيام ، وافتقد رواد المقاهى ونسوا قصته ، فقد باع الجمل وهجر القرية كلها ، وذهب إلى القاهرة مع زوجته الجميلة ، وعبثا حاول

حسن أن يجد عملا ملائما ولكنه لم يستطع ، وثمن الجمل يتبخر من بين أصابعه حتى لم يعد معه شئ وتقطع رقبة حسن ولايعود إلى القرية ، إنه يستطيع أن يزحزح جبلا من مكانه ، إنه قوى كالثور ، فلينزل إلى الميدان بقوته .. وفى ميدان المحطة وقف حسن يرفع الحقائب على كتفيه ، ويخطف رجله ليحضر عربة ويدخل جيب حسن كل يوم من مطلع الشمس حتى آخر النهر خمسة عشر قرشا ، المهم إنه يأكل وزوجته تنام شبعانه والحياة تمضى به وبها ، وهو فى غير حاجة الآن إلى مواجهة الفشل ونظرات الناس فى قرية « نكلة» ، واحتمل حسن كل شئ فى سبيل البقاء فى القاهرة والاحتفاظ بزوجته! وأيام كثيرة أسود من الخروب مرت عليه ، ولا يأكل ولا يشرب ، ويشاغب الشيالين ، وعساكر البوليس ، وأحيانا المسافرين ، وعرف حسن الطريق الى القسم ونام على أسفلت الحجز ، والزوجة الصغيرة يشحب لونها وتنحل ، والصفرة تضرب فى وجنتيها وتحت عينيها وعظام صدرها تبرز إلى الأمام ، وعنقها أصبح كحبة السمسم وهى تبصق دما كل صباح وحسن يرى ولا يعرف ، ثم لم تلبث أن ماتت ذات مساء ، وعاد هو إلى « نكلة » ، فقد وجد مبررا لعودته إلى هناك ، وعاد رواد المقهى التى على حرف الترعة يلتفون كل مساء حول حسن وهو يروى لهم قصة الخوجاية البيضة التى فى لون العسل والقشدة واللبن الحليب ، وأصبح فى جعبة حسن قصص كثيرة عن « الخوجاية » فى مصر ، وكلهن جميلات ، وكلهن مثل العسل الحليب ، وهن يسرن فى الطريق ، وأنصاف عرايا وأذرعتهن كالفطير ، وأرجلهن كالسمن وأصواتهم .. يامغيث !! واشتغل حسن فى الجمعية التعاونية ، يحمل الكيماوى على ظهره من الجمعية إلى البيوت ، وفى الليل كان أمامه

متسع للقصص عن خوجاية شارع الهرم ، وخوجايات مصر كلهن ، حتى التقى ذات مساء فى المقهى بجندى بوليس يعمل فى نقطة « نكلة» منقول حديثا من مصر ، شاب فى حوالى السادسة والثلاثين متوسط القامة شاحب اللون ، فمه مفتوح دائما عن أسنانه ذهبيه ، وجد حسن فيه شيئا ينقصه ويثيره فقد كان يتحدث دائما عن مغامرات نسائية قام بها فى البندر وفى الريف ، وفى كل مكان ذهب إليه ، وفى جيبه عدد من صور النساء ،كلهن بيضاوات وجميلات وسمينات أيضا ، وريق حسن يجب كل مساء وهو ينظر إلى الصور الكثيرة وكأنها أوراق كوتشينة ، ودقق النظر فى الملاءة اللف ، والأخرى الاسبور ، والثالثة الفلاحة والرابعة والخامسة ، وحسن مشغوف به وبصوره حتى أصبح يقلده فى حركاته ، ويختار نفس لون الجلباب الذى يلبسه عسكرى البوليس فى أوقات الراحة ، وأصبح جيب حسن هو الآخر عامرا بصور كثيرة لشادية وماجدة وفاتن حمامة ، اشتراها جميعا من مصر فى مشوار له مع العسكرى الصديق وتساءل العسكرى مرة عن سر عزوف حسن عن الزواج ، وكان الجواب أنه لم يعثر على بنت الحلال بعد ، ورشق العسكرى أصبعه فى أنفه ثم فى فمه ، ثم خبط براحه على فخذ حسن ثم هتف قائلا :

– واللي يجيبلك بنت الحلال ؟

وأجاب حسن بسرعة متسائلا فى الوقت نفسه :

– بيضة ؟

– وشعرها طويل ، وحاجة عال العال .

وخطف حسن رجله إلى مصر مع العسكرى ورآها وجلس معها ، بيضاء كالنهار ، وجميلة ، وسمينة كالعجل البناتى ، وتعمل خادمة فى

بيت أحد الأثرياء ، وليست عبيطة مثل الفلاحات ، وقال حسن عال ، ورد العسكرى مبروك .. وأخذها حسن فى ذراعه وعاد إلى نكلة . ولم يعد أحد يراه فى المقهى ، أصبح من بيته إلى عمله ، وجلبابه دائما نظيف ، والمداس لا يبارح قدميه ، والترعة تستقبله كل صباح وأصبحت سهرته فى نطاق ضيق ، مع العسكرى فى الليل عند حرف الترعة يشربون اقداح الشاى ويدخنون كراسى المعسل بالحشيش ، وأغلق باب المندرة فى وجوه الجميع، ولم يكن أحد ليستطيع الدخول فى المندرة إلا العسكرى ذو الأسنان الذهبية ، فهو تقريبا ولى أمر العروس وهو وكيلها أيضا فى صيغة العقد ، وحسن نشوان بالزوجة الجديدة ولا يسمح لها بالعمل فى الغيط ولا فى البيت ، ولولا العيب لطبخ حسن وكنس المندرة ، وأعد الفراش وغسل الغسيل كله ، وجلباب واحد عند حسن وعشرة عند زوجته ورطل اللحم يأكل منه قطعة وزوجته تأكله كله ، وهى تأمره وهو يطيع ، وأحيانا تحدث المناوشات بينها وبينه ، والجيران يتسمعون من خلف الجدران ، وصوته خفيض ذليل ، صوتها يلعلع بالشتائم وأحيانا ترن الصفعات على قفاه وهو صامت وربما سعيد ، وحسن يكسب كثيرا من توصيل الكيماوى للمنازل فأصبح يعمل اليوم بطوله والمكسب لفتحية ، وأيام الأسواق يقترض حسن حمارا من القرية ويعود ومعه ربطة فى حجم شوال الكيماوى مناديل مزينة بالترتر وقطع طوب حمراء اللون لغسيل الكعبين ، وكحل ولبان وبخور ، والعسكرى معه يشترى له أرخص قليلا ويفسح له الطريق وينتقى له الألوان والأنواع ، وحسن يصفق برجليه ويديه فرحا للحظ الذى هبط عليه من السماء ، الزوجة الحسناء والخل الوفى وذات مساء وكان حسن فى قرية مجاورة ، وعاد بعد العشاء بقليل

وعندما انحرف إلى داخل الدرب الذى يقطنه وأصبح إلى جوار الشباك ، سمع صوتا وهمسا فى الداخل رغم أن الظلام كان يسود المكان وتوقف حسن قليلا ينصت إلى الذى يدور فى الظلام ، وسمع حسن ضحكا ومزاحا وتبين صوت العسكرى وصوت زوجته ، وفكر حسن ماذا يفعل .. ثم لم يلبث أن انتحى جانبا فى الدرب وجلس على حجر كبير لايدرى ماذا يفعل .. وأكثر من مرة وحسن يهم بالدخول إلى المندرة ، ولكن شجاعته تخونه وقدماه تعودان به إلى حيث كان ! وأربع ساعات طوال وحسن مسمر مكانه يرسم على الأرض أشكالا مختلفة بعصاه المشمش الطويلة ، ثم فجأة برز شبح فى الظلام خارجا من المندرة ولم يكن سوى العسكرى فى جلبابه الأزرق بأقلام عريضة بيضاء ، ووقف العسكرى يتلفت حوله ، ثم مضى فى طريقه إلى الترعة ودخل حسن بعد دقائق ! كانت زوجته نائمة ، وعلى وجهها تبدو نشوة وسعادة لا حد لها ، وقد زينت بمنديل جديد ، وفى عينيها كحل غامق ، وكعبها نظيفان من أثر الدعك الشديد ، وأيقظها حسن فى قسوة ، ولكنها عندما استيقظت لم يستطع أن ينظر إليها ، وجلس حسن أمامها وهى نصف نائمة ممددة فى ارتخاء لذيذ ... وسألها حسن فجأة دون أن ينظر إليها :

– مين اللى كان هنا النهاردة ؟

وردت هى بعد فترة :

– مفيش حد .

وعاد هو يسأل وهو لا يقوى على النظر اليها :

– مفيش حد يعنى أيه ، أمال توفيق العسكرى كان بيعمل ايه ؟

وردت هي مستنكرة :

– توفيق العسكري ده ايه ، مش صاحبك ، وإنت اللي داخل معاه خارج معاه ، كمان ده راخر ، والنبي تتمسى كدة وتنام ، إنت باين عليك سكران .

وبسرعة عجيبة لهفها حسن بكفه على صدغها ، ثم انهال عليها بالصفعات واللكمات وهي ترد لع الصفعات وتعضه في ذراعه .

واستيقظ الجيران على الأصوات المنبعثة من مندرة حسن وضاع الطريق الذي استهدف له باب حسن ولن يفتح ليلتها لاحد ، وخرج حسن في الصباح الى الجمعية التعاونية ، ووجهه يبدو عليه الاجهاد الشديد وعيناه حمروااتان بلون الدم ، وجلبابه ممزق ، حتى المداس نسيه في المندرة ، ولم يحمل على ظهره جوالات الكيماوي ولم يشرب الشاي كما اعتاد ، بل جلس يرسم على الأرض أشكالا بطرف عصاه المشمش التي كان يضرب بها الجمل ويهرش بها ظهره في الزمن الذي مضى ، وتحسر على الزمن الذي طواه لاهثا منذ أعوام ، وعلى المعروف الذي قدمه للدايخة التي كانت تعمل خادمة في مصر وفكر في طريقة للإنتقام من توفيق العسكري ، وفكر في أن يقتله ، أو يذهب إلى المديرية وينقله إلى مكان بعيد ، أو يطلق زوجته ، أو يذهب إليه في منزله ويضربه ويفضحه ، ولكنه أسف بينه وبين نفسه لعجزه عن الإنتقام ، فتوفيق قوي ، وهو عسكري أيضا يستطيع أن يؤذيه . يهرش بقسوة كما كان يفعل من قبل ، وأحس بالنشوة تسري في كيانه ، ثم خطر له أن يهجر القرية قبل أن يستيقظ الناس ليتواري عن عيونهم ، ولكنه لا يملك شيئا ، وليس أمامه ما يفعله اذا هرب ، والتجربة البشعة التي مرت به في مصر مازالت ماثلة لعينيه ، ولعن حسن مصر

والخوجاية والشيطان الذى التقى بالعسكرى فى طريقه ، وتمنى لو يستطيع استرضاء زوجته فترضى ، وتمر الأيام فينسى وتنسى، ثم يأخذ حذره بعد ذلك ، فيقاطع العسكرى ، ويحرص على زوجته ، كانت الشمس قد ارتفعت فى الافق والف فكرة تطوف فى رأس حسن والعصا المشمش فى يده يرسم بها على التراب الطريق الزراعى رسوما مختلفة وخطوطا متشابكة ، وفجأة برز توفيق العسكرى من عند القنطرة مهرولا بجلبابه وعلى وجهه يبدو الشر العنيف ، وابتسم حسن ابتسامة بلهاء عندما أقترب منه توفيق والشرر يتطاير من عينيه ، ومن أنفه ينعث دخان كثيف وفكر فى أن يطلق ساقيه للريح هاربا من القرية، ولكنه لم يستطع حتى تحريك أصابعه الضخمة ، ولم يتحدث توفيق ولم يفتح مجالا للمناقشة ، بل إنهال على رأس حسن ووجهه بالكلمات ، وركله فى بطنه بالحذاء وهو يزمجر أثناء ذلك كله :

– تفضحنى وسط الناس يا ابن ....

وحسن يصرخ ويستنجد بطوب الأرض .

– حقك على ياعم توفيق ، أنا غلطان ياعم توفيق .. ورفعه توفيق من جلبابه فأوقفه على قدميه وكانت الناس قد التفت حولهما وجاءت فتحية أيضا تسبه وتضربه ، وتوفيق يقسم بأغلظ الإيمان إنه لن يتركه الا فى النقطة . وتدخل الناس و « معلهش ياسى توفيق » ده غلبان ياشاويش توفيق .

ورضى توفيق أخيرا أن يتركه على شرط .. أن يدفع ماعليه ! .

ونظر الناس إلى حسن وهو يغض بصره نحو الأرض ، علم الناس فى ذلك الصباح أن توفيق يدينه فى عشرة جنيهات دفعها ليلة زفاف

ليدفعها حسن مقدم صداق لزوجته ، ونام حسن فى تلك الليلة وفى الليالى التالية فى الجمعية ثم باع القيراطين ليدفع مؤخر الصداق والدين الذى عليه .

وظلت فتحية فى المندرة وإنتقل اليها توفيق العسكرى ، ومضت شهورطويلة وحسن بلا بيت ولا عمل ، وتعلم حسن الصلاة ، فقد كان ينام فى المصلية التى على حرف النهر خارج القرية ، وقال الناس إنه «مخاوى » .. احدى جنيات البحر بيضاء وشعرها طويل وأسنانها لامعة، وأظافرها حادة قاتلة ، وإنها تخرج إليه فى الليالى القمرية عند المصلية ، وعندما مرض العسكرى بعد ذلك ومات قال الناس إنه قد استعان بالجنية للإنتقام منه ، وإنه سينتقم غدا من زوجته ، ولكنها لم تلبث أن غادرت القرية ذات صباح إلى حيث لايعلم أحد ، وفى بعض الليالى كان الناس يذهبون إلى حسن فى المصلية وكان يحكى لهم دوما حلمه الذى رآه فى الليل وهو نائم عندما جاءه سيدى الخضر وأنبأه بقرب نهاية العالم وأن الأرض لن تلبث أن تزول بما فيها ومن فيها .. ثم لا يلبث أن يسأله أحد الحاضرين :

– وايه حكاية الخوجاية ؟

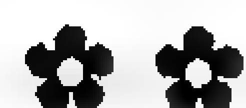
ويحكيها حسن .. ولكن بأسلوب آخر ، وذقنه التى طالت تضرب فى صدره الذى ضاق ، وعبارة واحدة يختتم بها الحديث دائما :

– اخص على الخواجات وعلى سنينهم ، دول ناس مسخرة .

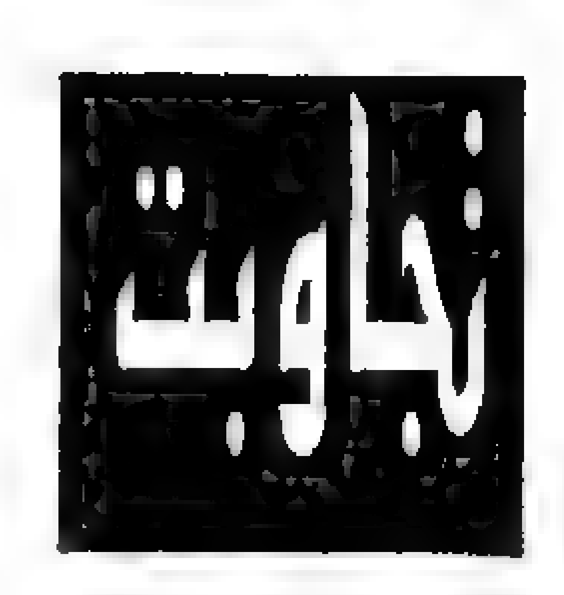
كان الرجال الذين كانوا على المقهى وقت أن مر النعش فى طريقه إلى المقابر مازالوا فى أماكنهم عندما هبطت النسوة من فوق الأكمة إلى

القرية حاملة المشاعل وقد أطفئت جميعها الا مشعلا واحدا لينير لهن الطريق ، وعندما أصبحن فى محاذاة الرجال صاح أحدهم متهكما :

- الله يرحمك ياحسن ... دول صحيح كلهم غربان ! وعض الآخرون على شفاههم وهم يهرشون فى أقفيتهم .. وتذكروا كيف كانوا يسخرون بحسن وبقصته ، وان كان كل منهم قد يتمنى فى أعماقه أن يكون له امرأة بيضاء مثل اللبن الحليب شبيهة بتلك التى رآها حسن واحتضنها بين زراعيه ذات صباح فى طريق الهرم .



جـــاء الشــتاء



جدران السـجن الصمـاء بأصداء صـرخات الحـراس الرهيبة ووقع أقدام المجرمين المثقلة بالحديد ، وهم يجرونها فى ردهات السجن الطويلة نحو مصيرهم الذى الفوه ، وإنتهت الضجة فى لحظات ، فقد اصطف المسجونون فى طابور بائس طويل ينتفضون من موجة البرد الشديدة التى وفدت فجأة على المدينة وكان الطقس بالأمس دافئا جميلا ، ولكنهم سرعان ما نسوا البرد ، فقد دبت الحرارة فى أوصالهم المرتعشة وهم يسيرون فى حماس شديد نحو الجبل ، وكأنهم فرقة من الجند عائدة من ميدان القتال إلى المدينة.

ولم يكن ثمة مايثير إنتباه أحد بين هذا الطابور التعس من الرجال الأشقياء اذ كل شئ يسير فى نظامه المعهود ، على الطريق الحجرى الطويل بين سور مضروب من الاسلاك الشائكة وبنادق الجند المصوبة فى خمول إلى صدور المجرمين .

ثمة رجل واحد كان يسير فى نهاية الطابور ، وكل شئ يبدو جديدا أمامه وغير مألوف لديه .

فقد كانت قدماه تصافح أحجار الطريق للمرة الأولى . ولم تكن تشيع فى وجهه علامات الرضا كغيره من أفراد الطابور ، بل كان يبدو قلقا وأسنانه الصغيرة الحادة كأسنان فأرة تقضم أظافر أصابعه الخمسة فى عصبية محمومة .

لقد كان كل شئ يبدو أمام عقله الصغير غريبا هذه المرة .. لقد دخل السجن من قبل مرات عديدة .. وكان هو الذى يسعى إليه .. واكن فى هذه المرة فى الليمان .. وهؤلاء الذين يمشى معهم وحوش وليسوا آدميين ، وكل منهم نجا من حبل المشنقة بأعجوبة .. إنهم موتى غير أن قلوبهم حية تنبض بالحقد المرير ..

وتعجب حسن لهذا القدر الذى جمع فى هذا الطابور عددا وفيرا من القتلة – وهو أيضا .. قاتل مثلهم .. ولكن ..

وصرخ حسن من الالم ، فقد هوت على كتفيه كعوب بنادق الجند ، فقد أخل حسن بالنظام وهو « سارح » فى وجوده الضائع .

وعاد حسن يجري وهو يلهث ليلحق بالقطيع البائس ، وعندما لحق بمكانه فى الطابور لم ينظر إليه أحد ولم يهتم به انسان .

ان كل فرد فى الطابور لايهتم بغيره ، ان نفسه فقط هى المحور الذى تدور حوله حياته .

وعاد حسن من جديد يقضم أظافره وعقله يقضم من أحشاء الماضى قصة وجوده الذى ضاع .

انه منذ عشرة أعوام وهو يمارس الحياة فى حى السبتية ، وكان يمارسها قبل ذلك بسبعة عشر عاما .. غير أن فصولها الأولى ضاعت ولم تبق منها الآن الا صور باهته . غير أنه منذ عشرة أعوام وهو يذكر جيدا أنه بدأ يمارس الحياة بوعى لكل ما يجرى حوله ..

كان فتى قويا شديد البأس كأنه ضبع ، وعندما واجه الحياة كانت نفسه تفيض آمالا عذبة : مسكن فسيح ، وعمل مستقر ، وزوجة تملأ بيته ..

ولكن كيف السبيل إلى تحقيقها ؟ بالمال .. ثم أين المال ؟ بالعمل ، صحيح أن حسن عمل خبازا مدة طويلة ، يعجن كالنساء مع خمسة من أقرانه ، وقوته تذوب مع الليل الكئيب ، وخمسة عشر قرشا هى كل مايناله حسن فى الصباح .

خمسة عشر قرشا .. وعمل تافه كالنساء ..

.. وهكذا أصبح حسن « قهوجى » فى حى السبتية .. عمل أنظف وأكثر راحة ولائق بالرجال ، والثمن واحد .. خمسة عشر قرشا ..

وفى المقهى يجلس عبيد وأصابعه العشرة تزينها خواتم من ذهب .. والصديرى الشاهى يبرز من فتحة جلبابه الجوخ . واللاسة الحريرية تلتف حول رقبته ، والحذاء اللامع فى قدميه ، وهو لايعمل ولا يجرى ، وإنما يوزع الحشيشى على الراغبين ويكسب ويتزوج ويطلق ، وله فى السبتية أكثر من عشيقة وأكثر من تابع ذليل .

وترك حسن العمل فى المقهى وجلس فيها وأصبح جيبه عامرا بلفافات الحشيش ، وعرف المارة طريقهم إليه . ولم يعد حسن يجرى ولا يلهث ، وهو يكسب جنيها وأحيانا أكثر ، ولسوف يهبط الثراء عليه

يوما ما ، فهو ليس أقل من عبيد ، بل هو أقوى وأكثر شبابا .. ولكنه افقر . والزمن الذى يجرى به كفيل بحل المشكلة ولكن الزمن كان يجرى به فى الطريق المضاد ، فقد وقعت « كابسة » على المقهى وضبط حسن ، وفر عبيد قبل أن يحضر البوليس فقد كان يعرف .

وهكذا دخل حسن السجن أول مرة ، ولم يمكث طويلا ، فقد قضى الشتاء بطوله ثم عاد إلى السبتية مع الصيف .

ولم يفلح حسن هذه المرة فى أن يصبح تاجر حشيش ، فهو مفلس ليس معه شئ ، والتجار الكبار رفضوا التعامل معه ، فهو مشبوه معرض للوقوع فى أيدى البوليس ، ومعنى هذا ضياع أموالهم كما ضاعت من قبل ، والحشيش تجارة ، والكبار فى ميدان التجارة يسحقون الصغار بلا هوادة وحسن صغير فى الميدان وعبيد من الكبار ونجح فى أن يسحقه .

عاش حسن شهور الصيف .. وهو نفسه لايدرى كيف ؟ .. المهم إنه كان يأكل ويشرب وينام دون عمل فهو منذ أن هجر المخبز وقد قرر ألا يعود اليه ، ومنذ تذوق ربح الحشيش لا يستطيع أن يقبل خمسة عشر قرشا ليخدم الأوغاد والعاطلين المتمردين فى مقهى السبتية .

ولكن شيئا ما أزعجه ، فقد حل الشتاء ، ولم يعد يستطيع النوم على رصيف الشارع ، ولم يعد يحتمل الجوع ، فالبرد قارس ، وهو فى حاجة إلى غذاء ، وليس هناك من سبيل .

وتذكر حسن والريح تعصف بوجهه الشتاء الذى مضى . وهو فى زنزانة السجن الدافئة ومن تحته البرش والوجبات الثلاث كل يوم والحياة الرتيبة .. ولا تفكير فى الغد .

وشـهدت مـقهى الكمـال فى الصـباح معـركة عنيـفة دارت بين حـسن والذين كـانوا فى المقهـى ذلك الوقت المبكر من الصـباح .. ولا أحـد يعلم السبب فى الشجار .. المهم ان حسن حطم الكراسى والأوانى والاكواب.. وأكثر من رأس .

واختـفى حسن من حى السبـتية شـهورا عديدة ، ثم عـاد مع الصيف يعيش مـثلمـا كان فى الصـيف الذى مـضى ، يأكل ويشـرب وينام .. وهـو نفسه لايدرى .. كيف ؟

وعندما جـاء الشـتاد شـهـد المقهى المواجه لمقهى الكمـال معـركة رهـيبة كان بطلها حسن .

وكمـا لم يعـرف النـاس سبب المعـركة المـاضيـة لم يستطيـعوا مـعرفـة السبب فى معـركة اليوم ، المهم أن حسن حطم المقـهى تماما ، واختـفى بين أيدى البوليس وراء جدران السجن .

وشـاعت قصة حسن فى الحى ..

وعندما عاد هذه المرة كان قد أصبح أحدوثة ، فالنسـاء يتغامزن حوله وهو ســائر بين أزقــة الحى مـن خلف النـوافـذ .. والـرجـال يـقـفـون ويفسحون له الطريق .. وأصحـاب المقاهى يحلفون بالطلاق أن يشرفهم حسن بالجلوس معهم قليلا .

وعرفت النقـود طريقها إليـه من جديد « شغلة » جـديدة وسـهلة ليس فيها عرق الفرن ولا مذلة الخدمة ولا مـغامرة التجارة فى الحشيش ، انه يطلب فقط . والناس من حوله تلبى ما يطلبه ..

وعندمـا حل الشـتـاء هـذه المرة لم يجـد حسن نفسـه مـضطرا إلى تحطيم شئ ، فـهـو يأكل ويشـرب ، والنقـود بين يديه ، وله أكـثـر من

عشـيقة ، والناس تخشاه .. حتى عبيد نفسه أصبح يهاب حسن ويخشاه ..

وعاد حسن يصرخ من الالم .. وكعوب البنادق تنهال على كتفه ، فقد أخل بالنظام من جديد وهو « سارح » فى ماضيه ، وعندما وصل إلى مكانه فى الطابور ، كان كل شئ يبدو هادئا حوله ..

وعـاد حسن من جديد ليفكر فى ماضيه بعد أن أصبح له فى الحى مكان رفيع ..

وتذكر فردوس التى استعصت على كل الرجال ما عداه .. وتذكرها وهى تخطر من أمام المقهى فى « الملاءة اللف » ووجهها الصبوح كأنه ابتسامة عريضة وشعرها المهتدل يخفى عينها اليمين ..

انه يذكرها عندما غمزت له ، وعندما لحق بها فى الزقاق الضيق الذى ينتهى إلى الدحديرة ، ثم غزواته معها ، والهمس الذى كان يدور على ألسنة الجميع ..

.. ثم يذكر وهو يحث الخطى على الطريق ، مناديل « الترتر » التى اشتراها لها .. وزجاجات الكحل التى أوصته عليها .. وأرطال اللحم الضأن التى كان يحضرها كل يوم لها .. وأنواع الفواكه التى كان يحملها معه كل مساء ، وسكوت أهلها ورضائهم رغم أنوفهم .

لقد كان ممكنا أن تسير به الحياة هكذا إلى الأبد ، فيأكل ويشرب وينعم بفردوس وغيرها .. ولكنه فوجئ بفتور من جانب الناس لم يلحظه بادئ الأمر وقد ظنه أمرا عارضا لا يلبث أن يزال ، ولكنه على مر الأيام لاحظ أن الفتور قد زاد إلى حد أن أصبح واضحا . والذين كانوا

يدفعون الاتاوات كل يوم ، أصبحوا يدفعون يوما بعد يوم ، وأحيانا يوما كل أسبوع ، ثم يوما كل شهر .

ولم يعد تكفيه القروش القليلة ، أنه فى حاجة إلى مال وفير ، ليأكل كما اعتاد وليدخن وليلبى طلبات فردوس التى تزداد يوما بعد يوم .

وفكر طويلا فى الأمر .. ماذا يفعل ؟ .. هل يضرب الناس ؟ لقد بات يخشى السجن الذى كان يهواه وهو يرفض العمل .. ويريد أن يحتفظ بمكانه الذى وثب اليه فى الحياة ، ويود لو يحتفظ بكل ما ينعم به الآن، دون مشاكل ولا أرهاق ، ولكن يبدو أن الناس قد اكتشفوا الضعف الذى تسلل إلى قلبه .. اكتشفوا أنه لم يعد ذلك الوحش الذى كان بالأمس .. لقد أصبح مهذبا يحل المشاكل بالتفاهم بدلا من قبضة اليد ، لابد أن الناس إكتشفوا تلك الحقيقة لأنهم لم يعودوا يرفضون الدفع بل إنهم يتحرشون به وكأنهم يمتحنون قوته وهو أحيانا يكتم كل ما فى نفسه من ثورة ليمر الأمر وكأنه لم يلحظه ، وأحيانا تسول له نفسه أن يبطش بمن يقف فى طريقه .. ولكن فردوس والحياة اللذيذة التى يحياها ، صحيح أنه فقد الطمأنينة ، ولكن فليحتفظ بالحياة ..

ومرت أيام طويلة وحسن يضطر إلى تدخين السجاير « الفرط » .. والتهام الوجبات غير المناسبة .. والبعد عن فردوس أياما لا يراها ، ولا تراه.. وأحيانا كان حسن يتميز غيظا وهو قابع وحده فى مكان بعيد وينطح رأسه الحائط وهو يحدث نفسه : هل هو جبان ؟ ان الخوف لم يعرف طريقه إليه من قبل .. وهو مستعد الآن لأن يحارب قبيلة وبلا سلاح .. إذن ماذا ؟ إنه الحرص ، ولكن ، على أى أمل ، أن تعود المياه وحدها إلى مجاريها .

ولكن حسن كان واهما .. فكل يوم يمر به كان يؤكد له أن نجمه قد أفل، وان أياما سوداء مقبلة عليه .. وكان من الممكن أن يحتمل حسن كل شئ إلاهذا الذى حدث .. فقد أصبح الفتور وباء معديا ينتقل بسرعة مذهلة فيصيب الناس حتى أصاب آخر الأمر .. فردوس .

ولكن ما السبب ؟ إنه لم يبخل عليها بشئ على الإطلاق .

كان دائما رهن إشارتها ، كانت تطلب وهو يجيب .. وفكر حسن قليلا ، لابد أن هذا هو السبب فهو منذ مدة طويلة لم يعد فى استطاعته أن يجيب.. وهى دائما تطلب ، وألف رجل على استعداد أن يجيب ، وكان الذى أصاب هذه المرة .. عبيد .

لقد سحقه مرة فى دنيا التجارة ، وها هو يسحقه مرة أخرى فى عالم النساء .. وها هو أحيانا يعتريه ضعف فيتراجع ولكنه دائما ينتصر ..

وأحس حسن بالمرارة تفيض بها نفسه ، وتمنى فى سريرته لو استطاع أن يشارك عبيد فى فردوس حتى تعود الأحوال إلى ما كانت عليه .

وفكر حسن فى أن يقتل عبيد ، ولكنه قوى ، وعنده مال ورجال ، ويستطيع بسهولة أن يسحقه كما كان يفعل من قبل ، اذن من يقتل والرغبة تلح عليه فى أن يقتل إى إنسان .

ثم جاءت فرصة عندما ذهب إلى فردوس يطلب منها حلية ذهبية كان قد أهداها لها فى أيام بعيدة ، ولم يجدها هناك ، ووجد زوجها .. هذا البائس المحطم كأنه عود قصب تحالفت عليه أنواء الشتاء .. ولم يدر

حسن ماذا يفعل ، لقد رفع قطعة جديدة بيده وهوى بها على الزوج .. ولم يكن فى الحقيقة يريد قتله ، كان فقط يريد أن ينتصر عليه .

وعاد حسن من جديد يذكر ماذا حدث بعد ذلك ، التحقيق والمحاكمة والحكم بالأشغال المؤبدة .. وتذكر وجوه الصف الطويل من الشهود الذين شهدوا ضده ووقفوا ضده ، وهو خلف قضبان الحديد من أصحاب المقاهى والباعة والمتشردين ، والذين كانوا يقبلون يديه ..

ولكنه لم يهتم لهذه الوجوه الكثيرة قدر إهتمامه بوجهين : وجه فردوس ووجه عبيد ، وجهها وهى تحكى ، كيف راودها عن نفسها .. وكيف صدته برفق فى البداية حتى لاتثير فضيحة ، ثم اضطرت إلى ابلاغ زوجها بالأمر .. ووجه عبيد وهو يروى فى هدوء وروع ، كيف أن هذا الواقف خلف قضبان الحديد خطر على الفضيلة والأمانة والأمن العام ..

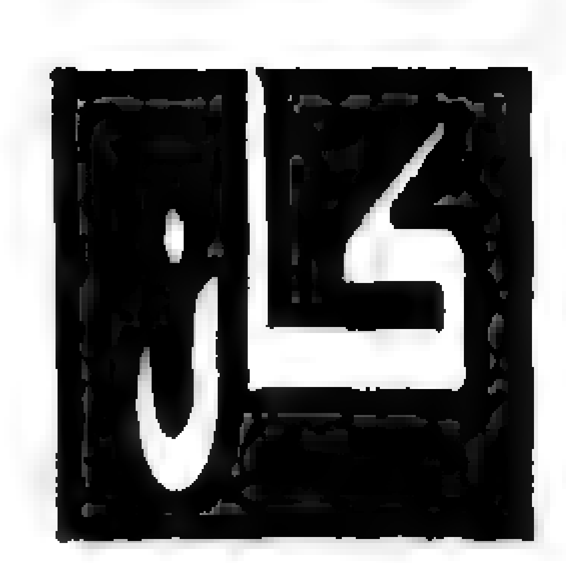
وضغط حسن على أسنانه وهو يذكر عبيد .. لقد إنتصر فى النهاية على كل أعدائه ، حسن فى السجن ، والزوج فى التراب ولابد هو الان يحكم الحى من فوق كرسيه بمقهى الكمال بالسبتية .

كان الطابور البائس من الرجال الأشقياء قد وصل إلى نهاية سفح الجبل عندما انهمر المطر فجأة وبشدة ، وكأن عددا وفيرا من المآسى الرهيبة قد هز أشجان السماء فراحت تذرف الدمع الهتون عله يجرف أمامه كل ما هو شر ، على أرض البشر .. وانتشر الرجال الأشقياء فى أنحاء الجبل ليفروا بجلودهم من المطر ..

رجل واحد كان يقف مرفوع الرأس نحو السماء الممطرة ، وعلى فمه ابتسامة الرضا وقد غاب القلق عن قسمات وجهه العريض ، لقد جاء الشتاء ، وهو ليس فى حاجة لتحطيم المقاعد والرءوس ليدخل السجن .

✿ ✿

في ليلة العيد



المقهى عامرا هذه الليلة .. ليلة العيد ، والزبائن يبدون غيرهم بالأمس .. فهم رغم الكآبة المطلة من عيونهم المنتفخة الا أن أحاديثهم فكهة وملابسهم جديدة ، وفى جيوبهم بعض النقود .. والمعلم أمين صاحب المقهى يبدو فرحا هو الآخر ، منتفخا كالديك فى جلسته الهادئة على الرصيف المقابل ، والشيشة فى فمه ، وأصابعه النحيلة المدببة كمخالب الطير تلمع بالخواتم الذهب ، والصديرى الشاهى يبرز من بين فتحة الجلباب الصوف، والليلة ليلة صيف ، والنسيم يهب حينا رطبا نديا ، وحينا آخر مشبعا بالتراب . و « المعلم » أمين يفلسف كعادته دائما لافراد الشلة الذين تناثروا حوله على المقاعد فوق الرصيف : كاذب من يقول أن التراب يضر بصحة الناس ابننا جميعا من التراب ، لا يضر بالناس إلا الأعمال السيئة .. ويجيب القطيع البائس الجالس حول المعلم أمين بهز الرءوس ومصمصة الشفاه علامة الإعجاب الممزوجة بالدهشة من قول المعلم أمين ، أن أحدا من الجالسين لا يستطيع أن يناقش أقوال المعلم ، انهم لا يفهمون معنى النقاش ، وهم أيضا ليسوا فى حاجة اليه .. لقد تعودوا سماع مثل هذه الحكم البالغة من المعلم فى بعض الليالى التى ينجلى فيها ، وهم يفرحون

لمثل تلك الليالى لأن كلا منهم يستطيع أن يشرب على « الحساب » بل وفى بعض الليالى التى يكون فيها المعلم مبتهجا للغاية يستطيع بعضهم أن يقترض شيئا من النقود .

ويعود المعلم أمين إلى حديثه محركا الهواء براحة يده معتمدا خلال ذلك أن يرى الجمع المحتشد حوله ، الخواتم الذهبية اللامعة ، والفصوص الياقوت التى تبدو وكأنه عيون ملتهبة لشياطين أقزام . والفانلة الحمراء ذات الكم الطويل المشغول بالابرة فى نهايته ثم يرفع حذاءه الاجلسيه إلى أعلى قليلا محركا أصابعه داخل الحذاء قبل أن يقول :

– صحيح ليس التراب هو الذى يضر بالناس ، وليس هو الطين أو الدود، أنا أعرف مخلوقات فى حجم الجان فى قوة سباع الغاب، يقضون حياتهم أبدا ، وطعامهم دود المش ، وشرابهم طين النهر.. وعملهم نبش الأرض بأظافر اليدين والقدمين .. انه اذن ليس التراب والطين والدود الذى يضر بصحة الناس وإنما الذى يضر هو الطمع هو الشره ، هو اللهث الذى لا ينتهى أبدا فى سبيل جمع المال .

وعادت الدهشة الممزوجة بالرضا ترتسم على وجوه الناس المنصتين فى غير حماس إلى قول المعلم أمين وكأنما لحظ المعلم هذا التراخى من جانب الجالسين ، فصفق للجرسون الذى أقبل على عجل يقطع الشارع وثبا بكلتا قدميه كحيوان الكنجر . وطلب المعلم مشروبات للجالسين ، ثم تمطى فى خمول وتثاءب فاغرا فاه فبدأ فى وجهه حفرة واسعة كباب القبر، وبدت أسنانه الصدئة الصفراء المتآكلة كأنها بقايا عظام ميت .. ومضت فترة صمت طويلة قبل أن يعود أمين إلى حديثه

الذى يتناول كل شئ تقريبا ، من شئون الدنيا والدين إلى الحب وروايات السينما إلى موضوعه المفضل دائما .. أيام زمان .

– نعم ، إننا نقتل بعضنا بعضا ، بالظلم والحقد والحسد .. كلنا فى هذه الحياة قتلة ومقتولون .. ولا أدرى لماذا أصبحت الحياة شقية بائسة إلى هذا الحد .. وكانت منذ أربعين عاما هينة لينة جميلة على الدوام .. هل أجدبت الأرض ؟ هل جف ماء النهر ؟ هل نقصت خيرات الله ؟ لابد أن شيئا من هذا قد حدث .. والا .. فلماذا كل هذا البؤس ، وكل هذا القتال العنيف فى سبيل الحياة ..

وكان المعلم أمين يكرر هذا الحديث كلما اجتمع حوله بعض الرجال وكان يبين من حديثه أنه دوما تواق إلى أيام زمان تلك الأيام التى عاشها فى شبابه قاطعا مسافات شاسعة من الأرض لهثا وراء قطيع من الأغنام فى طريقه إلى المدبح جامعا قرشا فوق قرش حتى كون ثروة ضئيلة استطاع أن يشترى بها المقهى وأن يلبس القفاطين الشامى والساعة ذات الكتينة الذهب والحذاء الأجلسيه .. واستطاع أيضا أن يشترى كل هؤلاء الرجال المنصتين .

وكان من المفروض أن يستمر المعلم أمين فى حديثه وأن يستمر الذين حوله فى أماكنهم مادام أن المعلم لا ينساهم خلال حديثه فيصفق بشدة بين الحين والحين طالبا المشاريب مجانا لهؤلاء الصحاب . ولكن المعلم قطع حديثه فجأة وقد لمعت عيناه وهو يصوب بصره داخل زقاق الأباصيرى الذى يمتد بجدار المقهى وينتهى بجدار أسود اللون من أثر دخان « مستوقد » الفول الذى يجاوره . ولحظ الرجال الذين كانوا على الرصيف شبحا يخطر على مهل فى طريقه من داخل الزقاق الى الشارع العمومى .. وقبل أن يصل الشبح إلى ناصية الشارع كان المعلم

قد أسرع متجها ناحيته وانتحى به جانبا فترة من الوقت ، مضى بعدها الشبح فى طريقه إلى الشارع ، وعندئذ تبين للرجال أن الشبح لامرأة تبدو داخل الملاءة السوداء صغيرة جميلة لدنة كالعصا الخيزران .. ومن جديد عاد المعلم أمين إلى جلسته مع الصحاب ، ولكنه لم يتكلم بل ظل صامتا بعد أن دس شيئا صغيرا كان بين أصابعه فى فمه .. ونادى على الجرسون ودس فى يده جنيها وطلب ثلاثة أرطال من اللحمة الضأن وأربعة أرغفة وحزمة من الفجل وليمونة خضراء .

ثم جلس هادئا مزهوا كأنه قائد يخرج لتوه منتصرا فى معركة .. ومر ماسح الأحذية ونقر بفرشاته على الصندوق ولكن المعلم أمين لم يجبه مكتفيا بالنظر إلى الحذاء اللامع وعاود الصبى الصغير النقر على الصندوق ، فركله المعلم أمين بقدمه فى بطنه ، فتقهقر عائدا للخلف فى خطوات سريعة غير منتظمة ثم اعتدل .. ومضى .

وعاد المعلم أمين إلى جلسته الهادئة المنتفخة كأنه ديك .. وأقبل بعد قليل رجل سمين قصير القامة منتفخ الأوداج أصلع البشرة يبدو وكأنه عجل صغير معد للذبح .. فى نظرته تبدو الطيبة ممتزجة بالبلاهة والغباء، ملطخ الملابس ببقع الدم وبقايا قطع اللحم الرخيص .. وحيا الرجل المعلم أمين وصحبه .. ثم أدخل بيده خلال فتحة الجلباب وضرب ركبته بيده قبل أن يقول :

– مفيش لعب يا معلم ؟

ودون أن يتحرك المعلم من مكانه قال فى هدوء :

– أيه الحكاية يامعلم نسر .. لازم غنى النهارده !! .

– نجرب يامعلم ..

– طيب استنى أما أجيبلك الواد سيد .

وغاب الجرسون قليلا ثم عاد ومعه سيد .. نحيفا ضئيلا غائر العينين بارز عظام الوجه له نظرة لص غشاش ، وان كانت تفصح فى نفس الوقت عن شخصية ذكية طموحة وأعصاب قلقة ثائرة ، وصفق سيد فرحا وقفز فى الهواء عدة قفزات متتالية :

– مساء الفل يامعلم نسر .. العشرة بجنيه مشفى ..

ورد النسر فى بلاهة :

– نتفرج ..

ونهض المعلم أمين على الفور ليعد لهما المائدة والدستة الجديدة والمقاعد وقطع الطباشير ، ولم يكن فى المقهى سوى أربع موائد مشغولة باللاعبين ، فأنقض المعلم على احداها وحملها بين يديه وقذف بها على الرصيف ، وعندما احتج اللاعبون صفع كلا منهم على وجهه وقذف بهم إلى عرض الطريق .. وهكذا أعدت الجلسة بسرعة للمباراة التى ستنضب بين الرجلين ، ونهض الصحاب الذين كانوا حول المعلم أمين فالتقوا باللاعبين .

وبدأت المباراة ، قذف كل منهما ورقة من ذات الجنيه وبدأ التفنيط والتفريق واللعب وطار الجنيه الأول والثانى والثالث والرابع ، وعقارب الساعة تأكل ظلام الليل ، واللعب وئيد رتيب والخسارة تتزايد وأعصاب اللاعبين والمتفرجين على السواء قلقة محترقة بتأثير السهر واللعب والنيكوتين .. وجاء الجرسون فهمس فى أذن المعلم أمين

بكلمات قصيرة ، فاستأذن بعد أن سلم « التأمين » لاحد الحاضرين وغاب داخل الزقاق ومضت ساعات طويلة قبل أن يبزغ ضوء الفجر ، ومع الفجر عاد المعلم أمين ، وكان الرجل الضئيل النحيل سيد قد خسر كل ما معه .. خمسة عشر جنيها بالتمام ، وآخر « عشرة » قد انتهت ، والمعلم نسر يفنط الكوتشينة ، وسيد يبحث فى كل خرق من جلبابه عن نقود ، والمتفرجون يشرحون فى لذة فائقة سير العشرة الأخيرة وكيف أن المعلم نسر ترك « الاس البسطونى » من يده ، ولو تمهل قليلا لحسم العشرة قبل الاوان .

واشترك الجميع فى هذا النقاش الذى يدور عادة بعد كل عشرة فنية وكان الحاضرون قد بلغوا العشرين رجلا ، فقد خرج كل زبائن المقهى ليشهدوا سير المعركة الرهيبة بين المعلم نسر وسيد .. أو أبو سيد كما يطلق عليه المعلم أمين من باب المزاح .... وقطع هذه الثرثرة الفارغة على المشاهدين صوت أبو سيد وهو يصرخ فجأة :

– خمس دقائق أروح أجيب فلوس واجى ..

وفى هدوء بالغ رد المعلم نسر :

– وأنا ايه اللى يخلينى أستناك ؟

– لازم تكفينى لعب ، كده الأصول .

– الأصول هى اللى بقولك عليها ..

ووافق المعلم أمين على كلام نسر وأيده كذلك كل الحاضرين ، فإن نسر كان لا يهدأ طوال اللعب فى طلب المشاريب « للجدعان » الذين التفوا حول المائدة وسادت فترة صمت قصيرة قبل أن يمد سيد يده فى حركة عصبية محمومة إلى المعلم أمين ويقول :

- هات جنيه لحد الصبح يامعلم ..

- ماحنا الصبح دلوقت .. كل سنة وانت طيب ..

- قصدى لحد ما روح البيت ..

- على الطلاق من بيتى ما فيه فى جيبى مليم خردة .

وكانت المفاجأة قاسية لابو سيد لم يستطع تحملها فازدرد ريقه عدة مرات ثم قال للمعلم بنفس الصوت المخنوق بعبرات غير منظورة :

- أنا شايف معاك فلوس زى البنك دلوقت والا خسارة فيه الجنيه ؟

كأنما أثار هذا التحدى والاصرار من جانب أبو سيد المعلم أمين فصرخ مهتاجا :

- الله ، انت شريكى ؟ .. حالف من بيتى طلاق تلاته ما سلف أخويا ابن أمى وأبويا .. حد شريكى .. !!

وفى لمح البصر هب أبو سيد كالمجنون خالعا عنه جلبابه وقذف بها فى حجر المعلم ثم جلس وقبض نسر على الجلباب قبل أن يقول مستنكرا :

- دى ماتساويش نكله .

- هيه ايه دى - على الحرام انت ماتعرف تلبسها ..

وحسم المعلم أمين النقاش بأن وافق على استئناف اللعب على أن تكون آخر « عشرة » اذا خسر أبو سيد اللعب .. وهكذا بدأ التنفيط والتفريق ولكن بهدوء أعمق وعدم مبالاة من جانب المعلم نسر ، وبعصبية أشد من جانب أبو سيد ، وجاء عسكرى الداورية فسلم على الجميع ، وكل سنة وانت طيب يامعلم ، وانت طيب ياحضرة الصول .

شاى الاصطباحة يا واد للباش شاويش .

حاضر يامعلم .

كل هذا واللعب بين الغريمين أشبه بمعركة حربية يتوقف عليها مصير الحرب ، ولم يمض وقت طويل حتى ظهر واضحا أن الحظ قد فر تلك الليلة من جانب أبو سيد وأنه سيخسر حتى جلبابه .. هكذا أدرك أبو سيد أيضا وهو يلعب آخر « طبلية » واللعب يسير خفيفا ويحذر وتباشير الصبح تلوح فيما وراء الأفق وصياح الديكة يملأ الجو وقرقعة عربات « الكارو » تسمع من بعيد والنسمات الباردة الندية التى تهب فى مثل هذا الوقت من كل صباح تنعش الجميع الا اللاعبين فقد كانا يتصببان عرقا وكأنهما خارجان لتوهما من حمام ساخن .

وهكذا إنتهت العشرة وخسر سيد جلبابه فبدت عيناه المنتفختان حمراوتين كحبات التين البرشومى المعطوبة .. وأخذ الرجال الذين كانوا يشهدون اللعب فى الانسحاب فى هدوء وفى اصرار مد أبو سيد يده إلى المعلم نسر وقال بصوت مخنوق وكأنه طفل قضى فى البكاء وقتا طويلا .

– هات اثنين جنيه يانسر .

– ولا مليم .

قالها نسر فى هدوء غير مكلف وعاد أبو سيد يطلب بنفس الأعصاب الثائرة والصوت المخنوق .

– لا حاخد اثنين جنيه .

– والنبى لما تتشنق ، أنا خسران معاك الجلد والسقط .

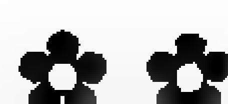
وأدرك أبو سيد أنه لا فائدة ترجى من وراء النقاش وانه حتما ذاهب إلى منزله بلا جلباب ولا نقود .. وأطرق قليلا نحو الأرض يفكر وهو يصر على أسنانه كالكلب ويدعك عينيه بأصبعه ، وبسرعة خاطفة سدد أبو سيد لكمة قوية إلى فك غريمه أنتجت صوتا أشبه بذلك الذى يحدث من احتراق خشب داخل فرن متقد .. وعندما أفاق المعلم نسر من المفاجأة قذف بغريمه فى عرض الطريق وظل يلاحقه بالركل والضرب بقسوة وشدة بالغة وكأنه ينتوى قتله .. وعندما وقف أبو سيد على قدميه أدرك أن عسكرى البوليس قد قرر أن يؤدى واجبه فأنسحب مخترقا الزقاق الى منزله .

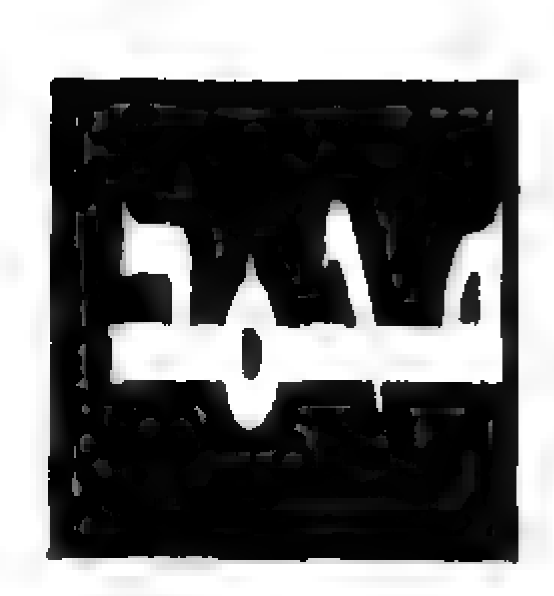
كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها نحو الأرض والزقاق يبدو رغم الصباح مظلما والبيوت التى إلى جانبيه متداعية الأركان متهالكة تشققت جوانبها بفعل السنين الطويلة التى مرت عليها والنوافذ تفسخت وتحطم زجاجها منذ عهد غابر وبقيت بقاياه على النوافذ مكتسبا لونها الذى كان ناصعا يوما ما .. لونا آخر شبيه بلون المياه الراكدة ومصباح الحكومة الذى يتوسط الزقاق يلفظ آخر أنفاسه ولم يبق فيه سوى ذبالة ضئيلة مرتعشة خانقة ، وأحس أبو سيد بالدوار وهو يفتح الباب الخشبى الضخم الذى تزينه نقوش كالحة كنقوش التجاعيد التى يضيفها الزمن الجبار إلى الوجوه الشائخة .

وعندما أغلق الباب من خلفه حدث فى وسط الساحة الرطبة شئ غريب لم يكن يتوقعه وكان ولده أبو حياجة فى طريقه إلى الخارج فمد يده اليه :

- هات قرش .

وانتفض سيد كالمجنون وبكل ما تبقى فيه من قوة صفعه على وجهه وحمله بين يديه وفتح الباب وقذفه إلى الزقاق وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ، وضج الزقاق بصراخ الطفل ونباح كلب عجوز كان نائما أزعجه الصراخ فقام محتجا بصوته البغيض على تلك الضجة المقلقة وجرى بعض الرجال الذين كانوا لايزالوا فى أماكنهم عند ناصية الشارع ليلحقوا بالطفل المطروح على أرض الزقاق .. وعندما رفعوا الطفل من فوق الأرض .. كان هناك فى الطابق الاعلى من المنزل رأس امرأة حسناء رغم الشحوب الذى يبدو فى وجهها وكانت هى أم الطفل وزوجة سيد النقاش .. وعرف الرجال فى ذلك الصباح أنها هى التى انتحى بها المعلم أمين فى ظلام الليلة الماضية فترة فى الزقاق ..





عبيد أمى لا يقرأ ولا يكتب . ولكنه قادر على التفاهم بخمس لغات ، وهو ذكى من طول ما عمل فى ميناء بور سعيد ، يعرف جنسية الخواجا من سحنته ، ويكسب القرش بالفهلوة .. وهو مشهور بين أعمال الميناء باسم الفهلوى . وعندما نشبت الحرب أغلقت الحكومة البوغاز ، ولم يعد الميناء يشهد سوى مراكب حربية كئيبة يركبها جنود فقراء .. تدخل سرا وتخرج سرا .. والاقتراب منها ممنوع. ومع أن الفهلوى فى استطاعته أن يصعد على ظهر أية باخرة يشاء وفى أى وقت يريد .. وبلا تصريح ، الا انه لم يرغب فى الصعود على ظهر واحدة من هذه البواخر الكئيبة التى تنقل بدل البضائع والركاب .. قنابل ومدافع وجنود . المهم ان الحرب راحت وجاء السلام ، ومع السلام جاءت المراكب عبر البحار وتحمل ركابا كأيام زمان . ولكن ليتها ما جاءت . فركابها أفقر من العساكر ، وأغلبهم مهاجرون إلى استراليا . تحسر الفهلوى على خواجات زمان .. العجائز الأثرياء . يبدو أن الحرب قد قضت على هذا النوع من الناس ، واشاعت الفقر والخراب فى بلاد بره . والا ، فلماذا كل هذا الهم والفقر الذى يعيش فيه هؤلاء الوافدون من خلف البحار .

وبالرغم من هـــذا كله فالفهلوى حريص على الذهـــاب كل صباح إلى الميناء ، يصعد على البواخر .. يبيع أحيانا صورا تذكارية ، وأحيانا أخرى يضطر إلى أن يشتغل حاويا ويخرج الكتكوت من البيضة ، وأغلب الأحيان كان يصعد إلى البواخر وليس معه شئ وينزل منها ومعه أشياء كثيرة . وهو يربح ما يكفيه ويستطيع أن يربح أكثر لو أراد، ولكن أه لو وقع فى يد البوليس .

شئ واحد فقط كان يقلق بال الفهلوى ويعذبه . وهو عدم الإستقرار على مهنة تضمن له مستقبله ، حتى جاءت إلى الميناء مراكب من نوع جديد تحمل عساكر من فرنسا من طريقها إلى بلاد بعيدة . ورغم ان المراكب حربية الا أن الصعود على ظهرها مباح . والعساكر الذين تحملهم البواخر معهم نقود فرنسية ، وهم يستبدلونها بنقود من عملة الهند الصينية .

عمل سهل ومريح . وقلة تعمل وحدها فى الميدان . الفهلوى فى حاجة إلى مهنة .. وها هى الفرصة أمامه والمراكب التى من هذا النوع كثيرة . اذ يبدو ان حربا هائلة نشبت فى تلك البقاع ويبدو أيضا أنها لن تنتهى أبدا .

وراح الفهلوى يصعد على البواخر يستبدل النقود .. ويربح كثيرا والأوراق التى فى يده تتضخم وتزيد . وأصبح الفهلوى تاجر نقود فى الميناء يكسب جنيهين وأحيانا ثلاثة كل يوم . ثم زادت المراكب فزاد الربح ، وتضاعف الربح بعد أن أصبحت المراكب تأتى وتعرد . وهو يستبدل النقود فى الذهاب والعودة ، وغمر السرور قلب الفهلوى ، فهو يكسب كثيرا وينفق أكثر ، ويتزوج ويطلق وأصبح له فى بور سعيد عشيقات .

وأربع سنين كاملة والفهلوى يرتع فى النعمة .. وخزانته أصبحت تضيق بالنقود من هذه العملة الغريبة .. عملة الهند الصينية .

صحيح أن الدنيا حظوظ ، والحرب التى تدور فى تلك البلاد البعيدة تدر عليه ربحا وفيرا ، ولكن أين تقع تلك البلاد البعيدة التى درت عليه كل هذا الربح ، وأصبح الفهلوى أكثر اهتماما بالمشكلة عن ذى قبل . وراح يتتبع أنباء المعارك التى تدور هناك باهتمام ، فهناك ثورة .. وفرنسا تحاربها ، وهو يدعو لفرنسا بالنصر ، ،وهى حتما ستنتصر .. فهى أقوى ولديها كثير من الرجال والعتاد . وحفظ عن ظهر قلب اسماء القادة الذين يحاربون هناك ، الجنرال كاسترو الفرنسى .. انه فى صورته يبدو عظيما وشديدا وسيأتى النصر قطعا على يديه . فهو يحمل على صدره حفنة من النياشين وهو لابد خاض من قبل كثيرا من المعارك .

والجنرال جياب قائد الثوار يبدو هزيلا ضعيفا .. وسترته قديمة وليس على صدره أية أوسمة وهو يبدو فى الصورة غلبان كعساكر البوليس .

انه الآن وبعد أن شاهد صورته متفائل بالنتيجة . وهل هناك شك فى انتصار الفرنسيين . وآه لو انتصروا ، اذن لاستطاع الفهلوى فى نهاية الحرب أن يستبدل كل النقود التى معه بعملة مصرية .. وهى تساوى عندئذ عيشة الأثرياء العجائز الذين كانت تحملهم البواخر إلى الميناء قبل الحرب .

ولكن لو خسر الفرنسيون الحرب ! مش معقول !!!

ولكنه خاطر كئيب أحيانا يطوف بنفس الفهلوى فيزعجه ويحيل حياته إلى الجحيم .

فانهم لو خسروا الحرب .. لخرج الفهلوى من الصفقة عاريا كما كان. ولعاد من جديد إلى الميناء يصعد على ظهر البواخر يبيع صورا تذكارية ، ويخرج الكتكوت من البيضة .. وينشل جيوب الخواجات ..

فهو وان كان واثقا من نتيجة المعركة الا أن هذا الشعور الغريب احيانا يعتريه عندما يصعد على ظهر باخرة مستشفى قادمة من تلك البلاد التى تدور فيها الحرب . وفى بطن السفينة كان يشهد المأساة بعينيه . مئات من الجنود الجرحى فقدوا أعز اجزائهم وناموا فى ذهول، بعضهم فقد نور عينيه وكان يعجب لان أغلب الجرحى ليسوا من الفرنسيين .. هم فى الغالب سود من الصومال أو سمر من شمال افريقيا . وكانوا يصعبون عليه ، وأحيانا كثيرة ساعد بعضهم على الهرب لقاء بضعة جنيهات من عملة الهند الصينية .

ومرة انتاب الفهلوى الذعر ، حين تقهقر الفرنسيون فجأة ... وتقهقر معهم سعر الجنيه الهندوشين . ولم يغمض للفهلوى جفن إلا عندما صمد الفرنسيون واستعادوا مراكزهم . كانت محنة ولكنها علمته أشياء كثيرة . فتقهقر الفرنسيون شئ مزعج حقا ..ولكنه مفيد فى الوقت نفسه، اذ أنه يساعد على مد أجل الحرب .

ولكن فجأة حدث مالم يكن فى الحسبان ابدا ، فقد جاءت الأنباء من بعيد بانسحاب الفرنسيين انسحابا طويلا متواصلا تاركين خلفهم عشرات المدن وملايين الأفدنة وآلاف القتلى والجرحى . وظل الفهلوى اياما طويلة متفائلا بالنتيجة .. صابرا على المحنة .. والصبر طيب . ولكن كل يوم يمر كان يخيب ظنه فى فرنسا .

وجاءت اللحظات الحاسمة فى تاريخ عبيد وتاريخ الحرب فى الهند الصينية . وبرز إلى الوجود اسم قلعة ديان بيان فو . وأصبح هذا الاسم جزءا من حياة الفهلوى وأكثر من خناقة عنيفة نشبت بينه وبين بعض التلاميذ من مدرسة بور سعيد .. الذين يتحمسون للثوار ويتمنون لهم النصر !! مغفلون هؤلاء الأطفال لا يدركون عظم المصيبة التى ستحط على رأس الفهلوى لو حدث ما يتمنونه . وأصبح الفهلوى حاد المزاج ، يضرب الناس لأتفه الأسباب ، ويقلب مائدة الطعام بلا سبب ويصفع

زوجته كل صباح عدة أقلام سخنين ... ويسب الدين والدنيا ، ويبصق على حال الدنيا الذى لايدوم لاحد . حتى ولا لفرنسا واصبح الفهلوى زبونا للصحف ، يقرأ انباء المعركة بشغف . ولم يعد يختلط بأحد .. أو يحتك بإنسان . حتى عمله فى المراكب هجره فى إنتظاره نتيجة المعركة.. وزوجته طلقها واستراح من وجهها النحس ، وأصبح شغله الشاغل كله .. الجنرال كاسترو .. الذى يحس نحوه حنينا عجيبا . الجنرال جياب الذى يود من صميم فؤاده لو تتيح له الأيام فرصة صفعه على قفاه .

وجاءه النبأ الرهيب بعد أيام ، فقد انتصر الثوار وخسر الفرنسيون المعركة ، وخسر هو كل ما عنده من نقود .. فلم تعد تساوى ثمن الحبر الذى طبعت به . وتهاوى الفهلوى تحت عظم الصدمة فمرض واصفر لونه واستبد به الهزال .. ثم أصيب بالشلل فلم يعد قادرا على الحركة .

وأيام طويلة كئيبة بائسة مرت عليه وهو يفكر عميقا فى المأساة . ويكاد يفقد عقله وهو يتساءل فى ذهول : كيف هزمت فرنسا ؟ وكان احيانا يخرج من بحثه الطويل بسبب يرضيه ، لابد أنها ارادة الله ، فقد عصت فرنسا تعاليمه ، وهو يعلم أنها بلد المساخر ، وإنها بؤرة الرذيلة والشيطان .

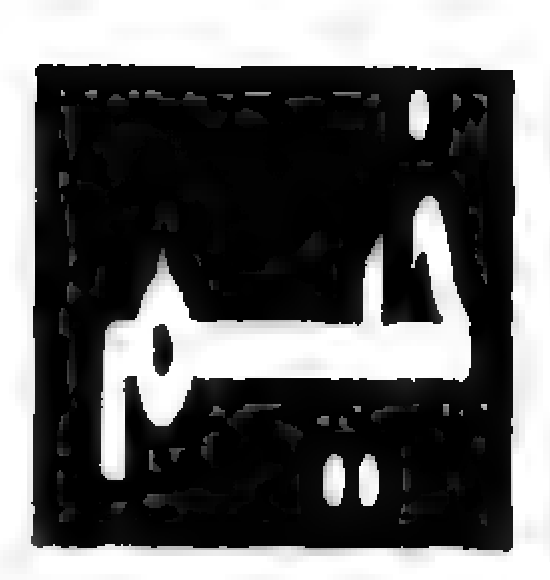
شئ واحد فقط لم يستطع تعليله على الإطلاق .

كيف هزم الجنرال كاسترو .. وهو يحمل على صدره كل هذه المجموعات الهائلة من النياشين .

وكيف انتصر الجنرال جياب ... وهو فى بذلته الحقيرة ، وليس على صدره اثر لنيشان ... ويبدو فى الصورة غلبان كعساكر البوليس .. لابد انها حكمة الله !!!

✿ ✿

جنة رضوان



السكون والليل على « دحديرة » ابن طالون ولفت الظلمة الحالكة كل شئ فى الممر الضيق الملتوى الملتصق بجدار الجامع العتيق، وخلا الطريق من كل شئ الا من وقع أقدام الرجال المتعبين العائدين إلى منازلهم فى أعلى الدحديرة، أو طفل يجلس القرفصاء بجوار الحائط يقضى حاجته .

ولكن من أول الدحديرة كان يبدو نور قوة المعلم سلطان باهرا كضوء الشمس ، وصوت الراديو يلعلع من بعيد ، وعلى الضوء كانت أشباح الجالسين فى حلقات تظهر بوضوح ، وهم يتبادلون الجوزة فيما بينهم فى استرخاء طبيعى لذيذ . والواد برهومة يلف كالدبور حول الزبائن والكراسى وصوته يملأ الجو الفاضى وع المليان ، وعندما شاهد المعلم رضوان مقبلا من بعيد أول الدحديرة هتف وهو يضبط ساعته على التاسعة تماما :

– كراسى يا واد للمعلم رضوان وصحبته ..

ومع انه لم يكن هناك واد سيلبى نداء برهومة ، إلا انها كانت عادته دائما كلما لمح المعلم رضوان مقبلا من بعيد . والمعلم رضوان زبون دائم

منذ أكثر من عشرة أعوام ، ولم يتخلف يوما عن موعد حضوره إلى المقهى كل مساء فى التاسعة تماما . فهو يعمل خبازا فى فرن مجاور للمقهى ، وهو يبدأ عمله فى الثانية عشرة تماما ، فهو يقضى فى المقهى كل يوم ثلاث ساعات وكانت فلسفته دائما التى يشرحها لكل من يسأله عن سر مواظبته على موعد المقهى :

– وهنعمل ايه ، عشان يبقى البيت جنب الغيط ، مش أحسن ما نروح سيما ولا نسكر ونعمل مايرضيش الله ! والحقيقة أن المعلم رضوان لم يغضب الله أبدا .. فهو فى الخمسين من عمره الآن ، وهو منذ أن ماتت زوجته وهو يعيش حياته على وتيرة واحدة . من الثانية عشرة حتى الصباح أمام النار يخبز العيش ، ومن الصباح حتى غروب الشمس نائم فى البيت ، ومن التاسعة حتى بدء العمل فى الفرن على مقهى المعلم سلطان ، وهو لا يأتى الى المقهى وحده ، بل دائما تحوطه شلة من الأصدقاء ، هو دائما أعلمهم ، ودائما أغناهم ، فجميع الطلبات التى تنزل الأرضية على حساب المعلم رضوان وفى ذلك المساء عندما حضر ومعه شلته اختاروا مكانا خارج المقهى وجلس صامتا يكركر فى الشيشة العجمى التى لا تفارق فمه أبدا مادام هو موجود فى مقهى المعلم سلطان ، ولكنه فجأة قطع الصمت المخيم على الجميع وهتف فى صوت ممطوط :

– أنا حلمت حلم النهادره ربنا يجعله خير ..

وهتف الكل فى نفس واحد :

– خير انشالله ..

وعاد المعلم رضوان فى نفس الصوت المنغم المطوط :

– خـيـر !! حلمت ان واحـد جـه صـحـانى م النوم وقـاللى قـوم يا رضـوان، قلتله على فين ، قـاللى اللى خلقك عـاوزك ، قلت سبـحان الله لا إله إلا الله .

وبلا سبب أو مبرر مفهوم ، هتف أحد الجالسين على الفور :

– ياسلام يامعلم .. يحيى العظام وهى رميم .

– أمال ، قدرة ، الغرض أنا قمت مـعاه على طول .. فضلنا مـاشيين مع بعض لما صادفنا باب أخضـر دخلنا منه .

وقطع الحديث رجل آخر ، هتف وجسمه كله يهتز من النشوة .

– الله أكبر .. ربنا يوعدنا ، حاكم الباب الأخضـر ده خير .

وفى ثقة واطمئنان ، قال المعلم رضوان :

– أمـال ! .. الغـرض دخلنا م البـاب الأخضـر بصـيت لقـيتلك جناين على كل لون . ورد ، وزرع ، وخـضـرة ترد الروح وفواكـه من كل صنف مـالهاش سـعـر .. جوافـه ، وفول أخـضـر ، وتفاح أمـريكانى م اللى كـان بييجى هـنا قبل الحـرب ، حـاكم النوع اللى شـفته ده فى الحلم ، عنيه ماشفتوش بعد الحرب أبدا ..

ورد شـاب صـغـيـر كـان يجلس مع الجـمع المحـتـشـد حـول المعلم رضوان :

– يابخت اللى عاش قـبل الحرب ، ده أبويا بيقـول ان العشر بيضات كانت بقرش واحد .

وعلق بـعض الجـالسين على كـلام الشـاب بفـتـور .. وعـاد المعلم رضوان فاستأنف حديثه على الفور :

– الغرض بصيت لقيت فى الناحية التانية وحوش من كل نوع ، غزلان تلاقى ، سبوعة تلاقى ، لبو تلاقى .. إنما هادية وواقفة ساكتة بأمر ربها . سألت الجدع اللى معايا فى الحلم ، قلتله احنا فين ؟ .. قاللى احنا فى الجنة ياعبيط ، وهو قال الكلمتين دول .. وبصيت مالقتوش قدامى وصحيت م النوم اللهم اجعله خير يارب .

وهتف الجميع فى نفس واحد :

– خير انشالله ..

وقال واحد :

– ده ربنا كتبلك طولة العمر ، حاكم الموت فى الحلم يعنى عمر طويل.. كل شئ يبقى عكسه فى الأحلام .

وضحك المعلم رضوان فى فتور .. وقال :

– والا الموت ياسيدى ، ما كلنا لها ، حد بيخلل فيها .

وقال برهومة الجرسون ، وكان قد سمع شطرا من الحديث :

– أبدا وحياتك يامعلم .. شقى وأخرتها قطنة ، وياريت نطولها .

وجذب المعلم رضوان عدة أنفاس متلاحقة محمومة من الشيشة ، ثم قال فى هدوء :

– ياعم والله بنتمناها ، هيه مقابلة ربنا حد يطولها .. بس ربنا يجعل أخرتنا حلوة ، ونشوف الجنة ..

وسكت قليلا قبل أن يقول :

– دى الجنة حلوه ياجدعان ، اللهم صلى على أجدع نبى ..

ثم رفع يديه فجأة إلى السماء .. وهتف على الفور :

– الفاتحة على روح أمواتنا وأموات المسلمين ..

ورفع الجميع أيديهم إلى السماء ، وقرأوا الفاتحة فى صوت خفيض ثم مسحوا وجوههم بأيديهم وجلسوا صامتين ، وقطع الصمت واحد منهم ، قال فجأة وكأنه يريد أن يطمئن نفسه :

– الجنة حلوة ، بس يطولها يا معلم .

وفى الحال رفع المعلم رضوان ساقه ووضعها على الساق الأخرى ، ومال بنصفه الأعلى إلى الأمام ، ونظر بعينيه الضيقتين إلى محدثه ، وقال فى هدوء شديد :

– كل المسلمين هيطلوها ، حاكم النبى بتاعنا متشفع لنا ، ووارد فى الكتب حديث عن النبى بيقول « يارب أمة المسلمين أنا متشفع لها » .

وفتح السائل فمه فى دهشه وعجب ، وقال :

– ياســـلام ع القدرة ياجدعان ، بقى يعنى الواحد هيشوف الجنة ، سبحان الله . أنا كنت بقول الجماعة الفقرا اللى زى حالتنا عمرهم ماهيشوفوا ميتها ..

وقال المعلم رضوان فى ثقة العالم بالأمور :

– كدب ، مافيش حاجة اسمها غنى وفقير عند ربنا ، كله يوم القيامة واحد ، نقف فى طابور واحد قدام بابين ، باب أخضر وباب أحمر . الباب الأخضر ده الجنة والأحمر النار والعياذ بالله . اللى مكتوبله الجنة يخش م الباب الأخضر ، واللى بعيد عنكم مكتوب عليها النار يخش م الباب الأحمر، اللى هيخش م الأخضر يبص يلاقى على طول الجناين

فى وشه . جناين مالهاش حدود ، ويلاقى السرايات على الجنبين ، كل واحد يستلم سراية ، وحاكم سريات الجنة مش كبيرة ، يدوبك على أد الواحد . وهيه كل الحكاية دورين . أول دور من غير مؤاخذة للأكل بس، وتانى دور للنوم ، وهناك نشام مفيش بعد كده . الواحد يصحى الساعة حداشر ، اتناشر .. على مهله ، مفيش شغل هناك ، وساعة ما يصحى ينزل يغسل وشه ، ويلبس جلابية بيضة نضيفة ، ويقعد ع السفرة زى الناس الذوات ، يبص يلاقى ع السفرة دى كل شئ قلبك يحبه من خيرات الله . فول زى الألماز مهروس فى الزبدة البقرى الحلوه، وعسل وطحينة ، وجبنه حلوم بخيرها ، واللبن اللى لسه محلوب من بز أمه ، والدقة اللى معمولة بصنعة نضيفة ، والعيش الأبيض اللى زى الفل ، وجرجير وفجل من خيرات ربنا اللى فى الجنينة ، قول ياكل ده بده ، ويقوم يتمشى شويه فى الجناين ، أو يقعد جبن الشباك المفتوح ع البحر يجيب تراوة ترد الروح ، حاكم كل الشبابيك اللى فى الجنة ع البحرى .. والجو دايما هناك خريف يرد الروح ، ولا ترابة تلاقى ، ولا عفارة تلاقى ، حاجة نضافة مفيش بعد كده بقدرة ربنا ..

كان الجمع المحتشد قد أصغى بكل ما فيه من حواس لحديث المعلم رضوان ، وأشرف الجميع على مقاعدهم يستمعون فى نشوة واعجاب وهم يلعقون ألسنتهم تارة ، ويهرشون بين أفخاذهم تارة أخرى ويتثاءبون على الدوام . ولم يحاول أحدهم أن يقاطع المعلم رضوان ، فعاد الأخير يسرد القصة فى حماس هادئ جميل :

– المهم بعد كده ، الواحد يطلع تانى ينام ، ما هو مفيش شغل هناك، ولا قوم روح الفرن ولا شوف العجين ولا كافة حاجة من دى ، كل واحد

حـر نفسـه ، فـعلى طول الواحـد يطلع ينام تانى لحد الساعة خـمسـة ، الساعة ستة ، على كيفه . وعندمـا يصحى يلاقى السـفرة متحضـرة ، فراخ عتاقى محـمرة ، كتاكيت مشـوية ، أرانب بالملوخيـة ، كبده على كلاوى .. حـاجـات م اللى تجرى الدم فى عـروق الواحـد وتخلى عنيـه تفنجل .

ولعق المعلم رضـوان ريقه ، وكذلك فعل بقية الموجـودين .. وسأله واحد :

– مفيش شوية طرشى يا معلم ؟ ..

ورد المعلم فى ثقة بالغة :

– دى مسألة مزاجات بقى ، عاوز طرشى يجبولك ، كافة شئ ترغبه نفسك يحضر على طول ، أمال هيه جنه ليه ؟! .

ثم عـاد المعلم رضـوان أن يسـرد قـصـتـه الجـميلة .. والآخـرون يستمعون فى لذة فائقة :

– بعد الأكل بقى الواحـد يغسل ايديه ، مـفيش هناك حاجة اسـمها تكسل تغسل ايديك ، النظافة واجبة هناك ، وبعد كده يجيلك الحور العين ، ستات زى البقلاوة ، حاجة تفتح النفس ، مش زى الستات اللى الواحد بيشـوفـهم فى السكك دول ، ما يغركش الأحمر والأبيض ، دى مسـائل بوليتيكا كلهـا، إنما هناك حاجة طبيعى بتاعة ربنا ، وكل واحد يختار اللى على كيفه ، حلاله . وعلى أد الواحد مايحرم نفسه من الدنيا دى .. على أد ما يمتع نفسه هناك ، والعين بالعين والسن بالسن ..

وهتف واحد من الجالسين :

– الله أكبر يامعلم .. أد كده ..

ورد المعلم على الفور :

– أمال ، ماهو يعنى ايه حكاية العين بالعين دى ، يعنى زى ما تعمل تلاقى ، تهيص فى الدنيا وتلعب تنشوى نار جهنم ، تمشى عدل وتشوف أوامر ربنا ، تتمتع زى ما بقولك دلوقت بالظبط ..

وسكت المعلم رضوان قليلا ، ريثما أزاح عمامته إلى الخلف قليلا قبل أن يقول :

– المهم الساعة اتناشر بالليل يكون العشا جاهز فى الجنة تنزل تتعشى لقمة خفيفة ، شوية لبن ، حتة مربى ، حتة جبنة ، شوية زتون، لقمة عيش فينو . وتطلع تتمشى شويه فى الطراوة ، وفى القمر الحلو.. حاكم القمر مايختفيش أبدا فى الجنة . بيته منور على طول . عاوز تشوف حد ، تود حد ، عاوز تزور جماعة صحابك ، جماعة كده كده .. زى ما أنت عاوز ..

وهرش واحد من الجالسين قبل أن يسأل المعلم رضوان سؤال محيرا :

– لكن الجنة واسعة قوى يامعلم .. الواحد هيزور الناس فيها ازاى ؟

– لأ ما هو كل جماعة صحاب جنب بعض ، وع العموم ان كنت عاوز تشوف حد فى الجنة بس تتمنى فى نفسك.. وعلى طول تشوفه .

– ازاى دى بقى ؟

وارتبك المعلم رضوان قليلا قبل أن يقول :

– الله !! أهو دا اللي حصل بقى . أنت شريكه .

وسكت الرجل ، فقد أفحمه منطق المعلم رضوان .. ودار الهمس بين الجميع ، وتحركت ألسنتهم بتعليقات شتى :

– صحيح ياناس ربنا قادر على كل شئ ..

– سبحانه .. هو المغنى ..

– يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ..

– ده ربك كبير ..

وعندما سكتت الأصوات ، وهم المعلم رضوان باستئناف الحديث من جديد ، زعق الواد برهومة كالغراب :

– يامعلم رضوان ، الساعة بقت اتناشر ..

وضرب المعلم يده فى جيب الصديرى فانتزع ساعته الضخمة القديمة.. كانت الثانية عشرة تماما .. فأعادها إلى جيبه من جديد ، وقام فانتحى ببرهومة جانبا وحاسبه على المشاريب ، ثم حيا الجميع من بعيد ، وراح يحث الخطى على بلاط الدحديرة حتى وصل إلى الفرن . وعندما أصبح فى فم الباب أحس بوهج النار تكاد يلهبى حرارتها حتى الجدران ، ونسى المعلم رضوان كل شئ ووثب نحو الداخل على عجل ، وخلع جلبابه فعلقه فى رأس المسمار ، ثم قفز إلى أسفل وفتح باب الفرن ، فأحس كأنه فتح بوابة جهنم ، وتصبب العرق على جبهته بغزارة وهو يتناول أرغفة العيش ليقذف بها داخل النار ، وفى رأسه تطوف كل الصور التى رسمها بنفسه للجنة التى لابد أن يراها فى يوم من الأيام ..

✿ ✿

غيط القصب



ياحمدان بعد العمر الطويل تطلع حرامى وتدخل اللومان ويموت أولادك من الجوع فى كفر الغنايم .. وانت طول عمرك شريف تضع على رأسك لبدة ، وعلى صدرك نمرة ، وعلى كتفك بندقية تحرس بها فيط القصب للشركة، ولك مرتب ثابت كالمستوظفين وانت طول عمرك قانع ياحمدان بالجنيهات الثلاثة كل شهر ، تدفع اثنين منهم للعيال فى كفر الغنايم ، وتصرف انت طول الشهر تاكل وتنام وتلبس وتشرب الشاى وأحيانا تدخن السيجار الممتاز .

والجنيه صحيح لا يكفيك ، والأمراض تنهش جسمك والروماتيزم ينشر عظمك وأصابع قدميك تطل من بوز الجزمة ، والعقارب تسرح حولك فى الحجر الذى تأوى اليه والشقوق التى تمزق يديك والخيبة تحط عليك من كل مكان .

وقطع على حمدان تفكيره غلام جاء يعدو من بعيد ، ويزعق بصوت كريه وكأنه غراب :

– فز يا حمدان لفندى فى الشركة ..

وزام حمدان كأسد أسير ولم يتكلم ، وأعاد الولد نداءه ، ثم استدار وراح قافزا مثلما جاء ، وقضم حمدان ابهامه ، ثم نكش شعر شاربه المنفوش ، وعاد يفكر فى الوكسة العريضة التى أصابته آخر الزمن .. فلابد أنها ساعة نحس تلك التى رآه فيها الأفندى معاون الشركة وهو يبيع حزمة القصب بقرشين والأفندى المعاون مؤذى لا يرحم ، وسيطرده حتما وربما قدمه للمركز مقبوضا عليه ، والمركز يسمع كلام الشركة .. ونهارك أزرق ياحمدان لو سجنوك .. فمرة قبل الآن ضبطوه وهو يسرق القصب .. ويومها سلموه للمركز .. وضربه العساكر بالكفوف والقوايش .. وبات أربعة أيام على الأسفلت ثم أطلقوه حرا بلا تهمة ولا عمل .. لأنهم فى الشركة استغنوا عن خدماته.. وليس يعقل أن يقبل الشركة بين خفرائها لصوصا من عينة حمدان .. ولأن حمدان ليس لصا ، وهو لا يصدق أبدا أن الشركة تفصله من أجل حزمة قصب يضيع مثلها عشر مرات فى كل ساعة ، طعاما للذباب ، والفلاحين الذين يعبرون الطريق ، واللصوص الذين يعيشون داخل غيط القصب والشركة لن يلحقها الخراب من أجل حزمة يبيعها حمدان لابد أنها عين أصابته من العاطلين المتطوعين على جانبى السكك فى كفر الغنايم ، وحفيت أقدام حمدان عند الشيخ ، وعند النائب ، وقبل رجل الضابط ، وانحنى على يد الشاويش ..

ونام أياما عند بيت المعاون .. ثم قبلت الشركة أن يعود إلى عمله على شرط الا تمتد يده إلى عود واحد من القصب .. ورضى حمدان بشرط الشركة .. وهو على يقين بأن يده ستمتد دائما إلى غيط

القصب ينتزع منه عيدانا يمصها وأخرى يبيعها ويحصل على ثمن الدخان ، وغيط الشركة مثل بحر المالح ليس له برور ..

وعاد حمدان إلى غيط القصب يحرسه ، والتجربة التى خاضها قد غمرت نفسه بأحساسيس جديدة ، وحركت برأسه أسئلة كثيرة لم تكن تطوف به من قبل لماذا تكره الشركة السرقة عندما تكون من جانب حمدان، مع أن الشركة تسكت على سرقات على نطاق أوسع من جانب لصوص يعيشون داخل القصب ، والشركة تعرف هؤلاء واحد واحدا ، وتدفع لكل منهم أجرا كبيرا يوازى أجر المدير . وتحترم أيضا وتتركهم ينتزعون محصول فدادين كثيرة والشركة تبدو راضية كل الرضا .. بل انها فى أحيان كثيرة تأمر بتعيين أنفار لا حاجة اليهم لأن هؤلاء اللصوص أشاروا بتعيينهم وهو يعرف هؤلاء اللصوص جيدا ، فهم ينزلون ليالى كثيرة عليه ويقضون ساعات الليل معه ، ويشربون الشاى ويتحدثون أحاديث فاجرة .. ويشتمون المدير والمعاون ويتحدثون عن الضابط حديثا وكأنهم لا يخشونه ، ومن خلال تلك الأحاديث فهم حمدان علاقة وثيقة وبالنائب ، وانهم أحيانا ينزلون ضيوفا عليهم وعلى الأعيان يأكلون ويسمرون معهم فى نفس المنزلة ..

وتوقف حمدان عن السرحان فقد ناداه خفير آخر من عند باب الشركة بصوت مرتفع ..

– ياحمدان أن كلم لفندى المعاون عاوزك ورد حمدان بصوت أعلى :

– طيب ، يعنى هو مستعجل جوى ع الشر ..

واستدار الخفير الآخر ومضى داخل الشركة ، وعندما غاب عن ناظريه عاد يفكر وهو يتساءل فى دهشة عن السر الذى يفصل بينه

وبين هؤلاء اللصوص الذين يعيشون داخل غيط القصب انهم ليسوا أقوى منه جسدا، بل هو أقوى من بعضهم ! طوله مفرط ، وقلبه ميت لا يخشى الأسود ومعه بندقية من نفس النوع الذى يحملونه ، ولكن هو عار ، وهم فى أبهى حلة ، الجلاليب الصوف والجوع فى الشتاء ، ومن تحتها القفاطين الشاهى والجزم الطويلة فى أقدامهم ومن تحتها الشرابات الصوف ، والكتاين الذهب تتدلى من جيوبهم وفى الصيف يلبسون الحرير الطبيعى والفانلات المشغولة بالابرة والصنادل التى تكشف عن الأصابع والكعبين . وهو مفلس دائما ، وهم دائما فى يسر، محافظهم منتفخة ، وسجائرهم من نفس النوع الذى يدخنه الضابط واللفندى المعاون ، وهو يشرب السجاير لفرط ، ولا يجدها بسهولة فيمد يده إلى غيط القصب ليعيد عصافير رأسه التى تهرب منه وتطير.

سؤال غريب . احتار حمدان البحث عن جوابه .. ماذا يفصل بينه وبين هؤلاء اللصوص حتى أنهم يرتعون فى النعمة ، ويشرب هو كل ما فى الوجود من ذل وهو أن يرعبه الضابط ، ويبعد النوم عن عينيه أفندى مفعوص مثل المعاون أنه أقوى من بعضهم والسلاح الذى معه مثل السلاح الذى معهم ولكنه يمتاز عنهم بأشياء كثيرة هى أنه يستطيع المشى أمام مركز البوليس فى أى وقت يشاء وهم لا يستطيعون ، وشيخ البلد يسأل عنه أحيانا ، ولا يسأل زبدا عن هؤلاء المطاريد والنائب زاره مرة فى بيته وجلس معه فوق الفرن وشرب معه الشاى وعامله بمودة ويوم الانتخابات ذهب ومعه تذكرة القى بها فى صندوق . والآخرون لا يستطيعون أن يذهبوا فليس لهم تذاكر ، وليس

لهم عند الحكومة وجود . وهو يخدم الشركة ، والاخرون يسرقونها ومع ذلك فله منها تالاحتقار ، ولهم منها العطاء . أحوال مقلوبة مثل كل شئ فى الوجود ، ويبدو أنها ستظل مقلوبة ، ولا سبيل إلى اصلاحها على الإطلاق . ولو أن هناك عدلا لمنحته الشركة العلاوة التى طلبها منذ عام ، اذن لما سرق ، ولما وقف هذا الموقف الذى لا يدرى كيف يواجهه . فقد فات الأوان واقشعر بدن حمدان كله وهو يتخيل نفسه فى الحديد ، وصفا من الجنود يحرسه ، ثم المحاكمة والسجن ومصير أسرته فى كفر الغنايم وكلام الناس عليه . وأطفاله كلهم صغار ليس فيهم من يستطيع أن يعول العائلة وكفر الغنايم كله سوف يشمت فيه . وستهون زسرته وتذل ، وستخدم الذى يسوى والذى لا يساوى شيئا فى سوق الرجال . وهو نفسه بعد أن يخرج من السجن ويعود إلى كفر الغنايم ، ماذا يفعل وهو لم يكن يجد عملا فى الحقول قبل أن يعمل فى الشركة ، انه سيبقى ملطوعا على جدار المضيفة يدور مع الشمس أينما تدور .

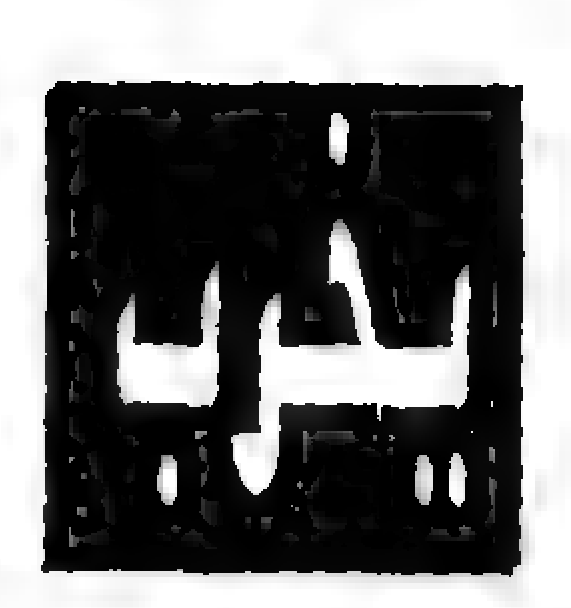
ولو أنه لم يسرق القصب فى تلك الساعة المهيبة التى كان المعاون يمر فيها على الخفراء لما حدث من هذا شئ ولكن ، الله يخرب بيته محمد أفندى المدرس الالزامى هو الذى أصر على شراء حزمة القصب فى تلك الساعة لأن أولاده مغرمون بمص القصب فى النهار وهو طول عمره يسرق القصب ويبيعه فى الليل ، ولكن هكذا أراد له القدر ومحمد أفندى وأولاده المغرمون بمص القصب فى النهار أسباب ليس الا وليس أمامك ياحمدان الا التسليم بارادة الله .

ونفخ حمدان وهو ينتزع بأصابعه من جيبه الداخلى سيجارة يشعلها علها تهدئ أعصابه ، وتضغط بدخانها على الثورة التى تجيش

بنفسه ، ولو كانت العسكرية قبلته لاستراح من هذا كله ، ولكنه لسوء البخت - أقرع - والعسكرية لا تأخذ القرع وعلى عينيه الشمال سحابة أصابه بها مرض لايدرى عنه شيئا كاد يفقده نور عينيه وهو طفل صغير .

وأشعل حمدان السيجارة ، وجذب منها أنفاسا عميقة . وراح ينظر بعين نافذة إلى غيط القصب الذى يترامى أمامه عريضا مثل البحر المالح ليس له برور ، وفى داخله تسكن أسود كاسرة من البنى آدم تحتقر المدير والمعاون، ولا تخشى الضابط ولا تعمل حسابا للخفراء وتلبس الصوف فى الشتاء والحرير فى الصيف وجيوبها عامرة بالمال ، وسجائرها فاخرة النوع ، ولها من الشركة مرتب الخواجة المدير ، ومصمص حمدان شفتيه وبدت على وجهه ابتسامة أرعشت معالمه كلهـا. وجاء نداء مرتفع من الخلف يطلب اليه أن يسرع فى مقابلة المعاون . ولكن حمدان لم يسمع النداء ولم يهتم ، فقد تحسس سلاحه ونهض على قدميه ، واخترق هذا السياج الذى يفصل بينه وبين الأسود الكواسر التى تسكن الغيط وانفرجت أعواد القصب وتهشمت تحت أقدامه أعواد ما لبثت أن عادت وتآلفت ، وغاب حمدان من خلفها عن الأنظار . وغدا سوف يصبح حمدان واحدا من الأسود الكاسرين .

✿ ✿



بيت الذين نصحوك يارشوان بركوب المركب . لقد انهد حيلك وانقطع قلبك ، وستموت حتما قبل أن تصل إلى مصر ، ولو فعلت كما أوحى لك تدبيرك وعقلك لكنت الآن فى الطريق إلى مصر خفيفا على قدميك ، ولما كانت الحبال قد أدمت كتفك وعنقك وأنت مربوط فيها طول النهار كأنك قرد ، والمركب من خلفك ، ومن فوق المركب آلاف البلاليص ومن فوق البلاليص عشرة رجال يملكون المركب ولا يتحرك رجل منهم ليشد اللبان قليلا يا رشوان.

وزفر رشوان زفرة حارة وهو ممدد كالفسيخة على ظهر المركب ينظر فى نجوم السماء ، ومياه النيل ساكنة متموجة فى رفق ، ولا نسمه هواء ويبدو أنها لن تكون وسيشد اللبان فى الصباح كما شده كل يوم منذ شهر، ورفع رشوان يده التى أدماها الحبل يتحسس عظامه التى تحطمت وعروق رقبته التى برزت وانتفتحت وأصبح لونها أزرق من النيلة .. انه الآن فى بنى سويف وبعد خمسة أيام سيصبح فى مصر ولكن من يدرى ، فقد لا يصل إلى مصر أبدا انه يحس الآن

احساسا صادقا نابعا من جروحه التى تقيحت ، انه سيموت فى الطريق وسيدفن فى قبور مهجورة كالكلب ، والله ينكد على صالح فهو الذى أشار عليه بهذه المشورة المهيبة وأكد له أنه لن يشد اللبان أكثر من يوم.. وربما يومين وأحس رشوان بحركة غريبة من خلفه فاستدار بعنقه ليرى من هناك ، ولم يكن هناك سوى الريس سليم الذى يملك أكبر حصة فى المراكب ، وكان يتأهب للصلاة ، فرش جلبابه ناحية القبلة ، ثم بسمل ورفع يديه نحو رأسه ، ولكنه فجأة أحس برشوان يتقلب على ظهر المركب كالسمكة فسأله فى استنكار :

- جاعد كده ليه يارشوان ، عما تفكر فى ايه ؟

- فى حال الدنيا ..

- وما لها الدنيا ماهى عال ..

- عال جوى عشان مانت جاعد زى البلاص طول النهار ، وأنا عما أشد فى اللبان لما أنهد حيلى ..

عجايب ياخوانا على رجالة اليومين دول .. دى رجالة ورج .. وهلل الريس سليم وكبر واستغرق فى الصلاة ، ومرت على ذهن رشوان كل ذكريات الأيام المريرة التى عاشها فى النهر على ظهر المركب ولا عمل له الاشد اللبان ، فهو فى حاجة فعلا إلى السفر إلى مصر ، بعد أن وصله خطاب يفيده بضرورة الحضور للعمل فى شليش الخضار بروض الفرج ، وكانت أمنية رشوان الوحيدة أن يجد عملا فى مصر ولو من غير أجر ، فهو يعلم أن زيدان وعبد المعبود بدأوا حياتهم فى الشليش بوجبات اليوم ثم أصبحوا بعد ذلك معلمين كبار وأصحاب أطيان ، وهو لا يهمه كيف يبدأ المهم أن يجدها يبدأ به ، ولكن المشكلة كانت فى

الطريقة التى يسافر بها إلى مصر وهو لا يملك نقودا ولا يستطيع أن يقترض وفكر رشوان بعمق ثم قرر فى النهاية أن يرحل إلى مصر مشيا على قدميه ، فكرة وليس أمامه سواها ، وهو لن يعدم وسيلة ليجد غذاءه وثمن الدخان على طول الطريق، ولكن صالح وجد له حلا للمشكلة : لماذا لا يركب مركبا إلى مصر ولن يدفع شيئا ، ولكنهم سيطلبون منه أحيانا أن يشد اللبان عندما تكون الريح هادئة والمركب عاجزة عن السير فى مجرى النهر .. وصالح نفسه جرب هذا من قبل ، ودخلت الفكرة رأس رشوان وهو قوى ويستطيع شد المركب عندما تهدأ الريح .. وهى لا تهدأ الا يوما وربما يومين ، وذهب رشوان إلى النهر ، وساوم واتفق وجاءت قرعته فى مركب الريس سليم .

وكانت الريح عظيمة نشطة ، والمركب تسير كالونش ولا حاجة هناك لشد اللبان ، خمسة أيام فقط ثم هدأت الريح تماما وكأنها ماتت .. وجاء الدور على رشوان ليجرها بدل الريح ، وهكذا ربط نفسه فى الحبل وغاص فى الطين عند حرف البحر وهيلا هوب والمركب تتهادى من خلفه ومن فوقها البلاليص ومن فوق البلاليص عشرة رجال ، ومضى يوم ويومان وأسبوع والريح يبدو أنها لن تبعث من جديد ..

ولو واحد فقط من الذين على ظهر المركب يشد اللبان ليوم واحد يستريح فيه رشوان اذن لصار قادرا على الشد أبد الدهر ، ولكنهم جميعا يرفضون .. انهم أصحاب المركب ، كل منهم له حصة ، ثم ان الاتفاق حدث بينهم وارتضاه رشوان ولم يجبره أحد على أن يقبله .. وفى الأمسيات التى كان يسهرها رشوان مع الرجال العشرة كان أحيانا يثور على الوضع الذى انتهى اليه الحال على ظهر المركب ، وكان يصرخ فيهم محتجا ..

– هو ما فيش عدل .

– كلام ايه ده اللى انت بتجوله ؟

– هو مافيش رجالة تانى تشد .

– ما هو انت اللى رضيت ، كان حد ضربك على جفاك ؟

– طيب وسيدى عبد الرحيم الماشى بكره وسايب المركب .

– مع السلامة يأخى ، انت حتشاركنا ولكنه كان يعجز دائما عن تنفيذ وعيده ، انه لايستطيع أن يغادر المركب ، لقد شد اللبان أكثر من أسبوعين فكيف يتركها اذن وقد تهب الريح فجأة فيستريح ، ثم هى لابد أن تهب حتى لايفوت الوقت وتضيع الشعلة .. ولو ضاعت اذن لمات جوعا فى مصر، وماتت الأولاد فى الصعيد . ولكن الريح ظلت ميتة تى وصل المركب إلى أسيوط .. ونامت بعد ذلك بجوار الشاطئ خمسة أيام كاملة ولم يغادرها رشوان أبدا كان مشغولا عن النزول إلى البر بجروحه وهمومه وتفكيره الدائم فى الشغلة وفى الأولاد ، وفى عبد المعبود وزيدان وصابر الذين أصبحوا بنكيرة وأصحاب أطيان .. ثم جاءت الريح بعد ذلك وانزلقت المركب فى الطريق إلى مصر ، واستطاع رشوان أن يهدأ وأن يطيب جروحه، وأصبح قادرا على الحركة وعلى المشى .. وأحيانا كان ينزل إلى البر عند القرى الى تقف عليها المركب فيطوف فى داخلها يشاهد معالمها .

ان الجو بعد اسيوط أرق منه فى داخل الصعيد ، والخير هنا أكثر والناس أنظف وأغنى ، والنساء أجمل ولونهم أفتح من اللائى فى الصعيد لابد أن السناء فى مصر يشبهن الخوجات السواح اللائي يفدن

إلى الصعيد فى الشتاء ، وياخرابك يارشوان ل وقعت فى واحدة منهن ، عندما مال قارون وعمارات مثل المعبود ، وغيطان مثل زيدان ، ياخرابك يارشوان لو حدث الذى فى بالك ، ولماذا لا يحدث ؟ والواد الترجمان العدمان صمويل ماتت فى دباديبه خواجاية من أمريكا ، وأصبح صمويل العدمان من أعيان أسوان وابتسم رشوان وهو يتخيل نفسه فى الجبة والجوخ والقفطان الحرير والعصايا االكريز والجوز الأجلسيه، والخواتم الذهبية فى أصابعه واللاسة الكشمير على كتفيه ، والعيال فى الصعيد سيدفع لهم كل شهر مائة جنيه ، بل تكفى عشرة . أحلام جميلة قد تتحقق ، ولكن لو تهب الريح فتدفع المركب إلى مصر قبل أن تطير الشغلانة وهو يعلم أن العاطلين فى مصر أكثر من البلاليص فى الصعيد ، ولكن الريح تموت مرة أخرى عند المينل، وهات ياشد .. ويئن رشوان ويتوجع ولا مجيب وقد استطاع أن يصل بالمركب إلى بنى سويف ، وأمامه الآن خمسة زيام لو هبت الريح كانت دائما تهب قبل أن يركب هو المركب .. ولكن لماذا ركب هو فى بؤونة .. انه سوء الحظ .. وكان من الممكن أن يستمر رشوان فى شد اللبان لولا زجاجة كبيرة مشطورة تصفين دخلت فى رجله فقطعتها ونزف دمه كان يسيل من حنفية ..

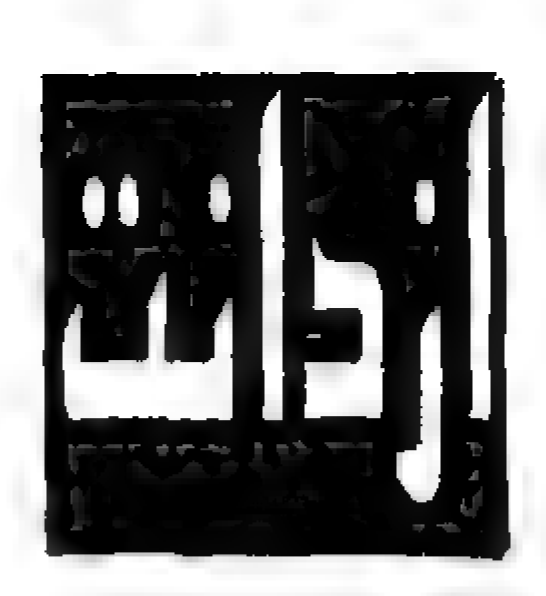
وأحس رشوان بهبوط فى قواه ، فنام على ظهر المركب وقد حشا الجرح المفتوح طينا وترابا ولفه بخرقة وجدها عند الشاطئ وراح يزوم كالكلب المصاب ، والجرح يزداد ألما ، والحمى التى كانت فى ساقه الجريحة شملت جسمه كله ، وراح رشوان فى غيبوبة .. يتذكر أم عياله التى تركها بلا قرش وعياله الصغار والشغلة التى فى الشليش ، والشورة المهببة التى أشار بها صالح والتى لولاها لكان الآن يسير على

قدميه خفيفا كالفراشة نحو مصر ، ولم يدر رشوان وهو فى الغيبوبة أن الريح قد هبت قوية رغم بؤونة ، وان المركب تنزلق بسرعة مع التيار وانه قد أصبح فى مديرية الجيزة ، وفى الصباح سيكون فى مصر ، لم يدر بشئ من هذا كله ، فقد كانت الحمى تأكله وتأكل وعيه ، فكان لايرى الا الماء ولايذكر الا شد اللبان الذى جاء بخبره . وفى الليل حلم رشوان ، أحلاما مزعجة وهذى بكلام كثير حتى أن الرجال أصحاب المركب أيقنوا أنه سيموت فالتفوا حوله ، يبللون جبهته بالماء البارد ويقرأون حوله بعض الآيات ..

وعندما جاء الصباح كانت المركب قد بدأت فى رحلتها مع التيار منذ الفجر ، وكانت الشمس تقف عالية ناحية الشرق ورشوان ممدد مكانه على ظهر المركب فاتحا عينيه وقد زالت عنه وطأة الحمى القاسية التى استبدت به . ونهض فى تثاقل وقد تأكد أن المركب تجرى وأن الريح تهب قوية نشطة . والتيار يدفع بالمركب سريعا نحو مصر . وعندما رأى على الشاطئين البعيدين سرايات جميلة وسيارات تسابق الريح تأكد أنه أصبح فى مصر فاستدار الى الناحية الأخرى مدققا النظر فى معالم الطريق الذى ينحدر فيه . وعندما رفع بصره أمامه أشرق وجهه الكالح ، وارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه . وكان كوبرى عباس يقف على بعد قليل يسد مجرى النهر وكأنه حارس عنيد . وجلس رشوان مكانه وهو يشكر الله على أن نجاه من يموت أكيد . وعندما اندفعت المركب أسفل الكوبرى فى طريقها إلى روض الفرج طاف بخياله عيد المعبود وزيدان وصمويل الترجمان الذى أصبح بنكيرا ومن أعيان أسوان ..

✿ ✿

يـــاعزيـــز



القـرية فى ذلك الصـباح وشـغلت نفـسـهـا بالـحديث عن القـادم اليها .. هـذا البيـه الدكتور الذى يعـرف كل شئ وفى رأسـه علم الـدنيـا . والـذى شـرب العلم من بلاده ، وعنـــدما كان فى بلاد بره ، حتى فاق أهل بره علما وفنا !!.

هكذا أكد شندى لأهل القـرية وهـو يتـحـدث عن البيه الدكتـور الذى سـيشـرف القريـة فى المسـاء ليـتحـدث إلى الفـلاحين عن كـيفـيـة حلب البقرة، ووسـائل زيادة الثروة الحيوانيـة .. موضـوع المحاضرة كـما كتب على تذاكـر الدعـوة التى وزعـهـا عـضـو مـجلس الشـيـوخ على كـبار المزارعين والأعيان ..

ولكن الفـلاحين الغـلابة لـم تصـل اليـهم دعوات لـحضـور المحاضـرة اكتـفى العـمـدة بالمرور عليهم فى بيـوتهم فى موكب مـهيب من الـخفراء وشـيخ الـخفر ، وشـيخ البلـد ، ونبه على كل مـنهم الا يتأخر فى الحضـور إلى المركز الاجتماعى حتى لا تفوته مـحاضرة الدكتور ، لـم ينس العمدة أن يخـبـرهـم وابتـسامـة عـريضـة ترتسم على شـفـتـيه أن الـبيـه المأمـور سيشـرف الحفلة ..

ولم يعد هناك حديث للفلاحين الا البيه الدكتور والمحاضرة وراح كل منهم يرسم بخياله الواسع صورة للدكتور المتعلم بره .. فى امريكا ، والذى فاق أهل بره علما وفنا ..

– ولكن .. ما هى الثروة الحيوانية دى ياجدعان ..

هكذا تساءل أحمد البديرى رئيس أنفار الدورة فى عزبة العمدة ، وسارع محمد أفندى المدرس الالزامى بالرد عليه .

– الثروة الحيوانية يابهيم ماتعرفهاش ..

وضحك أحمد البديوى حتى استلقى على قفاه ، وقال وهو يلهث من شدة استغراقه فى الضحك ..

– يعنى هو أبويا كان ودانى الجامعة ..

وضرب محمد أفندى كفا بكف وهو يلعن أبو البهايم .. ويزوم مثل كلب جريح ..

– بقى فيه حد لشه مايعرفش الثروة الحيوانية ياجدعان وعايشين فى الدنيا تعملوا ايه بالذمة . الثروة الحيوانية ياحيوان يعنى بدل مايبقى عندك جاموسة تبقى عندك جامسوتين ..

ورد البديوى على الفور :

– طيب ويبقى عندى جاموستين ازاى وأنا ما عنديش فلوس . هوه أنا لاقى أهرش ..

وضيق محمد أفندى ما بين حاجبيه وعينيه . وراح يخلع بأظافر يده أظافر قدمه ، وقال فى هدوء بالغ :

– أهو ده اللى هتعرفوا النهاردة فى المحاضرة ..

ثم أضاف بعد فترة صمت طويلة :

– حاكم البلاد كلها راح تشوف التمدن ، وبلدنا دى مكتوب عليها الفقر، طول سمافيها بهايم زى أحمد البديوى .

وأثارت العبارة الأخيرة أحمد البديوى فزعق على الفور :

– جرا ايه يامحمد أفندى ، احنا يعنى غلطنا فى البخارى ، هو ده اسمه كلام برضه ، بقى يعنى حلب البقرة عاوز محاظرة .

وضحك محمد أفندى طويلا ، وقال وهو يهز رأسه بشدة :

– محاضرة يابهيم .. مش محاظرة ..

ونهض محمد أفندى ، وقبض بيده على حفنة تراب وهو ينهض متثاقلا ألقى بها على رأس البديوى ، وهو يقول ضاحكا :

– ياراجل روح شوفلك تربة ، قبل الموت ما يغلى . وقال البديوى دون أن يتحرك :

– أهو الموت جى .. يعنى هوه احنا راح نخلل ..

وعندما ابتعد محمد أفندى عن الجمع المحتشد عند دكان ونجث ، تساءل ابراهيم عطوه فى خوف شديد :

– هوه الدكتور اللى جى الليلة راح يكشف ع البهايم ..

وهرش البديوى فى قفاه .. قبل أن يقول :

وقال ابراهيم عطوة بحذر :

– حاكم البهيمة بتاعتنا عيانه قلت أخبيها هنا ولا هنا .

وارتفع صوت من وسط الجلسة يقول :

– خبيها برضه أحسن ، ماحدش عارف ايه اللى راح يجرا .

وفى المساء كان المركز الاجتماعى يسبح فى الضوء ، ويموج بالمئات الذين توافدوا اليه من أنحاء القرية والقرى المجاورة . واكن عساكر البوليس يضربون حوله نطاقا ، وثمة صوت مزعج يصرخ فى الميكرفون لتجربته قبل بدء الحقله . ولم يكن بين الجمع الحاشد واحد من الأعيان اللهم الا عبد الرسول شحاته وهو يملك عشرة أفدنة لا غير، ومع ذلك أصر على الجلوس فوق الكراسى القطيفة ، ورفض أن يتلحلح من فوق الكرسى ولو اضطره الأمر إلى ارتكاب جناية ! .

وبعد قليل أقبل المأمور ومعه الدكتور شريف وبعض الأفندية ، فأفسح الناس لهم طريقا .. وسرعان ما اتخذ الجميع مجلسهم فى الصف الامامى، وأصر المأمور على الا يجلس قبل أن يجلس عضو الشيوخ والدكتور أولا ..

كان الدكتور شابا فى الثلاثين من عمره يرتدى بذلة حريرية بيضاء ويلبس نظارة سوداء رغم أن الشمس كانت قد اختفت منذ ساعات ، ويبدو نحيفا خفيفا كأنه ريشة حمامة بيضاء ..

وهمس الفلاحون بأن المعلم هو الذى سلبه حيويته ونضارته وأكل شبابه ، وانه لولا العلم لكان مثل طور الوسية ، أو مثل أحمد البديوى على الأقل ..

وعندما أنتهى المقرئ من التلاوة ، قام الدكتور فى خفة ووقف أمام الميكرفون ، وبعد أن تنحنح وشرب شفطة ماء واحدة قال فى صوت جميل، وعبارات واضحة :

- أيها الفلاحون الزملاء . السلام عليكم ورحمة الله .

ورد الجالسون جميعا وفى وقت واحد :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..

ولكن يبدو أن الدكتور لم يكن ينتظر ردا منهم فأسرع مواصلا حديثه على الفور :

- ان موضوع الساعة هو كيفية حلب البقرة ، ووسائل زيادة الثروة الحيوانية ، وسأتحدث اليكم بعد خبرة خمسة عشر عاما قضيتها فى أمريكا ..

فأولا : لكى نحلب البقرة يجب أن يتم حلبها فى مكان نظيف مدهون بطلاء أبيض لاراحة أعصاب البقرة ..

وثانيا : يجب أن تتم عملية الحلب بواسطة خبير فى هذه العملية ويستحسن أن يكون مرتديا قفازا من الجلد الناعم ، وجلبابا أبيض معقما فى درجة حرارة أربعين مئوية ، ويجب وضع كمامة على الأنف أثناء عملية الحلب حتى لا يتلوث الحليب بالميكروبات المختلفة ..

وإلى هذه اللحظة كان الجميع صامتين .. ولا حركة ، ولكن أبو سويلم الخفير .. هتف فى اذن جاره :

- همه راح يفرقوا علينا كمامات هيه الحرب قامت رالا ايه ياجدعان ؟!! .

ولم يدر أبو سويلم الا وصف طويل أمامه يضحك بصوت عال . كان يجلس فى الصف معاون المستشفى ، وموظف البوستة . ولم يسكتوا

الا عندما التفت المأمور إلى الخلف .. فعاد الصمت من جديد يخيم على الصالة ، وعاد الدكتور الى حديثه قائلا :

– ولكى يكون اللبن مفيدا ومحتفظا بجميع المواد الغذائية يجب حفظه فى أوان من المعدن ، ويلاحظ تعقيمها قبل وضع اللبن فيها . كما يجب معاملة البقرة قبل عملية الحلب معاملة حسنة بحيث لا تتوافر أعصابها فتفسد اللبن ، ويصبح غير صالح للاستعمال ..

وصمت الدكتور قليلا ريثما تناول شفطة أخرى من كوب الماء الذى أمامه ثم تناول منديله الحريرى ومسح به نظارته السوداء ، ثم أعادها كما كانت وضرب بيده على المائدة .. وقال فى صوت جميل .

– واذا اتبعتم هذه النصائح فسيزيد مقدار اللبن وسيصبح فى مقدور البقرة أن تلد ولادة سهلة وميسورة ، وسيزيد وزنها حتما بفعل الراحة والمعاملة الحسنة ..

وفجأة قفز من بين الجالسين شيخ عجوز فى السبعين من عمره ، وسأل فى لهفة :

– ياسيدى الدكتور ، احنا راح نستلم البقرة امتى ؟ ..

وضربت لخمة مع الدكتور فلم يدر كيف يجيب عن سؤال العجوز ، ولكنه بعد فترة رد على سؤاله بسؤال أخر :

– بقرة أيه ؟ ..

– البقرة اللى احنا راح نعاملها كويس ..

وابتسم الدكتور ابتسامة هادئة وأجابه :

– البقرة اللى عندك ..

وقال العجوز :

– أنا معنديش بقرة !!

وارتسمت علامات الوقار على وجه الكتور وقال :

– لكن احنا بنتكلم عن اللى عندهم بقرة ..

وظاطت الصالة وارتفع الهمس بين الفلاحين ، واحنا ماعندناش بقر، واللى عنده حتة جاموسة عامل أبو على .. والنبى يخيب خيبتك اللى ما يقول يا عزيز .. يا عزيز ! ..

ولم تفلح التفاتة المأمور هذه المرة فى إعادة السكون فاضطر إلى أن يرفع صوته « هص .. هص » ..

وسكت الناس من جديد . غير أن الضجيج عاد عندما بدأوا يخرجون من الصالة ، خرج الرجل العجوز أولا ، وتبعه أبو سويلم الخفير ، وخرج خلفه أحمد البديوى ، ونصار الأقرع .. وتسلل العشرات خلفهم إلى الخارج ، وعندما انتهى الدكتور من محاضرته لم يكن موجود هناك سوى محمد أفندى ، ومعاون البوسطة ، ومعاون المستشفى والعمدة ، وعبد الرسول شحاته ، فقد كان قرب المسافة بينه وبين المأمور يغريه بالبقاء .

وعندما انتهى الدكتور من محاضرته . صافح المأمور أولا ، ثم مد يده فصافح بقية الموجودين . وعند الباب الخارجى ، تقدم محمد أفندى اليه فاشاد بالخطبة وموضوعها ، وبعلم الدكتور العزيز ، ولم ينس أن يشيد بفضل البيه المأمور فى استتباب الأمن والنظام فى دائرة المركز ..

وقال وهو يصلح من شأن جاكتته الكالحة :

– ما تزعلش من أهل بلدنا يادكتور . حاكم دول ناس بهايم !!

وقال الدكتور فى هدوء ، وشبح ابتسامة طيبة ترتسم على شفتيه :

– لا – أبدا ، دول ناس طيبين ..

وسحب المأمور من يده ، ودخلا العربة ثم مالبثت العربة أن تحركت، وغابت بهما عن الأنظار ..

وعندما مرت على الجسر ، ونورها يكشف لها الطريق إلى مسافة بعيدة ، وزوبعة من الغبار تلاحقها على الطريق . هتف الفلاحون الذين يجلسون على حرف الترعة فى كسل لذيذ :

– دا الدكتور أهه ياجدعان ..

وقال أبو سويلم على الفور :

– يخيب خيبتك اللى ما يقول يا عزيز ..

ورد الجميع فى صوت واحد :

– ياعزيز !! ..

✿ ✿

رقم الايداع

I. S. B. N ٩٢ / ٤٥٨٣

977 - 07 - 01777

خوخة السعدان

الأدب عند محمود السعدنى ليس تصويرا للحياة ، وإنما هو الحياة نفسها .

وشخصيات قصصه ليسوا رموزا لتجسيد واقع يريد إبرازه أو أدوات يحركها للتعبير عن فكرة لديه ، إنما هى حقائق حية ، عاشرها بنفسه ، وجاء يحكى لنا عنها .

وهو قد عاشر هذه الشخصيات لأنه يحب أن يعاشر الناس .

وهو يحكى لنا عنها ، لأنه يحب أن يحكى .

وسر السعدنى هو أنه لا يوجد مكان ، أو بيئة ، أو مدينة ، أو شعب ، لا يشعر معه أنه فى بيته ، فهو يأكل الكافيار فى قصور السادة بنفس اللذة التى يأكل بها كوز الذرة على الرصيف ، وهو فى السجن كان يداعب السجان ، ويقاسمه طبق العدس .

ويسمع أمجاده بلذة حقيقية ، وفى بورسعيد كان يقضى الليل والنهار مع الصيادين ، وفى لندن كان يسمع بشغف متاعب أصحاب الملايين ، وفى حوارى الجيزة كان يشغله الجزار الذى قبض عليه رجال التموين ، وصاحب المقهى الذى سقطت لافتته لأنه ثبتها بجبس مغشوش .

دار سعاد الصباح

